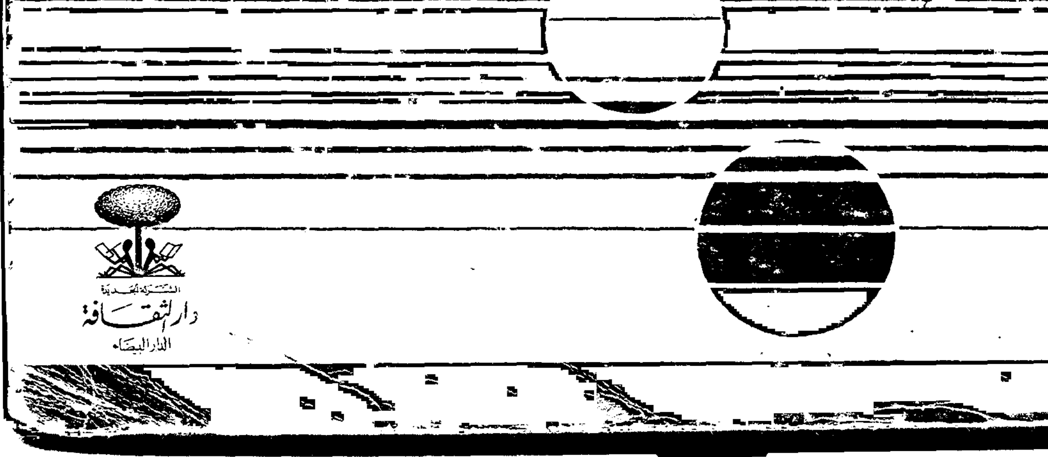
محمد بن تاويت

الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى

الجزء الثاني



محمد بن تاويت

الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى

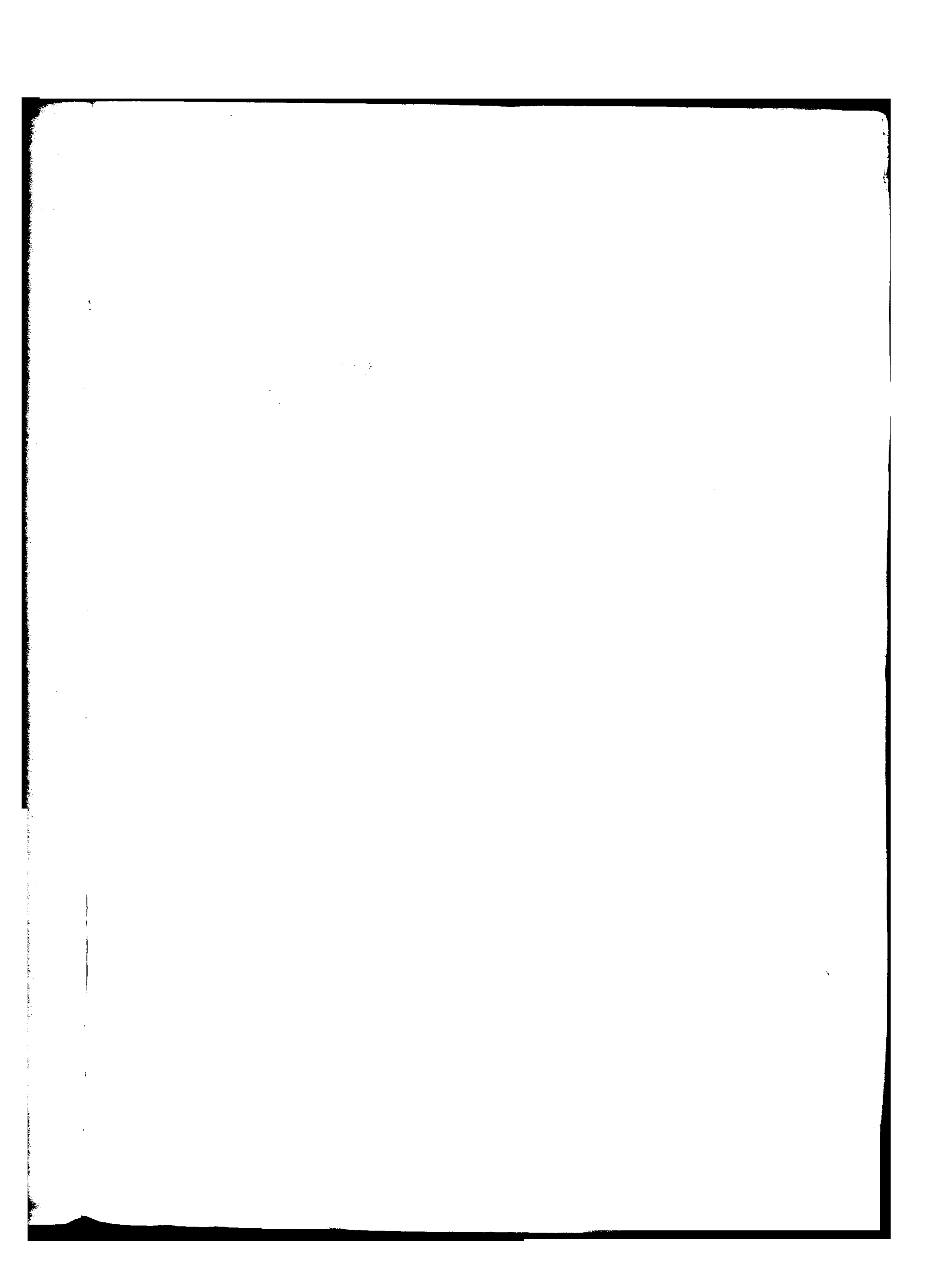
الجزء الثاني





محمد بن تاويت
الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى

الوافي بالأدب العربي
في المغرب الاقصى



محمد بن تاويت

الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى

الجزء الثاني

نشر وتوزيع



دار الثقافة

34.32 شارع فيكتور هيكو

الدار البيضاء

الهاتف : 30-23-75

محمد بن تاويت

الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى

الجزء الثاني

نشر وتوزيع



دار الثقافة

34.32 شارع فيكتور هيكو

الدار البيضاء

الهاتف : 30·23·75

الطبعة الاولى 1403 هـ — 1983 م

بسم الله الرحمن الرحيم

البـــاب الرابـــع

العهد المريني

عند اتصالنا بمالك ابن المرحل ، كنا ننتقل من عهد الدولة الموحديـــة الى الدولة المرينية ، التى كان يعمل بها هذا الأديب كاتبا وشاعرا والدولة الموحدية فى نزعها الاخير كما كان يعمل بها اديب آخر ، نتناوله فى بدايـــة العهد المرينى وهو فى ركاب ملكه يعقوب المنصور ابن عبد الحق .

هذا الأديب يختلف عن معاصره ، بأنه لم يكن اندلسى الاصل ، بل كان مغربيه صميما من مكناسة ، ولم يكن منكبا على الأمداح النبوية ، بمـــا فيها النعال والموالد ، بل كان منكبا على أمداح سادته من ملوك بنى مرين ، ولم يكن بتلك الصفة الملتزمة فى سلوكها بل كان يعاقر أو يقول فى معاقرة الخمر ووصف مجالسها .

الأديب هو عبد العزيز الملـــزوزى ، الذى له فى يعقـــوب المنصور المرينى أمداح ، وملاحم تاريخية ، على درجة لا يستهان بها ، فمن أمداحه للمنصور قوله بمناسبة عرضه على « يغمورسن » الطلح والتفرغ للجهاد بالأندلس :

أرى كـــل جبار بسيفـــك يصفـــر	وكل مايـــك عن فعالـــك يقصـــر
وكل عزيـــز خاضعـــا متواضعـــا	وكـــل يمان عـــن يمينـــك يمطـــر
تنام عيـــون النـــاس طرا وأنت فى	صلاح العلا والخلق ما زلت تسهر
اضاءت بـــك الدنيا فـــزال ظلامها	فأيامها مـــن نور وجهـــك تسفـــر
وكان لدينا الديـــن قد ضاع حقـــه	ولم يبق منـــه غيـــر عـــين تحدر
بعثت الـــى يغمور بالصلـــح معلنا	وقلـــت عســـاه بالبصـــيرة ينظـــر
فلم يغتبط بالطلـــح جهلا وغلظـــة	فيا عجبا مـــن خاسر كيف يخـــسر
اردت بأن تهديه للرشـــد والهدى	وكيف يـــرى رشدا شقى معـــير
فإنك لا تهـــدى من أحببت للهـــدى	اتدفـــع عنـــه مـــا عليـــه مقـــدر

ابـى الله الا أن يخصك بالهـدى ويعطيك فى اخـراك ما هو اكثـر
ويحـرم يغمـورا جهـاد عـدونا ويجعلـه فى بحـر باسك يغمـر
فأسبـق به فهـو الجهاد بعينـه فحتى متـى فى الدين يغمور يقصر

الى آخر القصيدة التى تناهز خمسين بيتا ، ذكرت فى الذخيرة السنية .

ففى هذه القصيدة ، نجدها تتبع طريقة الأوائل من المتنبى وابن هانىء الاندلسى ، ومن حذا حذوهم فى مستواهم العالـى ، من شعرائنـا وفى مقدمتهم ابن حبوس والجراوى .

وهكذا فقد جمع بين السمو بالمعانى والاحتفال بجزالة الالفاظ ، فكل جبار يصغر بسيف ممدوحه ، وكل ملك يقصر عن غاياته ، وكل عزيز خاضع له متواضع امامه ، وكل سيف يمان لا يقطر بدمائه الا من يمينه ، فهنـا نجد الاحتفال بالالفاظ فى هذا الجناس بين اليمان واليمين أتى بعد الاحتفال ، بالمعانى ، فى تلك المقابلات المعدودة من الطباق فى البديع ، وتستمر فـى البيت الثالث ، بالنوم مع السهر ثم الرابع بالاضاءة والظلام ، وبعد هـذا يمضى قدما فى الاشادة بممدوحه ، يصفه بعظم الصفات ، وعلو الأخلاق ، وينال من خصمه يغمور الذى لم يستجب لما دعاه اليه المنصور من هدى الله ، ولا ضير على المنصور اذ لم يوفق فى هديه، فقد قال الله لنبيه « انك لا تهدى من أحببت » فضمن هذا بيته التاسع ، وفى البيت الحادى عشر ، عاد الى الاحتفال بالحلية اللفظية ، التى تحققت له فى لفظتى « يغمور ويغمر » فالملزوزى فى هذه الابيات ، ينظر الى المعانى واستوائها ، قبل أن ينظر الى الالفاظ وحليتها ، وهى على كل حال فى مستوى لا ينزل عن مستوى الفحول مـن شعراء الامداح عندنا .

بخـلاف الأمـداح التى جعلهـا سجـلا للاحـداث والوقائـع فهى منظومات تتسم بالسرد ، وتبتعد عن التجميل الفنى ، كمنظومتـه الرجزية ، التى توجه بها الى المنصور ، وافتتحها بقوله :

الحمـد للـه مغيـث الديـن بالملـك المنصـور مـن مريـن

ثم يقول فيها :

سميتها من حسنها نظم السلوك فى الانبيـا والخلفـاء والملـوك
وأذكـر الامـر عـلى الترتيـب مختـصرا بأحسـن التقريـب
مـن عهـد آدم الـى زماننـا أختمهـا بالفـر مـن املاكنـا

حتـى تكـون هـذه الارجـوزة تكتسـب الفخـر بهـا ملـزوزة

واخيرا يختم الرجز ، بما توجه به الى المنصور فقال :

مـولاى هـذا رجـز صنعتـه وفى الملـوك منكـم جعلتـه
سبقـت بالتاريـخ فيكـم اولا وفتـت فيـه كل خلـق عـولا
لـو لـم تكـن تـؤرخ الدفـاتر وتذكـر الملـوك والمآثـر
لمـا علمنـا سيـر الخلائـف ولا أمـور سائـر الطوائـف
وانمـا افعالهـم مذكـورة مذمومـة فى الكتـب أو مشكورة
فلنشكـر اللـه عـلى احسانـه فأنـت خيـر النـاس فى زمنـه
ثـم السـلام يا أمـير المسلمـين عليـك يا خـير نصـير ومعـين

فهذه المنظومة وان تناول فيها ، ما كان معروفا ، كتاريخ قديم ، تلتقى فيه الاساطير بالحقائق ، فالقصد على الحقيقة كان بنى مرين والمنصور منهم خاصة ، فيطيل النفس فيه ، ويفصل فى ذكر مجالسه ، وما يتخللها من صلاة ونحوها ، كما فى قوله :

كأنهـم مثـل النجـوم الزهـر وبينهـم يعقـوب مثـل البـدر
قد البـس الوقـار والسكينـة وحـل فى مكانـة مكينـة
حتـى اذا ما حان وقـت الظهـر قـام الى بيـت الندى والفخـر
يبقـى الـى وقت صـلاة العصر ياتـى بقصـد نهيـه والأمـر
فينصـف المظلـوم ممن ظلمـه ولـم يـزل الـى صلاة العتمـه
ثـم يـؤم بيتـه الكريمـا ويتـرك الوزيـر والخديمـا
مـا ان ينـام الليـل الا ساهـرا ينـوى الجهـاد باطنـا وظاهرا
رأيتـه يصحبـه التمكـين مبـارك طالعـه ميمـون
فامـن الغـرب مـن الفسـاد ونـشر العـدل علـى العبـاد
ولـم يـدع فى الغرب من يجـور وزالـت الاهـوال والفجـور
وخضعـت مريـن تحـت قهـره واذعنـوا لنهيـه وأمـره
ورفـع الظلـم عـن الرعيـة وقمـع الطغـاة فى البريـة
فهل سمعتم مثل هـذى السيـرة وهـذه المآثـر الاثيـرة
كـذاك كـان فعلـه قديمـا بـذاك نـال الملـك والتعظيمـا

انه رجز يصح أن نقارنه برجـز ابن عبد ربـه أيام بنى أميـة فى

الاندلس ، أو رجز أبى طالب أيام المرابطين ، وسياتى ابن الخطيب السلمانى ، يقلده فى رجزه التاريخى عن بنى نصر .

وللشاعر ملحمة ، يفصل فيها المواقع ، بذكر أماكنها واساطيلها ، ورجالها ، فيقول مثلا :

وقد ظهرت لاسطول الاعادى   علامات تزيد به ارتيابا
فلما حل ربع طريف والى   الى اجفانه الغر الكتابا
فيامر ان تجهز للاعادى   اساطيله فاسرعت الجوابا
فجهزها ووافت باحتفال   وباس منه راس الكفر شابا
هنالك شنجة وافى شريشا   بليل ثم عاين ما أرابا
فوجه منه ارسال النصارى   الى المولى ليسعفه الطلابا
يطالبه بعقد الصلح يعطى   له ماذا اراد وما استجابا
ولم يقبل لهم قولا وآبت   لـه الارسال حائرة خيابا
ولم يرددهم المولى سوى من   حديث البحر لا يربو ارتيابا
فضرب جيشه المنصور بحرا   الى افروطة الكفر انسيابا
فلما برز الاسطول فرت   جيوش الكفر فى البحر انسرابا
وما الموت على متعذريها   ولو سئلت لما ردت جوابا
فجاز الى الجزيرة فى سرور   يجدد غزوة تبدى العجابا

ثم يقول بعد أبيات :

فبادر شنجة فى الصلح حتى   تقرب من مدينته اقترابا
وجاء لغيابه الاعلى واعطى   هديات لمولانا رغابا
فكان هناك بينهما أمور   ينسينى السرور بها الخطابا
واسرع شنجه للعقد حرصا   واظهر فيه للمولى ارتغابا
فتم الصلح بينهما لعذر   مبين واضح والسرغابا
فهذى جملة والشرح عندى   سأودعه بايضاح كتابا
هنيئا يامرين لقد علوتم   بنى الاملاك باسا وانتسابا
وفاخرتم بمولانا البرايا   فاعطوكم قيادا وانغلابا
ابعد الفونش وابن الفونش يبغى   رضاكم لا يخاف به العتابا
فحزب مرين حزب الله يحمى   حمى الاسلام لا يخشى عقابا
اذا سلوا السيوف ترى الاعادى   وقد حلوا الربى مدت رقابا

هم اشفار عين الملك تذرى ... عن الملك القتام او الترابا
وهم مثل الانامل حيث مدت ... يد الامر التى تعطى الرغابا

فمن تاريخياته ، هذه نفهم أن المزوزى كان أول من تناول بنى مرين بالتاريخ ، كما قال هو فى رجزه ، كما كان عبد الواحد المراكشى أول من تناول تاريخ الموحدين ، كما قال فى كتابه المعجب .

والنموذج الأخير ، من ملحمته ، يعد فريدا فى أدبنا ، على بساطته وتواضع تعبيره أحيانا ، ولا شك أن الشاعر نظر فيها ، من حيث الصياغة والقافية ، الى بائية جرير الطويلة :

أقلى اللوم عاذل والعتابا ... وقولى ان أصبت لقد أصابا

وبحر الوافر انسب بالحماسة كما أن هذه القافية المطلقة ، انسب بسرد القصة ، وهو ما تنبه اليه الشعراء الجاهليون فى ذكر أيامهم (1) .

وقد اشرنا الى ان الشاعر كان ، على الاقل ، يصف مجالس الشراب ، وقد ظهر هذا لأول ما نعهد ، فى شعر سليمان الموحد ، ثم كان له صدى قوى فى شعر المزوزى ، الذى قال على الارتجال ، فى مجلس الأمير عبد الواحد ابن يعقوب المنصور ، فى يوم من أيام رمضان :

اليوم يوم مدامة وعقار ... وتبلغ الآمال والاوطار
أو ما رايت الشمس أخفى نورها ... وتسترت عن أعين النظار
وبكى السحاب بدمعه فكأنه ... دنف بكى من شدة التذكار
والبرق لاح من الغمام كأنه ... سيف تألق فى سماء غبار
لا شىء أحسن فيه من نيل المنى ... بمدامة تبدو كشعلة نار
لولا صيام عاقنى عن شربها ... لخلعت فى هذا النهار عذارى
أو كان يجزى عنه صوم أوفدا ... ما صوم شهر فى صيام نهار
لكن تركت سروره ومذاقه ... حتى اكون عليه ذا اقرار

وكان هذا اليوم كما فى الذخيرة السنية :

« يوما قد استترت فيه السماء بالسحاب ، والنهار يبكى بالدموع ، كأنه عاشق صد عنه حبيبه ، وتعطلت دموعه ، وكان الرعد يهدر هدرته ،

(1) وأخيرا كان شوقى يتناول مدح الرسول وسيرته بهذا الوزن وبهذه القافية .

والبرق يحكى لوعته وزفرته ، وكان المجلس الذى كان فيه الامير ، قد فرش باصناف الرياحين ، والورد والبنفسج والخيرى والياسمين » وكان الامير اديبا شاعرا ، ذكر له شعر يفتخر فيه ، بالكتاب المذكور ، وهو اول شعر الافتخار ، يبدو فى شعرنا ، فيما نعلم .

ونختم القول فى شعر المزوزى بهذه الابيات التى تأنق فيها غاية ، وهى :

اعلمت بعدك زفرتى وانينى	وصبابتى يوم النوى وشجونى
اودعت اذ ودعت وجدا فى الحشا	ما ان تزال سهامه تصمينى
ورقيب شوقك حاضر مترقب	ان رمت صبرا بالاسى يغرينى
من بعد بعدك ما ركنت لراحة	يوما ولا غاضت عليك شئونى
قد كنت ابكى الدمع أبيض ناصعا	فاليوم تبكى بالدماء جفونى
قل للذين قد ادعوا فرط الهوى	ان شئتم علم الهوى فسلونى

توفى المزوزى عام سبعة وتسعين وستمائة ، قبل ابن المرحل بسنتين ، وكانت — رحمه الله — وفاته خنقا بسجن فاس لسعاية فيه

وقد تقدم أن الاديب المزوزى عالج التاريخ بشعره ، فكان أول المغاربة — فى علمنا — يعالج التاريخ بالشعر ، كما كان أول المغاربة الذين تناولوا تاريخ المرينيين .

ثم كان معاصران له ، يتولى أحدهما تراجم الرجال ، من أندلسيين ومغاربة ، ويتولى الآخر تاريخ الاندلس والمغرب ، بنفس التناول من الاستقصاء والتحقيق ، وكلاهما تأخر وفاة عن المزوزى بنحو عشرين سنة ، كما نظن ، وقد ادركا أواخر الموحدين . وكلا الرجلين ايضا كان من مراكش ، وحيا الله مراكش التى أمدتنا بالتواريخ التى ابتدات بعبد الواحد واستمرت حتى اليفرنى .

أما الرجلان اللذان عنيناهما ، فهما محمد بن عبد الملك ، ومحمد أو احمد ابن عذارى ، الجنديان المجهولان تقريبا . على أن الاول ، كان من ناحية التعريف به ، اسعد حظا من صاحبه ، حيث عرف به من معاصريه ، زميل له ذكره الدكتور عبد العزيز الاهوانى فيما نشره عن مخطوط لصلة

الصلة لابن الزبير ، من أوراق — لم تنشر فى المطبوع — تتصل بترجمـــــة المؤلف (1) .

والمعروف أن كلا الرجلين ابن عبد الملك وابن الزبير ذكر صاحبه فى كتابه ؛ لانهما معاصران تجمع بينهما الصداقة ، كما يجمع بينهما الهـــدف من تناولهما لتلك التراجم مذيلين على غيرهما ومكملين وواصلين ، لمـــا تقدمهما من كتب التراجم الاندلسية المختلفة فى زمنها والمتحدة فى قطرها

اذن من ابن عبد الملك المراكشى ؟

يعرف به زميله ابن الزبير فيما سبق ذكره فقال :

« محمد بن محمد بن عبد الملك الانصارى ثم الاوس ، من اهل مراكش ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بان عبد الملك . روى عن الكاتب الجليل أبـــى الحسن على بن محمد الرعينى وصحبه كثيرا . وهو أعلى من عندنا رواية ، وعن أبى عبد الله محمد بن على بن محمد بن هشام وابى الوليد عن عفير وغيرهـــم .

واستجازنى قبل سنة ثمانـــين ، وبعد ذلك . فكتبت لـــه مرارا ، واستوفى جملة من تواليفى استنساخا . وتكرر على سؤاله فيما يرجع الى باب الرواية .

وكان رحمه الله نبيل الاغراض عارفا بالتاريخ والاسانيد نقــــادا لها حسن التهدى جيد التصرف ، وان قل سماعه ، أديبا بارعا شاعـــرا مجيدا امتدح بعض كبراء وقته .

وكان مع نقده الاسنادى ذا معرفة بالعربية واللغة والعروض ومشاركة فى الفقه ... » .

ثم عرف به النباهى فى كتابه « المرقبة العليا » وهو معاصر لابنه ، أبى عبد الله ، وعنه استقى معلومات مفيدة ، واطلع « على كثير من المكتوبات الصادرة عن أبيه ،،، ما بين منظوم ومنثور » ثم ساق له قصيدة تعمد فيها المتشابه ؛ فيقول :

يا عاذلـــى دعا الملامـــة أو ســـلا عن صادق فى الحب مثلى هل سلا

(1) وذلك فى مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد .

كيف السلو ولى بحكم البين فى ... مراكش جسم وقلب فى سلا
هيهات أسلو عهد حل لى بها ... أسلا ابن حجر عهد جارة ما سلا
وافى الى على البعاد كتابه ... فبمهجتى أفدى كتابا أرسلا
أوردت من مرآه روضا مونقا ... ووردت من فحواه ماء سلسلا
طرس كنحر معذر ابدت به ... صدغاه وشى الحسن حين تسلسلا
الحبتى رحماكم فى موقف ... القى يد استسلامه واستبسلا
الحبتى رحماكم فى نازح ... بكم اليكم فى الدنو توسلا

وهى فى تسعة عشر بيتا يخاطب بها مديقا له ينعته بالفضل والأدب .

وهذه القصيدة تشبه قصيدة لأبى المطرف ابن عميرة ، كتب بها من سلا الى تلميذ له بستة ، مطلعها :

يا صاحبى وللفراق صبابة ... عما بقلبى من لواعجها سلا

ويقول فيها :

فمحدث باك لآخر مثله ... بحديث شوق قد رواه مسلسلا

وكذلك نجد التلاعب بكلمة « سلا » فى أبيات له يقول فيها :

لم يصب قلبى الى سواها ... يوما ولم يسل عن سلاها

لم نات بهذه الابيات ، وقد توجهنا الى النشاط التاليفى ، الا لنبين أن ابن عبد الملك ، كان الى جانب نثره ، ناظما كذلك وان كان هذا النظم لا يدل على سليقة شعرية فى صاحبه ، فهو نظم العلماء الادباء ، تتحكم فيه الحذلقة اللفظية غالبا ، ويسوده التصنع ويثقل بنحو « حل لى بها » .

وذكر ابن جزى فى ترتيبه لرحلة ابن بطوطة ، ان ابن عبد الملك ذيل بيتى المالقى فى المتشابه كذلك ؛ وهما :

مالقة حييت يا تينها ... فالفلك من أجلك يا تينها
نهى طبيبى عنك فى علة ... ما لطبيبى عن حياتى نهى

فقال مذيلا :

وحمص لا تنس لها تينها ... واذكر مع التين زياتينها

فاذا نظرنا الى شعره فنجد تلك الابيات التى ، بالاضافة الى تلاعبها

اللفظى ، تبدو عليها اصطلاحات الحديث .

وفى البيت الثالث من القصيدة اشارة الى قول امرىء القيس :

« كدأبك مـــن أم الحويرث قبلهـــا وجاراتها أم الربـــاب بمأســـل »

ومع هذا فكان يقرض الشعر مادحا بعض الكبراء والامراء ، كمـــا نص على ذلك ابن الزبير ، وقد وردت له أبيات أخرى باحدى التراجم ، من قصيدة فى أبى العباس المليانى منها :

يا من يقيس بـــه سواه فى الندى الغيث فى النظر اعتبار الجامـــع
هـــذا يجـــود فى الموانـــع كثـــرة وسواه ضن مع ارتفـــاع المانـــع

وفى هذا استغلال اصطلاح بلاغى ·

ومن شعره أيضا قوله فى مراكش التى تولى بها القضاء :

الـــه مراكـــش الغـــراء من بلـــد وحبذا أصلها السادات من سكـــن
ان حلها نـــازح الاوطان مغتـــرب أسلوه بالانس عن أهل وعن وطـــن
عـــن الحديث بها أو العيان لمـــا نشا التماسك بـــين العين والأذن

فهذا شعر لابأس به يطلعنا على مداه فيه وقد نسب اليه فيما تقدم .

والمؤلف على أخلاق المراكشيين من عزوف وبأو تسببا فى عزله عـــن القضاء فمات غريبا بتلمسان عام 703 .

أما نثره فيصح أن نستأنس فيه بمقدمة كتابه المذكور ، وهى :

الحمد لله الذى أعلى معالم العلم بأعلامه ، وأحلى موارد الفهـــم لأولى أحلامه ، ويسر كلا منهم لما يسر له من أقسامه والهمه الى التمســـك بأسباب سعادته ؛ فسعد بالهامه ، واتسم بما به ارتسم . من الانتظام فى سلك حزبه المفلح ، فافلح باتسامه وارتسامه وانتظامه ، وصرف اليه دواعى شغفه به وغرامه ، ووقف عليه متوالى اهتباله واهتمامه .

فمنهم من التمســـه بمستقره ، معمـــلا صدق جده وتصميـــم اعتزامه ، فظفر من مبتغاه واطفاء أواره وارواء أوامه ، بتسديد مرامـــى مرامه · ومنهم من آثر فى ابتغائه ظعنه على مقامه ، وهجر ليحظى بوصله ملاذ طعامه وشرابه ومنامه ، وعمر باقتباسه آناء لياليه وأيامه ، من شهور

عمره واعوامه ، اعتناء من الله سبحانه بابلاغه من اتمامه ، وحفظا لــه من لواحق انقراضه وانصرامه ، واجزالا لحظوظ أهله منه عند اقتسامه ، حتى يبلغه السلف الى الخلف فيتلقاه منقولا ومعقولا مؤتم عن مرتضاه لا ئتمامــه .

وازكى صلوات الاله وأذكى سلامه ، على سيدنا محمد نبى الهــدى وامامه ، وماحق ضلال الكفر وماحى ظلامه ، الذى أشاد بفضل التعلــم والتعليم فى جلى مقاله بعلى مقامه ، وعلى آله الاخيار وصحبه الابــرار الموفين بذمامه ، المقتفين آثاره فى نقضه وابرامه ؛ ما انهل غيث مــن غمامه ، وافتر عن زهر مبسم كمامه .

أما بعد فانى قصدت فى هذا الكتاب الى تذييل صلة الراوية أبى القاسم ابن بشكوال تاريخ الحافظ أبى الوليد ابن الفرضى ، رحمهما الاله فى علماء أهل الاندلس والطارئين عليها من غيرهم بذكر من أتى بعده منهم ، وتكميلها بمن كان من حقــه أن يذكــراه فأغفــلاه ، وقبــل الشروع فى ايـــراد ما قصدت من ذلك ، فلابد من ذكر مقدمة تطلع على وجه العمل الــــذى اعتمدته ، وترشد الى المسلك الذى فيه سلكته سائلا من الله سبحانــه الصواب فى القول والعمل ، وانجادا على ما يعصم من مواقعة الخطــأ والخطل ، لا (1) مامول الاخيره . .

ويقول : « ولما كان القصد بهذا الكتاب وجه الله تعالى ، رجوت له الشياع وسير الركبان الى مصور البسيطة مشرقه وغربه ، وعموم نفع أهل العلم فى جميع الآفاق بما اشتمل عليه . ولما كان مما تضمنه نسبــة المذكورين فيه الى بلدان الاندلس الشهيرة ، وقراها الخاملة ، أمكن امكانا قريبا وقوعه الى من ربما تغيب عنه معرفة تلك الاماكن أو يتشوف الـــى معرفتها أو تقييدها وضبطها ، فاذا لم يجد سبيلا الى علمها ، أداه ذلك الى تحريفها عند النطق بها أو تصحيفها والاخلال حال النقل وجهل حدودها ، ولا سيما عند أهل البلاد الشاسعة عنها ، بل غير المصاقبة لها . . . .

الى أن يقول فى تلك المقدمة : وجمعت هذا الكتاب مما افترق فيما

---

(1) أثبتنا هذا الحرف الذى سقط من الاصل ، كما سقط غيره بعد « سبحانه » بمقداركلمتين أيضا كما ذكر المحقق الدكتور بنشريفة مثبتا واو العطف لكلمة « الصواب » على ذلك .

لا أحصيه عددا من برامج روايات الشيوخ الجلة أيمة هذا الشأن كلها وافية بالشروط المعتبرة في توثق النقل منها ، اذ معظمها بخطوط جامعيها وسائرها بخطوط المعتمد عليهم من رجال هذا الفن ومقابلتهم وتصحيحهم ، الى مـــا نقلته من مقيدات ذوى العناية بهذه الطريقة من موالد ووفيات ، ورفـــع انساب وتبيين أحوال الرواة وشبه ذلك من الفوائد ، مع ما تلقيته مــــن مشايخي الذين اخذت عنهـــم شفاها وما التقطتـــه من طبقـــات القراءات والاسمعة على الشيوخ أو منهم ، والتواريخ على تفاريق مقاصدها . وكل ذلك مما انسجت عليه روايتى بين سماع وقراءة ومناولة واجازة ، وغير ذلك من ضروب التحمل .

وبعد ما تعرض لنظام الحروف المعروف في سيـــاق التراجم والـــذى كان متبعا فى الشرق ، كما كان متبعا فى الاندلس والمغرب ، ونص على مآخذ المترجمين من الاندلسيين ، وعلى راسهم ابن الأبار الذى اتهمه بالاغراض والتحامل على من عرفوا بالغرباء عندهم ، أتى بهذه الابيات ، التى ضمنها نظامه الحرفى فى تراجمه ، وذلك بتوالى الحروف التى ابتدأت بها كلماتها ، هكـــــذا :

الـــم بروضى تجنـــى ثم جنى حيـــا	خلا در ذى رى زكا سقيه شربـــا
صفا ضمن طل ظل عد غنى فشـــا	قرى كل له من نهى ودق همى سحبا

وهذا الترتيب هو ترتيب المعجم المشرقى الذى آثره المؤلف كما قال ، لصحة اعباره ، ولا شك أن الكلمة الأخيرة غير معتد بها .

فالكتاب اذن ، متجه الى تراجم الاندلسيين اساسا ، وبالذات علمائهم وادبائهم ؛ بالرغم من كون صاحبه مغربيا . ومجاراة للمؤلفين منهم ، صار يذكر المغاربة فى نطاق الغرباء .

ومما تقدم نفهم المقصود من عنوان الكتاب وانه يجامع كتاب معاصره ابن الزبير « صلة الصلة » فكلا الكتابين منصب على كتاب « الصلة » لابن بشكوال . وهذا بدوره منصب على كتاب « تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس » لابن الفرضى .

نعود الى الامعان فى فن المقدمة ، فأول ما يواجهنا فيها هذه الاسجاع التى اخذ بها نفسه المؤلف أخذا منهكا ، فلم يرم فيها على طولها حرف الميم

المسبوق بألف ساكن والمتصل بضمير الغائب ؛ مفردا مذكرا ، فاقتضاه هذا اقتناص نحو ثلاثين من الكلمات التى أقام عليها تباعا هذه السجعات .

وكأنه لم يرد أن يفهم القارىء هذا النصب الذى تحمله فى ذلك ، فأرفق به كلمات أخرى أتت نافلة بجوار تلك المسجوعات ؛ مثل « باتسامه وارتسامه » و « وطعامه » .

والمؤلف المراكشى يدل بقدرته على التنوع فى نحو « معالم العلم بأعلامه » « واتسم بما به ارتسم » من الانتظار ... باتسامه وارتسامه وانتظامه » و « اهتباله واهتمامه » « واطفاء أواره وارواء أوامه » و « مرامى مرامه » .

وقد يوقعه هذا فى تكلف صارخ مثل « منقولا ومعقولا مؤتم عن مرتضاه لا ئتمامه » .

الى جانب هذا كله فهناك محسنات لفظية لا تكاد تخرج عن ذلك فى المحسنات المختلفة من نحو « أعلى وأحلى » « واعلامه وأحلامه » « ماحق وماحى » « وازكى واذكى » .

و « مقاله ومقامه » و « الاخيار والابرار » زيادة عما تقدم ذكر آنفا .

اما المحسنات المعنوية فتبدو على بساطتها فى نحو « ظعنه عن مقامه » و « هجر ليحظى بوصله » و « آناء لياله وأيامه » و « السلف الى الخلف منقولا ومعقولا » و « نقضه وابرامه » .

أما من التراجم فيقول فى ترجمته لاحمد بن عبد الله ابن عميرة المخزومى :

كان أول طلبه العلم ، شديد العناية بشأن الرواية ، فأكثر من سماع الحديث ، وأخذه عن مشايخ أهله ، وتفنن فى العلوم ، ونظر فى العقليات واصول الفقه ، ومال الى الأدب ، فبرع فيه براعة ، عد بها من كبار مجيدى النظم ، وأما الكتابة فهو علمها المشهور ، وواحدها الذى عجزت عن ثانيه الدهور ، ولا سيما فى مخاطبة الاخوان ، هناك استولى على أمد الاحسان ، وله المطولات المنتخبة ، والقصار المقتضبة ، وكان يملح كلامه نظما ونثرا بالاشارة الى التاريخ ، ويودعه الماعات بالمسائل العلمية منوعة

المقاصد ، تشهد بتمكنه فى المعارف .

فنثره اذن ، دون شعره ، تواضعا وتمسكنا

واختياراته للنماذج الأدبية وأحكامه عليها لا تختلف كثيرا عن هذا ، كما تقدم له ازاء لامية ابن حبوس :

« فعل امرىء دل على عقله — والفرع منسوب الى أصله »

وكحكمه على سينية متواضعة وردت فى ترجمة أحمد ابن المفرج الاموى رثاه بها أبو أمية ابن عفير ، فوصفها « بقصيدة فريدة » .

ولا نرى كونها فريدة الا فى تكلفها الذى طالعنا به استهلالها بالبيت :

اين الكباء واين « عرف الآس » — مما حوته كمائم الارماس

وودعنا فيها ببيتها الأخير :

حتى يرف عليه من زهر الرضى — عرف يبذ شذاه « عرف الآس » (1)

هذا ما يتصل بابن عبد الملك أما ابن عذارى ، فلا نعرف له الا ترجمة اجتهد فيها دوزى ونقلها العباس ابن ابراهيم والزركلى فى اعلاميهما . وهى لا تقول لنا أكثر من كونه مراكشيا وان كان أصله الاول أندلسيا ، وأنه عاش حتى نهاية القرن السابع تقريبا (2) ، وهو مؤلف « كتاب البيان المعرب » فى اختصار أخبار ملوك الاندلس والمغرب .

وكتابه هذا كان فى أصل تصميمه يقع فى ثلاثة أجزاء ، كما يفصح هو بذلك فى المقدمة ، وقد طبع جلها فى عدة أجزاء انتهت أخيرا الى خمسة ، ولكنها حتى الآن مازالت ناقصة . والنصوص الادبية منها بالخصوص غير محققة ، يقول فى مقدمة الكتاب :

---

(1) ويبدو أنه كان مولعا بنقد معاصريه بالخصوص ، كما ينبىء عن ذلك قول ابن رشيد فيه ، وقد نقد قصيدة لمالك بن المرحل ، حيث وصفه بأن عادته كانت « انتقاص الافاضل واعتساف المحامل ، وترك الصافى الزلال ، وورود الكدر والمكر من المناهل » .

(2) بل من كتابه هذا يفهم أنه قد عاش بالعقد الثانى من المائة الثامنة ، كما هو وارد أواخر الجزء الثالث الذى ساهمنا فى تحقيقه .

الحمد لله مصرف الاقدار ومحيي الآثار ، والمتعالى عن الاشبـــــاه والانظار ، المتنزه عن تمثيل الاوهام وتكييف الاذكار ، الذى احتجب بحجاب عزته وقدرته ، « فلا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار » الذى خضعت لهيبته وعظمته رقاب الاكاسرة والجبابرة والاشرار ، العالم بالاكوان على اختلافها ، والحوادث مع تشتيت أوصافها « وكل شيء عنده بمقدار » مكور الليل على النهار والنهار على الليل ما جرى الفلك الدوار ،،، وجعلهما آيتين بينتين للتفكر في العظة (1) والاعتبار ، وخص الانسان بفضل النظر والاستبصار ، فقال جل وتعالى : « فاعتبروا يا أولى الابصار » وعلمه ما لم يكن يعلم ، وكرر عليه ما لم يلحق من أنباء القرون الماضية فى الأزمان والاعصار ، وأراه متقلبهم في هذه الدنيا الفانية التى جعلها لهم دار انتقال ، ومفر وزوال ، وجعل الايام بينهم دولا ، والاقوام بعضهم من بعض بدلا الى أن يقول : وبعد جعلنا الله ممن نظر فاعتبر ، ووعظ فازدجر ، فان خير ما شغلت به الافكار والاذكار ، وتحدثت معه بالليل والنهار حفظ ما أفاد من العلوم والأخبار ، وان أولى ما ريضنا به النفوس البشرية مجالسة العلمـــــاء والاخيار ، ومذاكرة الادباء ذوى الهمم وعلو المقدار الى أن يقول : ولما كنت كلفت بأخبار الخلفاء والايمة والامراء بالبلاد المشرقية والمغربية وما والاهما من الاقطار ، وولعت بالمناظرة فى ذلك مع الفضلاء والاجلاء ذوى الاقدار والاخطار ، طلب بعضهم الى ممن يجب اكرامه على أن اجمع له كتابا مفردا فى أخبار الملوك الغربية على سبيل الايجاز والاختصار ،،،، فجمعت له فى هذا الكتاب نبذا ولمعا من عيون التواريخ والاخبار ،،، فيما مر من الازمنة والاعصار فى بلاد المغرب وما والاها من الاقطار ،،، فنقلت — والله ولي التوفيق — من تاريخ الطبرى والبكرى والرقيق والقضاعى، ومن كتاب الذيل لابن شرف ومن كتاب ابن ابى الصلت ، ومن المجموع المفترق ، ومن كتاب بهجة النفس وروضة الانس ، ومن كتاب المقباس والمقتبس والقبس ومن مختصرى عريب وابن حبيب ، ومن درر القلائد وغرر الفوائد ، ومن القلائد والمطمح ، لابن خاقان ، ومن كتاب ابن حزم ، وذخيرة ابن بسام ومـــن اخبار الدولة العامرية لابن حيان ، ومن كتاب تقصى الأنباء فى سياســــة الرؤساء ، ومن كتاب الانوار الجلية فى الدولة المرابطية ، ومن نظم الجمان فى اخبار الزمان ، لابن القطان ، ومن كتابى الاشيرى والبيذق ، وكتاب يوسف

(1) لعلها « العظمـــة » .

الكاتب ، وكتاب ابن صاحب الصلاة أبى مروان ، ومن كتاب ابن رشيق ، ومن كتاب وجدته أو تعليق ، ومن شيوخ أخذت الاخبار الوقتية عنهم بتحقيق .

وحول تصميم الكتاب يقول فى المقدمة كذلك :

أما الجزء الاول فاختصرت فيه أخبار افريقية من حين الفتح الاول ... ثم أخبار أمرائها من ولاة الخلفاء الامويين ... ومن قام بافريقية من الصفرية والاباضية ، ثم من قام فيها بالدولة العباسية ، ومن ملكها من بنى الاغلب واخبار بنى عبيد الشيعة واخبار زناتة والصنهاجيين وغيرهم ... الى حين انتقال العبيدية الى البلاد المصرية ، واستخلافهم صنهاجة على افريقية ، ثم خلع صنهاجة لهم واستيلائهم على افريقية ، ونذكر فتنة العرب واسبابها ودخولهم الى القيروان وحربها ، وتنقل صنهاجة الى المهدية ... وما اشتهر فى ذلك من الاخبار عنهم ، من ملوك المناديين والحماديين ، الى حين ظهور الموحدين ... وذكرت أخبار المدرارين السجلماسيين ، والامراء الادريسيين وأخبار البرغواطيين والزناتيين ... ومن ولاة الخلفاء الامويين الاندلسيين ... الى حين ابتداء الدولة اللمتونية المرابطية .

والجزء الثانى اختصرت فيه أخبار جزيرة الاندلس ... من حين الفتح ، ثم من وليها من الامراء للخلفاء الامويين بالمشرق ، ثم من قام بها من العرب الفهريين ، الى حين دخول الخلفاء الامويين فى ابتداء امرهم ... الى انقضاء مدتهم بعد ذكر حجابهم العامريين ومآثرهم الى حين انقضاء الدولة العامرية وقيام الفتنة البربرية ، وذكرت فيه اخبار ملوك الطوائف ... الحموديين والهوديين والجهوريين والعباديين وفتيان العامريين والصمادحيين والزناتيين والبكريين والافطسيين والصنهاجيين ...

والجزء الثالث اختصرت فيه أخبار الدولة المرابطية اللمتونية ... واستيلائهم على مملكة امراء المغرب والاندلس ... وتغلبهم على مملكة كل منهم ، وما تسنى لهم فيها من الفتوحات ، الى حين ابتداء دولة الموحدين وظهورهم ... ثم ما كان بين امراء الدولتين من مقاتلات ومنازلات ... الى حين انقراض الدولة المرابطية .. ثم ما تخلل بعد ذلك للموحدين من النصر والتأييد فى البلاد الافريقية والاندلسية ، الى حين انقراض دولتهم ... وذكرت

الدولة الحفصية الموحدية الهنتاتية فى البلاد الافريقية ، والدولة الهودية المتوكلية والنصرية الاحمرية فى البلاد الاندلسية ، والدولة السعيدة المرينية فى البلاد الغربية ... واستيلاء الامارة اليوسفية المرينية على حضرتهم (اى الموحدين) المراكشية ، وذلك على مرور السنين الى عام 667 .

وهكذا نجد المؤلف قد وضع لكتابه مخططا تأليفيا ، بالمعنى الدقيق ، فهو أقدم كتاب فى التاريخ المغربى بين أيدينا . صحيح ان كتاب المعجب سبقه الى ذلك ، ولكن هذا الكتاب يعد كتاب أدب وتاريخ على طريقة السرد . وبعد ما ذكر انـــه جعل كتابه فى ثلاثة اجـــزاء ، قال : وذكـــرت بعض البيعات والرسائل السلطانية ، وما تعلق بها ، وكان بسببها من الوقائع المذكورات ، والامور المشهورات .

وهذه المصادر التى اعتمـــد عليها بعضها معروف وبعضها غيـــر معروف ، ككتاب الأنوار الجلية . وبعضها لا توجد الا أجزاء منها ككتابى ابن صاحب الصلاة وابن القطان والمقتبس لابن حيان .

والى جانب ما نستفيده من كتابه فى التاريخ ، نستفيد معلومات أدبية ونصوصا لها أهمية قلما توجد فى غيره ، مما بيدنا من كتب . وهى ظاهرة عامة، نجدها فى كتب المراكشيين منذ كتاب الاستبصار فالمعجب والتشوف ثـــم الذيل والتكملة ، لا تختلف فى هذا عن مؤلفات الاندلسيين ويلاحظ انـــه ألف كتابه استجابة ، لطلب بعضهم منه ذلك ، وهذا ما وجدناه فى مقدمات الكتب السالفة الذكر ، ما عدا التكملة منها والتشوف .

وفيما يخص أسلوب الكتاب ، فيما عدا المقدمة ، فانه يضم أمشاجا من الاساليب ، حافظ عليها هذا المؤرخ النزيه ، ولاشك أن تحريه دفعه الى هذه المحافظة ، التى ينساق لها المؤرخ ، بصفة خاصة ، كما نجد لذلك أمثلة فى كتاب الكامل لابن الأثير وغيره ، وقد اكتفى ابن عذارى ، بالنص على مراجعه ومصادره عامة فى المقدمة ، ولم ينص فى تلك الاساليب التى اتى بها على أصحابها ، اللهم الا ما كان فيها من نصوص ادبية ، كالرسائل والبيعات ، وان كان بعضها قد تعرض للاختصار من قبله أو من قبل الناسخ كما نجد فى البيعة التى كتبها ابن عميرة عن مكناسة التى كان قاضيها ، ثم البيعة التى كتبها لهم الكاتب ابن عبدون ، نعم : ان ابن عذارى قد ينص

على الاختصار ، كما فعل فى رسالة الامير ابى زكريا الحفصى الى أهـل اشبيلية .

أما ما وقع فى القصائد ، من اختلاف أو تحريف فالغالب كونه مـن النساخ ، الذين اعتوروا هذا الكتاب بعملهم ، وشاعت بهم نسخ منه

والملاحظ أنه يكثر من النصوص الشعرية أضعافا مضاعفة اكثر مما يفعل فى النصوص النثرية · ولعل ذلك راجع الى وفرة الاولى فى تلك المصادر التى استقى منها والمراجـع التى استفادهـا ، بل ان وفرة المحصـول الشعرى من طبيعة ما يحتفظ به الادب العربى منذ جاهليته .

ومهما يكن فان القصائد التى ذكرت بكتاب البيان ، يمكن أن تمـلأ سفرا متوسطا ، وفيها من طوالها كثير ، مثل قصيدة ، ابى موسى هرون بن هرون ، فى رثاء اشبيلية ، ووصف ما نالها من الكرب الشداد ، عند سقوطها بيد النصرانية سنة ست وأربعين وست مائة ، فهذه تقع فى خمسة وستين بيتا ، أتى الكتاب عليها برمتها ، ومطلعها :

يا حمص أقصدك المقدور حين رمى	لم يرع فيك الـردى الا ولا ذممـا
جـرت عليك يد للدهـر ظالمـة	لا يعدل الدهر فى شىء اذا حكمـا
ما كنت احسـب أن الحادثات اذا	همت بك السوء لا تلقى لك السلما
ولا توهمت ذاك الحسن يطمسـه	ريب الزمان ويكسو نوره الظلمـا
قد كان حسنك فتان الشباب فقـد	أصبحت عوضت منه القبح والهرمـا
يا جنـة زحزحتنا عـن زخارفهـا	ذنوبنـا فلزمنـا البث والندمـا
يا سائلى عن مصاب المسلمين بها	أصخ لتسمع أمرا يورث الصممـا
لما تفرقـت الاهواء واضطرمـت	نار البغاة فقامـت للردى علمـا
ونوزع الأمر أهلوه وقـام بـه	من لم يجـد قدما فيـه ولا قدمـا
ثارت حفائـظ للتثليـث فابتـدروا	وأيقظوا من سنات الغفلة الهممـا
وانشروا ميـت الاحقـاد بينهـم	ولو أطاقوا لعمرى أنشروا الرممـا
ويمموا حمص فى جمع يضيق بـه	ذرع الفضاء فسوى الوهد والاكمـا

وفى هذا الحصار يسوق ابن عذارى وصفا مؤثرا ، لعله مما حافظ عليه فى أصله فقال :

أحدقت النصارى بمدينة اشبيلية ، وحاصروها برا وبحرا ، واذاقوا أهلها شرا ، وكان نزولهم عليها ، ووصول جموعهم اليها ، فى شهر جمادى الاولى من العام المذكور ، فاشتد فى هذه السنة حصارها ، وتملات منهم انظارها وأقطارها ، وأخذوا خلقا كثيرا من أهلها ، واختطفوا فى الاجفان بعض أطفالها ، وضيقوا بها غاية التضييق ، ورموا الحجارة بالمنجنيق ، وعدموا المرافق كلها ، قليلها وجليلها ، الا ما كان فى بعض ديار الاغنياء ، فانهم كانوا يحتاطون فى تلك الامور ، مثل الفقيه القاضى ابن منظور ، فانه كان يطمع فى اقلاع النصارى ، عن المدينة فأمر الناس بالقتال والرمى بالنبال ، والناس مع ذلك حيارى ، يمشون سكارى وما هم بسكارى ، ومات بالجوع خلق كثير ، وعدمت الاطعمة من القمح والشعير ، وأكل الناس الجلود ، وفنيت المقاتلة من العامة وأصناف الجنود . ولما انتهى باشبيلية شدة الحصار ، وعدموا الانصار من الامصار ، وصاروا قبضة فى يد أعداء الله الكفار ، خاطبوا أمير المومنين المعتضد بالله السعيد ، وكافة المسلمين من أهل عدوة الغرب ، يستصرخونهم ويعرفونهم بما نالهم من الجهد العظيم ، والكرب الشديد الأليم ، ويرغبونهم فى نصرتهم ويحرضونهم على جهاد أعداء الله الكافرين ، فمن ذلك قصيدة يرق لها القلب القاسى ، وتأتمر لها الجبال الرواسى ، وهى القصيدة المذكورة سلفا .

ويبدو أن هذا الوصف كان لكاتب معاصر للكارثة ، والغالب أنه كان من أهل اشبيلية آنذاك ، لما تتسم بها من جزئيات ، مثل ذكر القاضى ابن منظور ، وما كان يطمع فيه من اقلاع النصارى ، ويأمر به المدافعين من قتالهم ورميهم بالنبال والناس مع ذلك حيارى .

فهذا مثال من تلك الأمثلة التى وردت فى سياق الكتاب ، فاختلف بها أسلوبه من آن لآخر ، وما بيدنا من أجزائه يختتم باختصار الخبر عن حركة الواثق بالله ، ادريس بن أبى عبد الله بن أبى حفص عمر بن عبد المومن الى السوس ، وفى هذا المساق نجد عبارة « قال المؤلف أخبرنى بعض العارفين » ، مما يدل على أنه يستعمل أسلوبه فى سرد الحوادث ، وهو فيها مطيل يشبه باطالته المؤرخ ابن حيان الأندلسى ، وهذا واضح بين فى خلافة الواثق المذكور ، حيث نجد النص على اليوم المسمى من الشهر كذلك وبالتاريخ المعين ، بل نجد النص على بكرته مثلا من أول شوال ،

ثم الثانى منه الى الثامن فالتاسع وما كان بعد صلاة العصر ، وهكذا الى الثالث والعشرين منه ، ثم غرة ذى القعدة الى الثالث منه فالتاسع ، وفى سنة خمس وستين وستمائة ، نجده كذلك يقول « أخبرنى من أثق به » وبعد ذلك يأتى بقصيدة الرندى فى رثاء الاندلس، ولا يذكر منها الا سبعة عشر بيتا ، ثم بعد صفحة ينقطع سياق الكتاب ، دون نهايته التى كانت حسب ما ورد فى المقدمة سنة 667 اى بانقراض الدولة الموحدية واستيلاء الامارة اليوسفية على حضرتهم المراكشية ، كما قال

ولا شك أنه يقصد بهذه النسبة أبا يوسف يعقوب بن عبد الحق ، الذى فتح مراكش سنة 668 بصفة نهائية وكان يحاصرها من قبل ويستبعد أن يكون المقصود فى المقدمة بكونه الحامل له على التأليف ، وان كان يعقوب معروفا بالتشجيع عليه ، وله نظم الملزوزى — كما تقدم — منظوماته وربما كان ابن ابى زرع ضمن المشجعين من قبله أيضا ؛ فان ابن عذارى اهمل من تاريخ ملكه نحو عشرين سنة ، كانت حافلة بالانتصارات أهمل من تاريخ ملكه نحو عشرين سنة ، كانت حافلة بالانتصارات والفتوحات فى الاندلس وافريقية . ويستغرب لم وقف المؤلف عند هذا التاريخ ، وقد عاش بعده نحو نصف قرن أو يزيد ، ربما ، فلا شك أنه قصد الى الوقوف عند نهاية الدولة الموحدية ، بسقوط مراكش فى يد بنى مرين ، وقضائهم على آخر الموحدين وهو أبو دبوس ادريس بن محمد بن ابى حفص بن عبد المومن الموحدى .

كما يستغرب أن يهمل ذكر ابن عذارى عند من نقلوا عن كتابه ، مثل المقرى الذى يذكره ببعض مؤرخى المغرب فى نفح الطيب .

والغالب أن المؤلف كان مقربا من دولة المرينيين . ودليلنا ما نجده فى كتابه من التنويه بها والدعاء بالعز والنصر والتأييد لملوكها ، فى كل مناسبة مثلا نجد قوله « وكان ابتداء ظهور بنى مرين أعزهم الله تعالى فى سنة عشر وستمائة » (1) وحتى لو كان كان هذا مما حافظ عليه منقولا فدلالته قوية على أن ضلعه كانت معهم .

ويقول فى موقعة لهم « وانصرف عثمان بن عبد الحق واخوته

1) الصفحة 244

وعشيرته .... ووجوههم تتهلل تهلل الاصباح ، ولم يزالوا فى بلاد الغرب ظاهرين ، وبأعدائهم ظافرين ... وذلك أنه لما نور الله بصائر بنى عبد الحق ... فأخلصوا لله نياتهم ، التى هى راس أعمالهم ... (1) .

« وكان موضع نزول بنى مرين أعزهم الله » (2) .

« فزاد بنو مرين ... فى الغرب علوا وظهورا ، اذ ما زالوا فيه ظاهرين وبأعدائهم ظافرين (3) .

« بعث ... يغمراسن ... الى أبى الحسن السعيد ... عاهده على قتال بنى مرين ... فأبى الله ذلك ، بل مكن لهم فى الارض ، وأهلهم لاقامة السنة والفرض (4) .

« توفى الامير أبو معرف بن عبد الحق ... وتقدم بعده أخوه الامير المعظم أبو يحيى بن عبد الحق (5) .

« والامير المعظم أبو يحيى هنالك ... وبنو مرين أعزهم الله قد اجتمعت عليهم (6) .

« وهو أول فتح بنى عبد الحق أعزهم الله تعالى فى تملك قواعد البلدان (7) .

« وكان أهل فاس استعدوا لقتال بنى مرين أعزهم الله (8) .

« فراى بنو عبد الحق بسديد رأيهم ونجح سعيهم (9) .

« وذلك بما وهبه الله لهم من القوة والشجاعة والاخذ فى الامور بالعزم والحزم (10) وصل الله أيامهم ونصر أعلامهم (11) وهكذا ينوه بهم ويرفع من ذكرهم فيما بعد هذا ، ويدعو لهم بالعز والتأييد (12) .

ومهما يكن فان كتابى ابن عبد الملك وابن عذارى يعدان من مفاخر

---

1) 848 ويستمر فى النص منوها بهم ومشيدا باعمالهم .
2) 352 — 3) 354 — 4) 360 — 5) 366 — 6) 371
7) 391 — 8) 399 — 9) 403 — 10) 404 — 11) 420
12) 454 وعلى العكس ما كان عليه ازاء الموحدين أنذاك حيث قال فى بعضهم داعيا « قبحهم الله » 452 .

العهد المرينى بل يعدان من مفاخر تراثنا فى بابهما ، ولا نرى لهما مشاكلا فى عهود المغرب السابقة واللاحقة (1) .

وبعدما أتينا بأنموذجين للتاليف فى التراجم والتاريخ نذكر أنه من الالوان الجديدة التى تناولها أدبنا فى القرن السابع ، موضوع الرحلات ، فلأول مرة تعرف أدبنا على هذا اللون الذى يزخر بشتى المعلومات ، وعديد من الشخصيات .

وقد ظهر فى هذا العهد رجلان ، أحدهما من سبتة ، والآخر من مراكش ، انهما ابن رشيد والعبدرى .

فأما ابن رشيد السبتى ، العالم السلفى ، فهو أبو عبد الله محمد بن عمر الفهرى ، الخطيب المحدث ، الناظم الناثر ، المؤلف فى عدة علوم وفنون ، قال فيه ابن خلدون : انه كبير مشيخة المغرب وسيد أهله ، وقال فيه أبو البركات ابن الحاج البلفيقى : من أهل المعرفة بعلم القراءات السبع وصناعة العربية وعلم البيان والآداب والعروض والقوافى مشاركا فى غير ذلك من الفنون ،،، أديبا خطيبا بليغا ، ذاكرا متأدبا ، يقرض الشعر على تكلف ، ويجود النثر ويبصر مواقع حسنه . . . .

ولدا ابن رشيد بسبتة عام سبعة أو تسعة وخمسين وستمائة ، وتثقف

---

(1) وكأن مراكش نثرت بهما جعبتها التى كانت مليئة طيلة العهد الموحدى وهى حاضرة المغرب منذ ما يزيد على قرنين من الزمان .

فبعد انتقال كرسى السلطنة الى فاس ، من العاصمة مراكش بدأ يتقلص ظل النشاط الأدبى عن هذه الى أن خفت صيتها فى القرن الثامن ، فلم نعد نسمع عنها ، كثيرا كما عهدنا منها فيما قبل ، ومع هذا ، فلم تبخل علينا بعلماء أدباء كان وزنهم — على قلتهم — راجحا ، وكان ذكرهم فى الاندلس صائتا ، بل وجدنا منهم من انتقل نشاطه اليها ، مثل ابن عبد الملك ، صاحب الذيل والتكملة ، الذى سلف ذكره ، ومثل الأديب الناظم الناثر ، أبى العباس أحمد بن على المليانى ، صاحب العلامة السلطانية ، بالدولة المرينية ، الذى وصفه ابن الخطيب فى الاحاطة ، بالكاتب الشهير ،،، أخذ بحظ من الطب ، حسن الخط ، مليح الكتابة ، قارضا للشعر ، يذهب نفسه فيه كل مذهب ومن شعره قوله ، اثر حادثة ذكرت فى الاحاطة وغيرها :

العز ما ضربت عليه قبابى ... والفضل ما اشتملت عليه ثيابى
والزهر ما أهداه غصن براعتى ... والمسك ما أبداه نقس كتابى
فالمجد يمنع أن يزاحم موردى ... والعزم يأبى أن يضام جنابى
فاذا بلوت صنيعة جازيتها ... بجميل شكرى أو جزيل ثوابى
واذا عقدت مودة أجريتها ... مجرى طعامى من دمى وشرابى
واذا طلبت من الفراقد والسهى ... ثارا فأوشك أن أنال طلابى

بها على اعلامها ، مثل ابن أبى الربيع الاشبيلى النحوى وأبى الخضار ، وكلاهما قرأ عليه القرآن الكريم بالسبع ، كما قرأ غير ذلك فيما سنرى ، وقد تقلبت به الاحوال بين الاندلس والمغرب ، الى أن توفى فى نحو التاريخ الذى توفى فيه ابن عذارى وابن عبد الملك ، أعنى العشرين بعد السبع مائــــة .

كان ابن رشيد قد توجه الى الشرق ، فبدأ بكتابة رحلته الحافلة عام ثلاثة وثمانين وستمائة ، فكان فى طريقه ذهابا وايابا ، يأخذ عن العلماء ويأخذون عنه ، ويحضر مجالس علمهم ، وربما سألهم فأجابوه ، وربما جر ذلك الى المناقشة فى مسألة من المسائل ، فسجل ذلك كله فى رحلته ، التى ما زالت قيد الخط ، ويوجد منها اجزاء خمسة كبار .

لقد كان ابن رشيد يحمل تلك الجدوة الأخيرة ، من الظاهرية التــى كانت تشع بالمغرب ، على عهد الموحدين ، فتعرض بذلك فى الاندلس الــى ما كان يتعرض له أبو حيان فى المشرق ؛ من امتحان أصحاب المذاهب الكبار . فكلاهما كان متحررا فى تفكيره واستنباطه وقد عاد ابن رشيد الى وطنه ، فاستدعى الى غرناطة ، التى كان ظل سلطانها يمتد الى سبتة ، فى بعض الفترات التاريخية ، فواجه بها ابن رشيد تألب المالكية عليه ، والعجيب أنه لم يواجه هذا فى المغرب ، الذى كان فى العهد المرينــى قد عاد الــى المالكية بالكلية فجرت بينه وبين أولئك أحداث لا تهمنا فى قصتنا الادبية .

والمهم أن رحلته من الأهمية بمكان عظيم ، أهلها لان تصبح مصدرا هاما ومرجعا معتمدا ، للدارسين والبحاث فى عهدنا وكأن صاحبها قــدر ضخامة مضمونها ، فسماها « ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة ، فى الوجهة الوجيهة ، الى الحرمين مكة وطيبة » فهذه العناوين الطويلة كانت تنم عن محتويات كتبها ، كما سنجد ابن خلدون يفعل فى عنوان كتابه التاريخــى العظيــم .

فى هذه الرحلة ، نجد من فائداتها ، ما اتصل بالتعريف لرجال مــن المشرق والمغرب ، لولاها لما كنا نعرف عنهم كثيرا أو قليلا كما نجد منها جوانب عن صاحبها ، ومدى ما كان عليه من علم وثقافة عامة ، جرى ذكر ذلك فى بعض مواقفه مع رجال العلم والأدب ، فهى بذلك المصدر الاول لمن

أراد أن يعرف الشيء الكثير عن ابن رشيد الأديب والعالم .

وأسلوبه فيها متحرر غالبا ، الا عندما يتعرض لتحلية رجل أو لتنويه ببقعة مباركة ، فيقول مثلا فى ترجمة شيخه حازم القرطجنى : حبر البلغاء ، وبحر الادباء ، ذو اختيارات فائقة ، واختراعات رائقة ، لا نعلم أحدا ممن لقيناهم جمع ، من علم اللسان ما جمع ، ولا أحكم من معاقل البيان ما أحكم من منقول ومبتدع . وأما البلاغة فهو بحرها العذب ، والمنفرد بحمل رايتها أميرا فى الشرق والغرب ، وأما حفظ لغات العرب وأشعارها وأخبارها ، فهو حماد روايتها وحمال **أوتارها** .

وكذلك نجده قائلا فى تحلية أستاذه ، أبى بكر بن حبيش :

أما النظم فبيده عنانه ، وأما الشعر فان مال اليه توكف له بنانه ، مع تواضع زائد ، على صلة مخبره عائد ، لقيته بمنزله ليوم أو يومين من مقدمى على تونس ، وصادفته بحالة مرض ، من وثء فى رجله عرض ، وعنده جملة من العواد ، من الصدور والأمجاد ، فأدنى وقرب ، وسهل ورحب ، وتفاوض أولئك الصدور ، فى فنون من الأدب كأنها الشذور ، الى أن خاضوا فى الاحاجى ، واستضاءوا بانوار افكارهم فى تلك الدياجى ، فخضت معهم فى الحديث ، وانشدتهم بيتين ، كنت صنعتهما وأنا حديث ،،،

ويقول فى ترجمة لعالم افريقى آخر :

وافق اسمه مسماه ، واشتملت كنيته على معناه ، ابرع الجماعة ادبا ، وأوسعهم طلبا ، حافظ ، لافظ ، ويحكم انواعا من الخط ، كلها رفيع غير منحط تفوق صناعتها ، وتروق نصاعتها ، الى محاسن يعجز عن مجاراتها ومباراتها المفاخر المحاسن ، جمع أنواع الحسن اجمعها أكتعها ، وحاز من كل فضيلة ابدعها وأبرعها ، خط رائق ، ولفظ فائق ؛ وخلق وخلق تروقك ذاته ، وتشوقك أدواته ، ما رأيت فى نجباء أبناء الافريقية ، أجمع منه لفضيلة ، ولا أبرع فى كل خصلة نبيلة ، وخلة جليلة ، مع عفاف وكفاف ، يتصرف كيف شاء فى الروية والاتجال مديد الباع فسيح المجال .

هذه نماذج من نثره الفنى ، يستغل فيها اصطلاحات النحو ، والفاظه فى مثل قوله : « على صلة مخبره عائد » و « أجمعها اكتعها » كما يكرر فيها

بعض الصور فى نحو « ذو اختيارات فائقة ، واختراعات رائقة » خـط رائق ، ولفظ فائق » « تفوق صناعتها وتروق نصاعتها » « تروقك ذاته وتشوقك أدواته » « أبدعها وأبرعها » « ولا أبرع فى كل خصلة » « مـن منقول ومبتدع » وهذا التكرار كان أشد فى النموذج الاخير ودونه فى الاول الذى فيه « المنفرد بحمل رايتها » و « حمال أوقارها » ...

أما المحسنات اللفظية ، فلا تخلو منها حلية له ، كما نجد هنا فى « حبر وبحر » واختيارات واختراعات » وحداد وحمال « وحافظ لافظ » « وصناعتها ونصاعتها » « ومجاراتها ومباراتها » « وأبدعها وأبرعها » « ورائق فائق » « وخلق وخلق » و « تروقك وتشوقك » و « خصلة وخلة » و « عفـاف وكفاف » . والسجع شيء مفروغ منه لازما لازبا عند الكتاب لعهده ، وقبله وبعده ، لا يختلف فيه الغرب عن الشرق .

وفيما عدا هذا فانه فى الرحلة ينطلق غالبا فى سرد الوقائع ، ولا يستجيب للمحسنات والحذلقات اللفظية أو المعنوية . فهذه حادثة من ذلك ، جرت له فى مصر (1) ، مع عالمها ابن النحاس، تلميذ ابن مالك فى النحو ؛ اذ حضر درسا له ، فسأله هذا ، بعد تدخل منه فى مسألة نحوية : من أين قدومك ؟ قال ابن رشيد : قلت من المغرب ، قال : من الاسكندرية ؟ قلت، من أبعد ، قال ، من تونس ؟ قلت ، من أبعد ، فقال ، اذن جوى المغرب ، قلـت نعم ، فقال ، من أى بلاده ؟ قلت ، من سبتة ، فكان أول ما فاتحنى به أن قال : أيعيش سيدنا أبو الحسين بن أبى الربيع ؟ قلت ، نعم ، فقال ، ذاك شيخنا ، افادة بوصول كتابه اليتيم ، يريد شرحه لكتاب ايضـاح الفارسى ... ثم قال لى ، أقرأت عليه ؟ قلت ، نعم ، قرأت الجمل والايضاح والكتاب . فلما ذكرت الكتاب ، قال ، فاعبر ، (يعنى حلقة درسه تكريما) ثم ذكر ابن رشيد انه تلكأ فى هذا العبور ، واستحيى منه ، ولكنه أصر على أن يعبر اليه ، كما قال ؛ فعزم على وأقعدنى الى جانبه ، فجلست مغضيا حياء منه ، فقال ، اجلس متسعا ، فجلست وتمادى فى الاقراء ، فاختلسـت الكلام أثناء اقباله على من بين يديه من التلاميذ للالقاء عليهم ، مع الذى كان عن يمينى اختلاسا ، وقلت ، من الشيخ ؟ فقال ، بهاء الدين ابن

---

(1) أرخها بيوم الاحد 7 رجب عام 684 .

النحاس ، فالتفت الشيخ ، وقد وثبت بين يديه ، فقال ، لم ؟ ارجع الى موضعك ، فقلت ، يامولانا ، لم يعرف الملوك بين يدى من هو ، ولو علم ما جلس هذا المجلس ، وما تكلم ، فعزم على فى العود الى مجلسى ، فعدت ، وأشار بالاطمئنان ، فاطمأننت .

وهكذا نجده فى هذه الحادثة ، يتخلص من كل تصنع ، ويحرص كل الحرص على تصويرها ، حتى فى اللغة التى استعملها معه ابن النحاس ومنها كلمة « جوى » بمعنى الظرفية الداخلية ، المستعملة فى عامية مصر حتى الآن ، وقد وقعت الحادثة فى القاهرة ، ولهذا يعتبر الاسكندرية من المغـــــرب ، فى سؤاله السالف ، وان كان ابن رشيد قال فى المسجد الجامع لمصر . والمعتاد فى رحلته أنه اذا أراد القاهرة نص عليها وصفها بالمعزية (1) .

لقد شهد القرن السابع تجاوبا عظيما بين الشرق والغرب ، فابن مالك الجيانى ، كان أستاذا لابن النحاس ، كما تقدم ، وابن النحاس كان استاذا لأبى حيان ، الجيانى أو الغرناطى النفزى الاصل وهذا كان من اساتيذ العالم النحوى المصرى ابن هشام ، كما وردت فى كتبه (2) .

وقد اتصل به ابن رشيد ونقل عنه حكايات ، مثل قوله :

حدثنا أبوحيان ، قال ، حدثنا التاجر أبو عبد الله البرجونى ... قال : كنت بجامع لو لم ، من بلاد الهند ومعنا رجل مغربى ، اسمه يونس ، فقال لي ، اذكر لنا شيئا ، فقلت له ، قال على ... : اذا وضع الاحسان فى الكريم اثمر خيرا ، واذا وضع فى اللئيم اثمر شرا ، كالغيث يقع فى الاصداف فيثمر الدر ، ويقع فى فم الافاعى ، فيثمر السم ، فما راعنا الا ويونـــس قد أنشد لنفسه ...

---

1) القصة بالجزء الثالث من رحلته وهو خاص بمصر . ويبدو من الجزء الذى يليه أنه كان عازما على الاقامة بمصر للاقراء لولا أن رفقاءه حملوه على العودة لذمام لهم عليه أن يحفظها كما قال أو نحو هذا . لان مصر وجد بها من العلماء الاعلام من حببوه فى ملازمتهم وان كان بعضهم لم يكن بذلك .

2) رمن أعجب ما قام به هذا العالم الاندلسى ، أنه وضع للاتراك أول كتاب نحوى للغتهم ، ما زال محفوظا بمكتباتهم حتى الآن ، وهو مسجل فى كتابهم « تاريخ الاندلس » لمؤلفه بالتركية محمد لبيب ، وفيه أيضا أنه ألف كتابا سماه « منطق الخرس فى لسان الفرس » وآخر سماه « نور الغبش فى لسان الحبش » كما ألف فى غير هذه اللغات الثلاث ، الى جانب مؤلفاته الحافلة فى العربية كالبحر المحيط ، وكان فى صحبته والده كما يصرح بذلك فى تفســـيره .

وذكر الشعر ، الذى ضمنه أبوحيان بيتين له ...

ومن نماذج ابن رشيد الطليقة ، قوله فى رحلته :

سافرنا على اسم الله وبركته ، الى أن شارفنا مدينة المهدية عند نصف الليل من ليلة الاربعاء المذكور ، واقتضى نظر تجار المركب سلمهم الله ، أن يفرغوا أسبابهم بها ، خوفا من خبر العدو ، قصمه الله ، وأن ينقلوها فى اجفان صغار ، يمكنهم بها المشى بطول الشط ...

وبعد كلام يقول فى وصف المهدية : وعاينا مدينة حسنة ، محكمة البناء ، حصينة الاسوار ، الا انها قد ألم الخراب بأكثرها ، وقل عمارها ، وذهبت عددها ، وقل عددها ، وقد كان أمرها خبرا سلف ، على ما شهر وعرف ، وبها بابها البرى الحديدى المشهور ، وموضع انشائها البحرى العجيب المذكور ، تخرج منه القطع فى البحر ، عايمة مستوفية لمجاذفها وآلاتها ، وباب برها الحديدى المشار اليه ، قواريره زجاج تتعهد بصب الزيت فيها ، تسهيلا لحركة دورانه ، وفى الباب اثر ضرب من حجر .

ومن وقفاته العلمية فى رحلته ، نجد ما يلى فى رابع :

ذكر غريبة عنت لنا به ، وما عنت ، بل اغنت فى معنى الآية الكريمة واقنت ، وهى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشىء من الصيد تناله أيدكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب » .

صحبنى فى الطريق من المدينة ، على ساكنها الصلاة والسلام ، الى البيت الحرام ، أحد الشيوخ من شرفاء المدينة ، فلما وافينا رابغ ، رأيت أمرا عجبا من تخلل الوحوش ، والغزال والارنب ، بين الجمال والرحال ، بحيث ينالها الناس بأيديهم ، والناس ينادون ، حرام حرام ، والجوارح قد سلست خيفة جاهل ، يتعسف المجاهل ، فقال لى ذلك الشيخ ، تأمل تر عجبا ، هكذا جرت عادتنا فى هذا الطريق ، اذا مررنا به ونحن محرمون ، نجد به من الوحش ما ترى ، فاذا عدنا محلين لم نجد شيئا . فلما عدنا كان كما قال . فبان لى من معنى الآية ، ما لم يكن عندى بالمشاهدة (1) .

---

1) وهنا لابد أن نشير الى أنه وقع فى الآية زيادة ، لا ندرى ، أكانت من ابن رشيد أممن ناسخ لرحلته ، وهذا هو الغالب ، حيث نقلت الآية هكذا « ليعلم الله من يخافه ورسله بالغيب » بزيادة « ورسله » مع أن هذه ليس من الآية المذكورة ، بل من آية أخرى ، وهى « وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ان الله » وهذه من سورة الحديد ، والاولى من سورة المائدة ، مما لم يتنبه له بعضهم .

ومهما يكن فان هذه النماذج الاخيرة ، لا تنسى بعض التأنــق فى عبارات منها قليلة .

ولابن رشيد شعر ، قد يتكلفه كما قال البليفيقى . وهذه قصيدة لــه فى رثاء ابنه محمد بلغت الغاية فى تصنعها وفى مغزاها المؤثر يقول فيها :

شباب توى شابت عليه المفــارق ... وغصن ذوى تاقت اليــه الحدائق
على حين راق الناظرين بسوقــه ... رمته سهــام للعيون رواشـــق
فما اخطأت منــه الفؤاد بعمدهــا ... فلا ابصرت تلك العيون الروامــق
الى الله اشكو فهو يشكى نوازعا ... عظاما سطاهــا للعظام عــوارق
ولا مثــل فقــدان البنى فجعتــه ... وان طال ما لحت ولجت بــوارق
محمــد ان الصبــر فيك مصــارم ... محمد أن الوجد فيــك مصــادق

ويكرر النداء وما يليه من تصوير الصبر على الفاجعة ثم يقول :

فــان جزعــا فالله للعبد عــاذر ... وان جلــدا فاللــه للعبد صــادق
وتاللــه مالى بعــد عيشك لــذة ... ولا راقنــى مراى لعينــى رائــق
وانــى بــه والذكريــات عديــدة ... فنبــل وفهــم للعوائــد خــارق
فان ألتفت فالشخص للعين ماثــل ... وان استمع فالصــوت للأذن طارق
وان أدع شخصا باسمــه لضرورة ... فان اسمك المحبوب للنطق سابق
وان تقرع الأبــواب راحة قــارع ... يطر عندها قلــب لذكرك خافــق
وكل كتــاب قد حويــت فمذكــر ... وآثــاره كــل اليــك توائـــق

الى أن يقول :

فلولا الاسى ذاب الفؤاد من الاسى ... ولولا البكا لم يحمل الحزن طائــق
يخط الاسى خطــا تروق سطــوره ... ويمحو البكا فالدمع ماح وماحــق
فيا واحدا قــد كان للعين نورهــا ... أكل ضيــاء بعد بعــدك غاســق

وكانت تعاصر ابن رشيد من أهل فاس فاضلة متصوفة أدبية شاعرة الشيخة سارة بنت أحمد بن عثمان بن الصلاح الحلبية ، كتب اليها ابن رشيد بقوله :

سرى نسيــم من حمــى ســارة ... عــاد بــه كــل نسيــم عاطــرا
وجــال اقطــار الدنــا ذكرهــا ... فســار فيهــا مثــلا سائـــرا

دائـرة والمجـد قطـب لهـــا ... دارت عليهـــا فلكـا دايـــرا

فأجابته بقولها :

وافى قريـــض منكـــم مذغـــدا ... لبعــــض أوصافكـــم ذاكـــرا
اطلـــع مـــن سمائـــه انجمـــا ... ومـــن شـــذاه نفســـا عاطـــرا ؟
اعاد ميـــت الفكر من خاطـــرى ... مـــن بعد دفـــن فى الثـــرى ناشرا
يبهـــر طرفـــى حســـن منظـــره ... احبـــب بـــه نظمـــا غدا باهـــرا
فقلـــت لمـــا هالنـــى حسنـــــه ... اشاعـــرا أصبـــــح أم ساحـــــرا
أم روضـــــة هذى التـــى قـــد أرى ... أم بـــدر تـــم قـــد بـــدا زاهـــرا
أم ضـــرب مـــن فمـــه سائـــــل ... أم جوهـــر اضحـــى لنـــا ناثـــرا
للـــه مـــا اعـــــذب الفاظـــــــه ... وانـــــور الباطـــــن والظاهـــرا
يا ابن رشيـــد بل أبـــا الرشـــدا ... من لـــم يزل طـــى العلاء نـــاشرا
خذهـــا فدتـــك النفس ياسيـــدى ... وكـــن لمـــن نظمهــــا عـــاذرا
ما تصـــــل الانثـــى بتقصيرهـــــا ... لان تبــــارى ذكـــــرا ماهـــــرا
لازلت تحيـــى من رســـوم العـــلا ... ما كـــان فيهـــا داسرا داثـــرا

وبعد ابن رشيد ورحلتـــه ، نتناول معاصره وزميله فى الرحـــلات ، ابا عبد الله محمد العبدرى ورحلته . والعبدرى هذا لا يهمنا ان كان أصله من قبيلة حاحة التى تحيط بمدينة الصويرة بقدر ما يهمنا انه نشأ نشأتـــه العلمية بالعاصمة مراكش التى كان ينتمى اليها (1) .

لقد كان العبدرى من أسرة علم ، فأبوه يحلى بالشيخ الخطيب ، وأخوه الذى رافقه فى رحلته كان من أهل العلم ، والغالب أن تكون تنشئته الاولى العلمية على والده ، وان لم يذكر ذلك ، بـــل ذكر صراحة انه كـــان بمراكش يأخذ عن رجالها ، وكان على اتصال بالقاضى ابن عبد الملـــك ، صاحب الذيل والتكملة ، ويبدو أنه كان يضاهيه فى المرتبة العلمية ، فهو لا يزيد على أن يذكره بقوله : صاحبنا الفقيه الاديب الاوحد . فالتعبـــير

1) ولا دليل على كونه من حاجة فى هذه الابيات التى يحن فيها الى وطنه وقد أدركه العيد بفاس :

قالـــوا تميـــد فى فاس فطب فرحـــا ... فقلت مـــا لى بهـــا دار ولا عطـــن
فـــاس ومكناســـة وطنجـــة وســـلا ... عنـــدى كريـــدك لا أهـــل ولا وطـــن
بغداد قفـــر اذا لم تحو لى سكنـــا ... والقفر بغداد ان أهلـــى بـــه قطنوا

فهو يفضل القفر ان حل به أهله على بغداد ، وهل هم فعلا حالون بالقفر ؟ يبقى ما هو أعم ، فلا يستفاد بحال من هذا أن موطنه حاجة ، كما قال ناشر الرحلة المذكورة . الاستاذ محمد الفاسى .

بصاحبنا ، مما يفهم ما استظهرناه فى ذلك . لأنه لم يحله الا بما يحلى بــه الاقران لا المشيخة .

ويذكر فى رحلته التى ابتداها سنة 688 ، أنه كان فى مقتبل العمر .

واذا كانت رحلة ابن رشيد قد استغرقت ما يربو على أربع سنوات ، فان رحلة العبدرى قد استغرت نحو سنتين ، كما يبدو من سياق رحلته التى لم تكن وقفاتها طويلة ، كما كانت لابن رشيد .

وهكذا فقد بدا رحلته من بلاد حاحة ، ولم يركب البحر الى الأندلس ، كما فعل ابن رشيد ، بل سلك طريق البر ، جنوب المغرب نحو مدينة تلمسان. وبها بدأ كتابة رحلته ، فى نفس السنة التى كان ابن رشيد قد عاد الى وطنه . واستمر فى رحلته الى مليانة سالكا أقاليم الجزائر ، الى تونــس ، ثم طرابلس ، ومنها الى القطر المصرى ؛ بادئا بالاسكندرية التى وقف عندها ، شأن غيره من المغاربة ، طويلا . ثم توجه الى القاهرة ، فلم تعجبه ، كما لم تعجب غيره أيضا ، فغادرها الى العقبة ومنها الى الحجاز ؛ حيــث أدى فريضة الحج وزار قبر الرسول ، عليه السلام . ولما قضى فرضـــه ونسكه ، عاد عن طريق فلسطين الى مصر ، التى سرعان ما تركها راجعا الى المغرب . فتوقف بتونس ، بعض التوقف ، ولكنه تابع سيره الحثيث حتى أنهاه بوطنه فى لهفة وحنين (1) .

واذا كان ابن رشيد فقيها قبل أن يكون أديبا ، فان العبدرى أديب قبل أن يكون فقيها ، فهو فى نثره وفى شعره ، على السواء ، يمتاز بموهبة فنية ، لم نجدها غالبا لابن رشيد .

وذلك كما نجد فى هذا النموذج من فنه النثرى ، واصفا به الاسكندرية :

مدينة الحصانة والوثاقة ، وبلد الاشراق اللامع والطلاقة ، وطلاوة النظر وحلاوة المذاقة ، كل عنها ظفر الزمان ونابه ، وملّ منها جيـــــش الحدثان وأحزابه ، فلم تبد عليها للزمان ضراعة ، ولا وكست لها فى معاملاته سلعة ولا بضاعة ، ولا وقفت له موقف ذل يوما ولا ساعة ، بل ثبتت لحزبه ثبوت البطل ، وصابرت كيده حتى اضمحل سحره وبطل ، فلم تصغ أذنـــا

1) يعبر عنهما فى قوله ، وقد أدركه العيد بفاس الأبيات السالفة الذكر .

الى ما يوعد به من الخنا والخطل ؛ فهى واقفة وقوف الأطواد ، سامية بطرف غير كليل وجيد غير منآد ، آخذة من الكفر وأهله بالمخنق ، حتى أبدلتهم من الصافى المروق الكدر المرنق . فسامروا الأسف مسامرة الندى للمحلق (1) ، ودجا عليهم ليل هم ادلهم بعد نهار سرور تألق ، واضطرم عليهم الأسى واحتدم ، فحالفوا الندم وقالوا عضو لا يتفرق . مدينة فسيحة الميدان ، صحيحة الاركان ، مليحة البنيان ، تسفر عن محيا جميل المنظر ، وترنو بطرف ساج أحور ، تبسم عن ثغر كالاقحوان اذا نور ، كأنه لم يغب عنها شخص الاسكندر ، بما ساس فيها من عجائب مبانيها ودبر ، ناهيك بمدينة كلها عجب ، قد ستر حسنها حسن غيرها وحجب ، ووفى فيها الاتقان حقه كما وجب ،، وقد أغنى عن تسطير وصفها ما سطره الاعلام ، وصرت به على المهرق الاقلام .

ولكنه قد يتخفف من فنه فيقول فى عمود السوارى المعروف بها : « وهو حجر واحد مستدير عال جدا ، على قدر الصومعة المرتفعة ، وهو يبدو من بعيد بارزا فى غابة النخيل ، مرتفعا عنها ، وقد أقيم حجارة منحوتة مرتفعة ، على قدر الدكاكين العظام ، علوها أزيد من قامتين ، ولا يعلم كيف أقيم عليها ، ولا كيف ثبت هنالك ، مع الرياح والعواصف ، وهو مما لا يمكن تحريكه البتة ، فضلا عن اقامته هنالك » .

ففى هذا الوصف ، نجد أسلوبين مختلفين ، كما وجدنا فى رحلة ابن رشيد ؛ نجد عند التنويه التزام الصنعة ، التزاما كليا ، يطغى عليها السجع طغيانا غامرا ؛ يجعل صاحبه ، يتصيد الجمل ليحصل فى نهايتها على سجعة تنسجم مع سابقتها أو لاحقتها ، كما رأينا مثلا ، فى « ولا وكست له فى معاملاته سلعة ولا بضاعة » . فهذه الجملة ما جاء بها الا ليتصيد فى نهايتها هذا المعطوف « ولا بضاعة » حتى يكون الانسجام بها مع « ضراعة » قبلها و « ساعة » بعدها ، وكان الامكان الاستغناء عنها تماما ؛ فيأتى الكلام هكذا ، فلم تبد عليها للزمان ضراعة ، ولا وقفت له موقف ذل يوما ولا ساعة . فتكون الثانية تأكيدا للاولى وتثبيتا وتبيينا ، بدون أن

1) يشير بهذا الى قول الاعشى فى المحلق :

لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة الى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

تنحشر تلك المذكورة بينهما ،،، وكذلك الشأن فى الجملة « فلم تصغ أذنا الى ما يوعد به من الخنا والخطل » . فهذه يمكن أن يستغنى عنها صنيعه ، فيكون الاكتفاء بما قبل « بل ثبتت لحزبه ثبوت البطل ، وصابرت كيده حتى اضمحل سحره وبطل » . ولولا نظره الى موقف موسى من حزب فرعون ، لما كان للجماة الأخيرة أهمية الى جانب الاولى . وهى على كل حال لا تلتحم تماما بثبوت البطل ، لأن موقف موسى ، لم يكن موقف الابطال ، حين قال : « ما جئتم به السحر ان الله سيبطله » . وهكذا قوله « حتى أبدلتهم من الصافى المروق ، الكدر المرنق » لينسجم بالمخنق قبله ، والمحلق بعده ...

وكأن العبدرى رأى أن يرتبط بالسجع ، ولا يعير لغيره كبير اهتمام . ولهذا لا نظفر بغيره من المحسنات الا قليلا ، مثل الجناس فى المروق مع المرنق ، والطباق فى « دجا عليهم ليل هم ادلهم ، بعد نهار سرور تألق » .

وأجمل ما فى هذا الوصف قوله « كل عنها ظفر الزمان ونابه ، وملّ منها جيش الحدثان وأحزابه » ، وشكرا للسجع هنا فله دخل فيه .

وبعد هذا كله ، نجده يخلع عنه حلة الزينة ، فيبدو عاريا منها ، فى وصفه لعمود السوارى ؛ فهو كلام مغسول من كل صبغ ، عاطل من كل حلية ، متواضع فى التصوير ؛ فلا يرقى هذا المستوى الذى نجد منه قوله فى بلد آنسا ، مثلا :

بلد منفسح منشرح ، فى بسيط مليح ، طيب التربة يغل كثيرا ، وبه ماء جار كثير ، ونخل وبساتين ... وكان فيما مضى مدينة كبيرة ، فتوالت عليها الخطوب المجتاحة ، ونزول الأقدار المتاحة ، حتى صارت رؤيتها قذى فى المقلتين ، وعادت بعاديات الزمان ، أثرا بعد عين ، فليس بها الا رسوم حائلة ، وطلول مائلة ، خلت من كل قار ومقرو عليه ، وقاصد ومقصود اليه . بيد أن بها صبابة من أهل الدين ، وفرقة بأخلاق أهل الخير تدين ، على ما يتناولهم من أيدى المعتدين ، ويتداولهم من الولاة المفسدين . كشف الله عنهم تلك البلوى ، وحسم الداء الذى أذبل نضارتهم وأذوى .

ويصف صحراء المغرب الشرقية ودليلا عجيبا بها فيقول :

ولما حصحص اليأس ، وتحقق فى الرأى الالتباس ، وصل من اللطيف

معهود الالطاف ، وعاد من عطفه علينا انعطاف ، فوقف علينا جملة أشخاص اثر فيهم الدؤوب ، وعلا على ألوانهم الشحوب ، عانقوا البرارى والقفار ، حتى أخلصتهم خلوص العسجد بالنار ، وتخونهم الخوف المطير للوسن ، كما تخون عود النبعة السفن . فسألوا عن الوجهة فأخبرناهم ، واستدعونا للمرافقة فأجبناهم ، وساروا بنا فى مجاهل يضل بها الدليل ، ويذهل فيها الخليل عن الخليل . وفيهم رجل أدل من سليك (1) المناقب ، وأمضى من المرهف القاضب ؛ يطبق مفاصل القفار ، وينصلت من المجاهل انصلات المجلى من النقع المثار . كالسهم مسددا الى غرض الفلاة ، والجارح منقضا على الموماة . لا يستدل بنجم ينظر فيه ، ولا يعرف نعشا ولا بنيه (2) ، ولا يتقى أن يسهو مع من سها ، فيذكره سهيل أو السهى، يتبدل النجم فيقف وقفة الحيران ، وربما عن له المسير فناء كالنشوان . وهو يشق أديم البهما ، كما شق البدر حندس الظلما ، تحسده النجوم فتلاحظه بطرف كليل ، وتقاربه الريح فتتنفس بنفس عليل ، حتى قطع بنا تلك المفاوز، واكتسينا بحمد الله برود الامن بعد تلك المعاوز ....

فهذه الأوصاف راقية فى خيالها ، بارعة فى رصفها ، أنيقة فى حليتها ، ولها مثيلات غيرها فى رحلته ، وخصوصا عند وصف المناظر الطبيعية كقوله فى مليانة :

مدينة مجموعة مختصرة ، وليست بذلك عن أمهات المدن مقصرة ، أشرفت من كثب على وادى شلف ، واستشرفت نسيم طرفها من شرف ، فى روضة جمة الازهار والطرف ، فرعت فى سفح جبل جمى حماها أن يرام ، وشرعت فى أصل نهر يشفى المقيم من الهيام ، شاق منظرا ، وراق مخبرا ، وشفى الظمأ موردا ومصدرا ، يشتهى الناظر اليه وهو ريان الشروع ، ويقول لورش به لأفاق المصروع ، كأن خصباءه جمان والماء من فوقه دموع ...

على أننا نلاحظ تكرارا فى قوله « يشفى المقيم الهيام » مع « ويشفى الظما موردا ومصدرا » ...

---

1) من العدائين المضروب به المثل ؛ كما فى الشمقمقية .

« واعد على رجلى سليك هاربا — من قرب كل خنبق وسهوق »

2) يريد « بنات نعش »

ويخلل رحلته شعرا له ، كما سنرى ، ويستطرد أحيانا ويطيل ، ثم يعود معتذرا ، ويسجل مباحث علمية شارك فيها ، تناولت البلاغة والفقه . ويثنى على ملوك الاتراك ، ولا يتورع ان يسم امام الحرم النبوى بالجهل ، وهو فى ملاحظاته صريح صادق ، يهجو من يستحق ويمدح من يستحق ، وثناؤه على أمير المركب الشامى لا يعدله ثناء لغيره . وله الى جانب ذلك مواقف نقدية حميدة تنم عن حاسة مرهفة أدبية ، وذوق متأصل ربى عليه .

وبعد ما تناولنا نماذج من نثره فى رحلته ، نتناول نماذج من نظمه ، فمن ذلك قوله فى مقدمة رحلته التى نظمها :

عليك النصح رده بكل حى ... وان ألفيت وارده فحي
فمعظم ديننا نصح البرايا ... كذاك أتى الحديث عن النبي
وقد نصح الجماد لذى اعتبار ... وكف أولى النهى عن كل غي
لسان الحال أبلغ من بليغ ... وفى ذى الجهل أعيى من عيي
وقدما سارت الامثال عنها ... وما زدنا سوى حرف الروى
فأصغ الى نصائحها مصيخا ... وأيقظ جفن ندب شمرى
مسحت الأرض غربا ثم شرقا ... أسائل عن عواقب كل حي
فقالت ما سؤالك بعد علم ... ألم ترهم جميعا تحت طيي
فصافحت التصبح مستبينا ... فما ألفيت أرضا ذات عي
مررت بحاحة فسألت عمن ... أناخ بآخر الغرب القصي
وقد أهدى الكسوف الى أناس ... تراهم كالبدور لدى الندى
وجئت السوس أسأل وهو أقصى ... فقال اليك عن كمد سجي
ألم ترنى وحيدا من أناسي ... كما عطلت كعاب من حلي
وطفت بلاده أرضا فأرضا ... تخبرنى بموتهم الوجي

وهكذا استمر يذكر البقاع التى زارها ، ويقف منها موقفا يسائلها ، فيطيل السؤال عند بعضها ، ويقصر عند بعضها الآخر ، وكانت أطول وقفة له عند مكة المكرمة ، التى كان جوابها يبعث على الاعتبار ، فيمن مضى بالجاهلية والاسلام ، من عرب وفارس قال فيهم :

أما دارت على دارا صروف ... كسرن عماد كسرى الفارسي

وأخيرا اختتم القصيدة ، بقوله لها ، وعنها :

فقلـت لقد نصحـت بكل معنـى حقيـق أن يصـاخ لـه حـرى
وقد أسمعـت لو ناديـت حيـا ولكـن لا حيـاة لغيـر حـي
فقالـت قد عهـدت اليك نصحـا فوفقـك المهيمـن مـن وصـي

ومساءلة البقاع معروف فى الجاهلية والاسلام ، وقد حث القرآن الكريم على الاعتبار من الأسفار ومشاهدة الديار فى عدة آيات منها « أولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، ولدار الآخرة خير للذين اتقوا » ، وقال فى أخرى يصفهم بأنهم « كانوا أشد منهم قوة » . وفى أخرى قال « دمر الله عليهم » ، كما قال فى آيات عديدة « سيروا فى الارض فانظروا كيـف كـان عاقبـة المكذبـين » أو « كيـف بـدأ الخلـق » أو « كيـف كان عاقبة الذين من قبلكم » ، ونحو هذا مما يبعث على الاعتبار بالأمـم الخالية فى مشاهدة آثارهم ومنازلهم ، وهو ما أشار اليه العبدرى فى أوائل أبياته بالقصيدة التى لم يبغ من نظمها تلخيصا لرحلته ، بقدر ما أراد من موعظة وانتصاح يستنطق به هذه البلاد التى زارها .

ونظمه هذا لا يختلف عن نظم المتصوفة والزهاد ، وقد كان من أولئك فلبس خرقتهم ، كما يحدثنا بذلك فى رحلته . وهو فى نظمه هذا مهتم بالمعانى ، وقليلا ما يستغل الألفاظ ويقلبها ، كما فى قوله « حى » ثم « فحى » وقوله « فصافحت التصبح » و « دارت على دارا » و « كسرن عماد كسرى » . وأخيرا يضمن قصيدته البيت المعروف :

لقـد أسمعـت لو ناديـت حيـا ولكـن لا حيـاة لمـن تنـادى

فلا يغير منه الا الجملة الاخيرة . ولا شك أن الدوران على دارا ، استعاره من السابقين ، وفيهم أبو البقاء صالح الرندى .

وفيما عدا هذه القصيدة التى لا بأس بمستواها الفنى ، نجد لـه قصيدة نظمت بتلمسان ، يفتتحها بقوله :

تغربت عن أهلـى اليك ومالـى وأعرضت عن قيـل عداك وقـال
تماثل فى دنيـاى اذ أنت مطلبـى محـب لـه شـوق الى وقـال
سمـوت علـى قصد اليك بهمـة ترى عيش كسرى مثل عيش دلال
ولاحت لى الدنيا فأبصرت عبرهـا ولـو زيد أضعافـا كحل عقـال

وما عيشها الا كظل غمامة — وما ملكها الا كطيف خيال
وهل بعد أن أسدى الى لطائفا — يقصر عن تبيانهن مقال
وباشر قلبى باليقين مبردا — حرارة اشكال أخل بحال
أرى رافعا صوتى الى غير جاهه — وابسط للمخلوق كف سؤال

فهذا المطلع أيضا فيه نفحة صوفية وسمو عن أعراض الدنيا وأغراض الخلق ؛ مما يزيده تبيانا فيما بعد من أبيات القصيدة ، وفيها قوله :

أما ذاك لى قصد الى الله صاعد — وعلم سما بى فيه نحو كمال

ثم يتبرأ فيما بعد من كونه يسمو بهمته نحو النحو واللغات والمنطق والكلام والعروض والحساب ، مما كان ولا شك على علم به ونهوض بأمره ، وان كنا نجده فى الرحلة ينعى على المصريين اشتغالهم بالمنطق ، مع أن معرفته كما قيل :

عرفت الشر لا للشر — ر لكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشر — من الناس يقع فيه

أما الفقه فموقفه منه فى هذه القصيدة كما قال :

ولكننى مهما نحوت تفقها — خلعت عذارى موضحا لخلال
الا لست أعنى للتفقه ما حوت — دفاتر تملى من ظنون رجال
ولكنه فقه علا عن تناقض — وليس لآراء الورى بمجال
تريك اطرادا منه كل قضية — أنابيب تبدو فى متون عوال
قضايا جلايا مثل ما لاح ساطع — يصول بجند الليل أى صيال
قضايا اذا وفقت يشفيك حكمها — والا فلا تعرض لطب عضال
فلست لها فى الكتب يوما مطالعا — ولا سامعا فيها نظام مقال
وفى عقل ذى القلب المتيم رقمها — يبين به عن كل أنوك سال
فان أنت لم توطن لحال وصالها — فدعنى واياها حليف وصال

وهكذا نجده أخيرا قد خلع العذار — كما قال — فى تصوفه ، الذى ربما سلك اليه مذهب الظاهرية ، التى كان عليها معاصره وزميله ابن رشيد كما تقدم . والقصيدة فى نسيجها لا تختلف عن غيرها ، وان كانت من الناحية الفنية أجف منها بعض الشىء .

وهذه أخرى على لسان بلدة مليانة :

زمان لدى عهد الشبيبة قد عسى — أعلل فيه النفس علي أو عسى
لعل ربوعا من حلاها عواريا — تعود لها تلك المفاخر ملبسا
لعل انتظام الشمل يرجع ثانيا — ويعطف بالاحسان دهر بنا أسا
زمانى رمانى بالنوى من أحبه — لبعدهم عاد الأنيس معبسا

الى آخر القصيدة التى عليها طلاوة من الشعر وحلاوة من لغته ، نجدهما كذلك فى قوله على لسان مدينة تونس :

أنا الغادة الحسناء فاق جمالها — فقالت يمينا لا خطبت على زوج
اذا الغانيات ارتدن وطل بعولة — فما بى ولا فخر الى الزوج من حوج
أغادى اذا ما شئت ظبيا بقفرة — وأطرق نون اليم فى ظلم الموج
وفى لمكدود الحجيج استراحة — فهم يردونى الدهر فوجا على فوج
وانى الى البيت العتيق كسلم — به يرتقى من فى الحضيض الى الأوج

وكذا نجد له قصائد ، بعضها فى مكة يستهلها بقوله :

بلد نحوه يحن الرسول — وبه علقت قديما عقول
بلد ان رآه يوما مشوق — قال لمنى أولا تلم يا عذول
لو رأى من سناه غيلان مي — بارقا لم تشقه تلك الطلول

وبعضها فى المدينة ، يفتتحها بقوله :

مقام للعلاء به مقام — وفيه انجاب عن ضوء ظلام
به مثوى السيادة غير شك — به للدين والدنيا انتظام

وان كان قوله « غير شك » مما يميد بعمود الشعر وينوء بحمله .

وكذا قوله فى مدح الرسول عليه السلام :

فوق الى غرض الفلاة وسدد — سهم السرى تقصد وتحظ بمقصد
أوتر قسيا من مطى ان رمت — رنت كما رنت قسى المتصد
شم سيف عزم لا يفل ذبابه — قرع الزمان ولا قراع الفدفد
هم بالعلاء بهمة تعلو على — سمك السماك وسام سامى الفرقد

الى آخر القصيدة الطويلة المثقلة بالحلية اللفظية ، والمبتداة عشرة أولى منها بفعل الامر ، ثم تسعة وعشرون بيتا منها بكلمة « حتـى » ، وستة بهذا النداء « ياعين » ، وستة « ياربع » ، وخمسة « ياخير » ، الى ثلاثة بدئت بكلمة « خير » ، واخرى كذلك بكذب ، وأربعة بما النافية ، وثلاثة بمن الجارة وأخرى بلا النافية ، وأربعة بالضمير أنا ، الى ما كـرر مرتين . وجميعها على التوالى ، مما يستساغ بعضه ويستثقل بعضـه الآخر ، كما وجدنا فى البيت الأخير .

ومن أبياته القلقة قوله :

« شبابى وال جاء شيبى بعزلـه فقام بأعلى الرأس منه خطيب »

ومن أطول قصائده وأخفها قصيدة له نظمها بالقيروان ، وبعثها الى ولده محمد ، تقع فى نيف وخمسين بيتا يفتتحها بقوله :

أصـح سمعـا أوصـك يابنـى وصيـة والد بـر حـفى »

وبعد فقد أشرنا فيما سلف الى أن ابن المرحل كان يعاصر الفقيه ابا العباس العزفى صاحب الفكرة فى المولديات النبوية ، التى قال فيها مالك قصائد .

وقد ورث أبناء العزفى وأحفاده الوجاهة التى كانت له فى بلدته (1) بل تعدوها ، بابنه أبى القاسم فمن بعده ، الى الرئاسة بها ، كما ورثوا عنه العلم والادب وكان وابناؤه وأحفاده على حظوظ من الادب متفاوتة ، فمن نظمه قوله فى نصرة أهل الحديث :

اهـل الحديـث عصابـة الحـق فـازوا بدعـوة سيـد الخلـق
فوجوههـم زهـر منـضرة لالاؤهـا كتألـق البـرق
يـا ليتنـى معهـم فيدركنـى ما ادركـوه بها مـن السبـق

ويقول ابنه الرئيس ابو القاسم فى آل البيت :

ذريـة المصطفـى انـى أحبكـم وحبكم واجب فى الديـن مفترض

1) انظر كتابنا « تاريخ سبتة » .

فليس يبغضكم ، لا كان باغضكم الا امرؤ مارق فى قلبه مرض
وحسبكم شرفا فى الدهر انكم خير البرية هذا ليس يعترض
ولست اطلب من حبى لكم ثمنا الا الشفاعة فهى السؤل والغرض

وهو الذى اكمل كتاب أبيه « الدر المنظم فى مولد النبى المعظم » ، كان الى جانب فقهه وحفظه أصوليا .

ومهما يكن فهذا شعر فقيه لا بأس به ، ينظر الى قول الشافعى الامام :

يا آل بيت رسول الله حبكم فرض من الله فى القرءان أنزله
يكفيكم من عظيم القدر أنكم من لم يصل عليكم لا صلاة له

اما حفيده أبوالقاسم عبد الرحمن ، فهو ابن أبى طالب عبد الله الرئيس الثانى بعد أبيه . مؤلف كتاب « الاشادة بذكر المشتهرين من المتأخرين بالافادة » . ألف هذا الكتاب لذى الوزارتين أبى عبد الله محمد ابن الحكيم الغرناطى .

ومع الأسف فان هذا الكتاب يعتبر ضائعا ، ولو كان على قيد الحياة ، لسجل لنا جمهرة عظيمة من رجال القرن السابع ، مغاربة وأندلسيين وأوائل الثامن (2) . ولا نعرف من كتابه الا بعض التراجم التى نقلت عنه . ومن تلك ندرك مدى أهميته وطول نفسه فيها ، كما نجد فى ترجمته للقاضى أبى حفص الأغماتى ، التى نقلها المقرى فى أزهاره . وفيها أنه « لم يذكره أحد ممن لقيه وتعرض لذكره ، الا أطنب فى الثناء عليه ، ووصفه بالعلم والفضل ، والعدل فى القضاء ، مع براعة النظم والنثر » ، وأن أبا عبد الله التجيبى نزيل تلمسان ذكره فى شيوخه ، وأن الاغماتى رغب الى هذا ان يكتب له ما عنده من اخبار الصالحين وائمة المتقين ، وأولياء الله المطيعين ، فكتب له من الاحاديث الوعظية ، والاشعار الحكمية ، ما أمكنه ، مما وجدنا له صداه القوى فيما سبق ذكره من اشعار الزهد والحكم ، لهذا القاضى الأديب .

فترجمة الاغماتى فى الاشادة أوفى ما نعرف فيه من تراجم ، سابقة

---

2) توفى عام 717 .

ولاحقة ، كما أن ترجمة ابن خبازة الخطابى أوفى التراجم له (1) .

وغالبا ما يكتفى فى تراجم المذكورين بما قال فيها أصحاب التراجم المختلفة ، أو تلقى فيها بعض المرويات .

وممن ترجم له فى كتابه الاشادة ، أخوه أبو العباس أحمد ، فقال فيه ، كما فى الجذوة :

هو أخى الذى باخائه أزهى وأنتحى ، وكبيرى المعتمد باجلالى وتوقيرى ، ولولا خوفى من أن يلزمنى ما لزم مادح نفسه لاسهبت فى وصف ما له من المحاسن التى فاق بها أبناء جنسه ، مع أنها لم تزل على منصة البيان مجلوة ، وبألسنة الايام متلوه » .

ثم ساق ابن القاضى نماذج طيبة من شعره (2) .

من ذلك ما خاطب به ملك غرناطة ، حين تغريبهم من سبتة اليها ، فقال من مطلع قصيدة فى ذلك :

لكم حمى فى فؤاد غير مقلوب … فضائع فى هواكم كل تأنيب
ان ساء ما ساءنى مما يسركم … فعذبوا فقد استعذبت تعذيبى
عودوا الى الوصل أو عودوا عليلكم … وبادروا فرضاكم طب مطبوب
كم أرسلت ادمعى تترى بصدقى فى … دعوى هواكم فقابلتم بتكذيب
ولاذ بالصبر قلبى حين غالبنى … شوقى كما لاذ غالب بمغلوب
لولا الحبيب الذى ينأى بنأيكم … ما كان قربكم عندى بمحبوب
ولا تشكت جيادى ما أضر بها … من طول ركض واسآد وتاويب
بى منكم رشأ لولا لواحظه … ما كان قلبى من صدرى بمسلوب
اذا بدا خرت الالحاظ ساجدة … لنور وجه بتاج الحسن معصوب
تخال حبة قلبى خاله أبدا … يصلى بجمر على خديه مشبوب

---

1) ومنها كانت الدراسات التى تناولتها ، ليس فيها زيادة على ما فى الاشادة التى لا تبخل علينا بالنصوص الادبية ، على طولها ، كيائية ابن خبازة المذكور ، فى مدح النبى ، عليه الصلاة والسلام ، وشمائله الكريمة ، ومعجزاته الباهرة ، فقد ذكرها ، بأبياتها التى تربو على ثلاثين ومائة بيت ، كاملة ، كما ذكر من رائيته الرائية لابن الوزير ابن الجد ، خمسا وأربعين بيتا ، وغير ذلك كثير ، لا نجده فى غيرها .

2) اعتمد عليها وعلى أزهار الرياض ، من تعرضوا له ، اعتمادا كليا .

شالت عقارب صدغيه وحف بها	حيات وحف من الاذيال مسحوب
تجنى القلوب فتجنى ورد وجنتـــه	فتنثنـــى بـــين ملســـوع وملهـــوب
رياض حسن رماح الهدب مشرعة	للذب عنها بطعن غير تذبيـــــب
فيهـــا مصارع العشـــاق داميـــة	وكلهـــم بـــين مطعـــون ومضروب
وكيف أملا لحاظى مـــن سنـــا قمر	عنـــى بسحب غبار الخيل محجوب

وبهذا البيت تخلص لمدح الملك المذكور . ويلاحظ على الابيات استعمالها لتلاعب الالفاظ ، فى مثل « عودوا أو عودوا » و « تخال خاله » ، و « تجنى فتجنى » و « استعذبت تعذيبى » و « حف حيات وحف » . وقد بلغـت الذروة فى التأنق فى التعبير وفى التحلى بحلى الدرر التى تضن بها عرائس الاشعار الجميلة وما أرق البيت الثانى منها وما أنسبه وهو يحمل من العتاب الرقيق والتودد اللطيف فى قوله :

ان ساء مـــا ساءنى مما يسركـــم	فعذبوا فقـــد استعذبت تعذيبـــى

ومن رقيق شعره قوله فى غربته بغرناطة ، يحن الى وطنه ، ومن يحل به من أحبائه :

لـــــى فى سبتـــــة سكـــــن	حبـــــه أضلعـــــى سكـــــن
فهـــــو يـــــزداد جـــــدة	مـــــع ابلائـــــه الزمـــــن
أصبـــــح القلـــــب عنـــــده	وبغرناطـــــة البـــــدن
ان هـــــاروت لـــــو رأى	سحـــــر الحاظـــــه افتتـــــن
زارنـــــى والرقيـــــب قـــــد	نـــــام والليـــــل حـــــين جـــــن
بعـــد بعـــد حـــنى الضلـــو	ع علـــى الشجـــو والسجـــن
فشهدنـــــا عـــــلى نكـــــا	ح ابـــــن مـــــزن ببنـــــت دن
ونعمنـــــا الـــــى الصبـــــا	ح كروحـــــين فى بـــــدن

وهى كسابقتها طويلة ، فيما قال ابن القاضى ، ظهر فيها معاقرة الخمر .

أما أخوه أبو العباس السالف الذكر ، فكان من الشعراء المفلقين منضويا الى رجال الدولة النصرية وفى مقدمتهم الوزير ابن الحكيم . ومن شعره قوله من مطلع قصيدة فيه ، كما بالازهار :

هـذا الصباح فغادنـي بصبـوح — وانهض براحك فهى راحة روحـي
لا تكترث بخطوب دهرك واسقنـي — كأسـا تحسـن منـه كل قبيـح
واسرح سوام اللفظ بين حدائـق — ما سائـم فى مثلهـا بمريـح
فتنـت بزهرة زهرهـا فتمايلـت — تختال فى الحبرات بعـد مسوح
شقـت شقائقها جيـوب كمائـم — أسفـا عـلى زق يخـر جريـح
وعيون نرجسها تلوح شواخصـا — لوميض بـرق فى الكـؤوس مليح
والـورد تخجلـه أنامل سوسن — تومـى اليـه بالسـلام وتوحـى
واتـى الربيع ربوعهـا بسواجع — عجـم تشق فـؤاد كل فصيـح
سجعـت تبشرها بعود شبابهـا — فأصغ الى « شق » بها « وسطيح »
ما لـى وللأطـلال أسأل صامتـا — منهـا وأعـول فى مهامـه فيـح
فى الراح والريحان شغل شاغـل — لى عن عيافة « بارح » « ونسنيح »
وأصون سمعى عن مقالة عاذلـى — لتذلـلى والحـب غيـر مشيـح
كم عرضـوا لى بالمـلام وصرحوا — فعصيت فى التعريض والتصريـح
عجبـا لهـم يلقوننـى بملامهـم — فى حـب مـن يلقـون بالتسبيـح
ان صوح الروض النضير فخـده — ازهـاره أمنت مـن التصويـح
وتحار أعـين مبصريه اذا بـدا — فى ثقـل أرداف وخفـة روح
قلبـى بعدلهـم يزيـد توقـدا — لا غـرو فى نـار تشـب بريـح

وهى أبيات تجمع بينها وبين « نواسيات » الصنيع والهدف وشائج قوية ، ولكنها فى نسجها تختلف من حيث الحذلقة المتراوحة بين معانيها والفاظها ، كغيرها من أشعار العزفيين عامة ، وشاعرنا بصفة خاصة .

ومن خمرياتـه كذلك :

ويوم كسـاه الدجـن دكن ثيابـه — وهب نسيـم الروض وهو عليـل
ولاحت بأفـلاك الرياض كواكـب — لهـا بالبـدور الطالعات أفـول
وجالت جياد الراح بالراح جولـة — فلـم تحـل الا والوقـار قتيـل

والخمريات فى أدبنا من تأثير الاندلس ، وكذلك الغزل المذكور ، الذى ظهر فيما تقدم فى بعض أبيات أخرى من شعر ، فهو وليد الأندلس ، وقد طرد الخليفة عبد المؤمن من حاشيته من سمعه يذكر بيتا فى ذلك ، وأقصاه

الى الأبد وحذر من مخالطته ، وأمر بمجانبته . وكان المرابطون قبله أقسى منه فى معاملة هؤلاء الشذاذ ، وفى مقدمتهم ابن خاقان .

ومن الاشعار التى أوردها أخوه فى ترجمته له بكتابه الاشادة ونقلها المقرى أيضا ، قوله من مطلع قصيدة فى مدح هذا الوزير ابن الحكيم :

ملكت رقى بالجمال فأجمل — وحكمت فى قلبى بجورك فاعدل
أنت الامير على الملاح ومن يجر — فى حكمه الا جفونك يعزل
ان قيل أنت البدر فالفضل الذى — لك بالكمال ونقصه لم يجهل
لولا الحظوظ لكنت أنت مكانه — ولكان دونك فى الحضيض الاسفل
عيناك نازلتا القلوب فكلها — اما جريح أو مصاب المقتل
هزت ظباها بعد كسر جفونها — فأصيب قلبى فى الرعيل الاول
ما زلت أعذل فى هواك ولم يزل — سمعى عن العذال فيك بمعزل
اصبحت فى شغل بحبك شاغل — عن أن أصيخ الى كلام العذل
ام أهمل الكتمان لكن أدمعى — هملت ولو لم تعصنى لم تهمل
جمع «الصحيحين» الوفاء مع الهوى — قلبى وأملا الدمع « كشف المشكل »

ومن التعابير المكررة فى شعره البيت :

« أصبحت فى شغل بحبك شاغل — عن أن أصيخ الى كلام العذل »

فقد سبق له :

« فى الراح والريحان شغل شاغل — لى عن عيافة بارح وسنيح »

أما فى البيت الاخير فيورى بكتابين ، فى الحديث ، وهذه التوريات ضلع فيها السبتيون ، وفى مقدمتهم القاضى عياض .

قال ابن القاضى فى جذوته : ومما وجدته فى خطه وكأنه له :

متى لاح حسن ظباء القصور — اقرت ظباء الفلا بالقصور
ومن للظباء بتلك العيون — وتلك الثغور وذاك الفتور
وكم بين من لاحهن الهجير — ومن لا يلحن بغير الخدور
اتعجب من ميل تلك الغصون — وقد أثقلتها ثمار الصدور
وقد طربت لغناء الحلى — فباحت بمكنون ما فى الضمير

ومن أدباء العزفيين الامراء الرؤساء محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن أحمد ترجم له ابن الخطيب فى الاحاطة وساق جملة من شعره ، فمن ذلك قوله :

افديـــك ياريـــح الصبـــا ... عوجـى عـلى تلـك الربــى
واحـدى النعامـى سحـرة ... ترسـل غمامـا صيبـا
ثـم ابلغـى ياريـح عـن ... صـب سلامـا طيبـا

وقوله فى قـاض :

وليـت بفـاس أمـور القضـا ... فأحدثـت فيهـا أمـورا شنيعـه
فتحـت لنفسك بـاب الفتـوح ... وغلقـت للنـاس بـاب الشريعه
فبـادر مولـى الـورى فـاس ... بعزلـك عنهـا قبيـل الذريعـه

وله من قصيدة طويلة جميلة فى مجالس اللهو والشراب فى الرياض :

دع عنك قول عواذل ووشـاة ... وادر كؤوسـك يا أخـا اللـذات
واخلع عذارك لاهيـا فى شربهـا ... واقطع زمانـك بـين هاك وهـات
خذهـا اليك بكـف ساق أغيـد ... لـين المعطـاف فاتـر الحركـات
قد قـام مـن ألحاظه انسانهـا ... متثائبـا فى فتـرة اللحظـات
يسقيكها حمـراء يسطع نورهـا ... فى الكـأس كالمصبـاح والمشكاة
رقت وراقت فى الزجاجـة منظرا ... لما غدت تجلـى عـن الراحـات
لا تمزجنـا فى الابـارق انهـا ... تبـدو محاسنها لـدى الكاسـات
عجبا لها كالشمس تغرب فى فـم ... لكـن مطالعهـا مـن الوجنـات
نلنـا بهـا ما نشتهيه مـن المنـى ... فى جنة تزهـى علـى الجنـات
رفت عليها كل ظـل سجسـج ... مـن كل غصن يانـع الثمـرات
ما بـين خضر حدائـق وخمائـل ... وجداول تفضى الـى دوحـات
وسرى النسيم بها يصافح زهـره ... فيهـب وهـو مؤرج النفحـات
وشدا لنا فيهـا مغـن شـادن ... حـاز المـدا سبقا الى الغايـات
طربت له القضب اللدان وبادرت ... رجعا لـه تختـال فى الحبـرات
مـرت عليـه ركعـا لكنهـا ... جعلـت تحيتهـا لـدى الركعـات
قصـرت صـلاة الخوف منه فقربت ... قربانهـا حفتـه بالزهـرات
والعـود مثنـاه يطابـق زيهـا ... فى رد أنـات عـلى رنـات

وهى قصيدة مقلدة لابى نواس حتى فى بعض تعابيرها مثل واقطـع زمانك بين هاك وهات ، ويوخذ عليها استعمال « سجسج » المتعب لها ، ثم استغلال قوله تعالى « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » كما أنه استغل فى بيتين منها معلومات تتعلق بالصلاة ولم يكن هذا غريبا فى عهده لـدى الناس عامة ·

وله قصيدة أطول من هذه ذكـرت بالاحاطة كذلـك · وهى احـدى مولديات العهد المرينى التى كانت تنشد بحضرتهم وينال ذكرهم الحـظ الاوفى منها يقول فيها :

اذا لم اطق نحـو نجد وصـولا	بعثـت الفـؤاد اليهـا رسـولا
وكـم حـل قلبـى رهينـا بهـا	غـداة نـوى الركـب فيها نزولا

ويستمر على هذا النمط التقليدى وينتقل الى ذكر ميلاد الرسـول وشمائله الكريمة ثم يتخلص لمدح الملك المرينى أبى سالم بن أبى الحسن فيقـول :

هـو المستعـين أبو سالـم	مليـك ترفـع قـدرا جليـلا

الى ان يقول :

وحاز من الذكر صيتـا اثيـرا	ومن كـرم الخيـم مجـدا اثيـلا
سليـل علـي غمـام النـدى	الا أيـد الله ذاك السليـلا
فتى أوسـع النـاس مـن جوده	عطـاء جزيـلا وبرا حفيـلا

ثم يقول :

أطاعـت لـه حين وافى البـلاد	رضـى عندمـا حل فيها حلـولا
وجـاء لطاعتـه أهلهـا	سـراعا يرومـون فيها الدخـولا

الى قوله :

وراع لمـن جـاءه داخـلا	حمـاه مـن القاصديـن الدخولا
فكـان بأفعالـه قصـده	الـى منهـج الفضل قصدا جميلا

وختمها بقوله :

ولا بـرح السعـد فى بابـه	يـؤم بـه مربعـا أو مقيـلا

وهى قصيدة فى منتهى التواضع الذى يكاد يجعلها فى منصة النظم الذى يحاوله المتمرسون أو أشباههم من المبتدئين وأنصاف المتعلمين . شتان ما بينها وبين سابقتها ، على ما بها من تقليد ارتفعت بأجنحته الى شرفات أطل منها أبو نواس كما قانا ، وربما حتى ابن هانىء الآخر الذى نحس بصدى مطالعه الخمرية المعروفة فى بعض أمداحه للفاطميين ورجال دولتهم .

ومن أدباء البيت العزفى - كذلك - الرئيس أبو القاسم محمد بن يحيى ، بن أبى طالب ، القائل ، وقد أراق دواة فى محفل جليل :

الا ياكرام الناس غضوا جفونكم   فانى من الفعل القبيح مريب
هرقت دواة وهى كالكأس بينكم   وللأرض من كأس الكرام نصيب

قال فيه المقرى فى أزهاره ، انه كان شاعرا مكثرا ، مليح الفكاهات ، وشاحا ، وقد بز أهل زمانه فى الموشحات .

كذا يقول ، ولكننا لا نعثر من شعره الا على هذين البيتين ، ولا نعرف من موشحاته شيئا ، فقد ضاعت كما ضاعت موشحات الاغماتى أبى حفص قبله ، ولم تعرف لنا منها الا بيتان سلفت الاشارة اليهما بالذكر (1) .

وهناك أديب آخر من هذا البيت ، وهو أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد .

ويلاحظ على أولئك العزفيين أنهم كانوا متقاربى الوفاة ، ولكن آخرهم كان هذا الذى تأخرت به الى عام ثمانية وستين وسبع مائة . وقد ولد بسبتة عام تسعة وتسعين وستمائة ، وكان كسلفه مشاركا فى عدة فنون

وكان قد بويع له بالامارة ، بعد أبيه ، عام تسعة عشر وسبعمائة ، ثم خلع فى عام عشرين ، ونقل الى العاصمة فاس ، حيث تولى الكتابة لبنى مرين ، وركن الى العافية والداعة ، وزهد فى تولى المناصب الكبرى

---

1) وكان ابنه محمد من الشعراء كذلك أورد له ابن القاضى ، ناقلا عن « نثير الجمان » من قصيدة أنشدها لابن الاحمر فى مدح عبد العزيز بن أبى الحسن المرينى ، أربعين بيتا ، مطلعها .

حن المشوق الى ديار أحبته   فسقى الثرى شوقا لذاك بدمعته

فى الحكم ، فقد اراده ابو عنان ، لتولى عمالة قسنطينة فاعتذر وبقى بالحضرة المرينية ، وبها توفى فى أواخر القرن السابع .

ومما يجدر ذكره أن البيت المرينى كان يساهم بنفسه فى الحركة الأدبية فالامير عبد الواحد بن يعقوب يقرض الشعر ، ويقول فى الافتخار ، كما قيل :

فرقت فى الميدان كل مليك	وجمعت بين جراءة ونسوك
وجعلت للاسلام حدا مالكا	كيلا يغيره العدا بسلوك

ويقول كذلك :

اجود بمالى لكل العفاة	واقتحم الهول فى المعضلات
اقود الجيوش واصلا الحروب	واقتطف الهام بالمرهفات
واحمى ثغورى من ان تنال	واغزو وانهب ارض العداة

وتلاهم آخرون ، كانوا يحبرون النثر ويقرضون الشعر كذلك ، مثل عمر بن عثمان بن يعقوب ، وابنه ابى الحسن ، وولدى هذا ، ابى عنان وابى فارس ، ثم ابى العباس احمد بن أبى سالم ، وغير هؤلاء من السلاطين والملوك .

فمن شعر عمر بن عثمان قوله مخاطبا السلطان ابا الحسن :

فلا يغرنك الدهر الخئون فكم	أباد من كان قبلى يا أبا الحسن
الدهر مذ كان لا يبقى على صفة	لابد من فرح فيه ومن حزن
اين الملوك التى كانت تهابهم	أسد العرين ثووا فى اللحد والكفن
بعد الأسرة والتيجان قد محيت	رسومها وعفت عن كل ذى حسن

ومن شعر ابى الحسن المذكور :

ارضى الله فى سر وجهر	وأحمى العرض من دنس ارتياب
واعطى الوفر من مالى اختيارا	واضرب بالسيوف طلا الرقاب

ومن شعر أبى عنان :

يا راميا بالنبال من غنج	وصائلا بالنصال من دعج
وباديا كالهلال فى سجف	وطافحا من سلافه القلج

ومن شعره كذلـــك :

يا ملمــا بــأرض تلــك البــلاد — حــى فاسا وحــى أهــل الوداد
ان تناءت بشخصهــا عن عيــان — فحماهــا مصــــور فى فـــؤاد

ومـــن ذلـــك قولـــه :

واذا تصـــدر للرياســـة خامـــــل — جرت الامور على الطريق الأعوج

وقوله وقد راى بعض المتصلحين :

تراهـــم فى ظواهرهـــم كرامــــا — ويخفــون المكيــــدة والخداعــا

ومن شعر اخيه عبد العزيز هذان البيتان المتواضعان :

وارغـــب خالقـــى فى العفو عنـــى — واطلـــب حلمه يـــوم العقـــــاب
وارجـــو عونـــه فى عـــز نصـــر — عـــلى الاعداء محـــروس الجناب

ومن شعر ابى العباس احمد بن ابى سالم ، هذان البيتان الرقيقان :

يا فاس انى وايم الله ذو شغــف — بكــل ربـــع به مغنـــاك يسبينـــى
وقد انســـت بقرب منـــك يا أملى — ونظـــرة فيـــك بالانسان تحيينـــى

وله أيضا هذه الابيات التى تفوق فى رقتها البيتين السابقين :

أما الهـــوى ياصاحبـــى فألفتـــه — وعهدته مـــن عهد أيـــام الصبـــا
ورأيته قـــوت النفـــوس وحليهـــا — فتخذتـــه دينـــا الـــي ومذهبـــــا
ولبســـت دون النـــاس منه حلـــة — كـــان الوفـــاء لـــه طرازا مذهبا
لكـــن رأيت لـــه الفراق منغصا — لا مرحبـــا بفراقنـــا لا مرحبـــا (1)

ومن مظاهر نشر الثقافة والآداب ، بفضل تشجيعهم ، ما ظهر بـــه عبد العزيز الملزوزى ، من شعر يتصل بهم وبأجدادهم ثم ما كان من ابى سعيد عثمان بن يعقوب الذى يرجع اليه الفضل ، فى ظهور كتابين ، على ساحة التاريخ المغربى ، أعتبرا فيما بعد أهم مصادره الاولى ، هما الانيس المطرب بروض القرطاس ، والذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية

1) وله مطارحات مع على ابن الخطيب كما فى النفح .

أما الانيس فهو لابن ابى زرع ؛ ابى الحسن على ، أو ابى العباس احمد ، على الخلاف بين الذين ذكروه فى كتبهم عرضا ، ولكن غمرته هذه ، لم تمنع من وصفه بالشيخ الكبير والامام الخطيب البليغ الواعظ الورع الزاهد الولى الصالح العلامة المدرس المفتى ، قدمه أصحاب الراى العام بفاس ، للامامة بجامع القرويين فيها ، فتولاها ، ثم كان ضمن رجال السلطان ابى الحسن حين كانت كارثة طريف بالاندلس ، فاستشهد فيها سنة احدى وأربعين وسبع مائة .

أما الكتاب ، فكان قد انتهى منه عام ستة وعشرين وسبعمائة ، بداه بالكلام على دولة الادارسة بناة مدينة فاس ، واستمر فى ذكر أمرائهم ومآثرهم ، الى ان انتقل أمر فاس ودولتها الى زناتة المغراويين ، ثم ما كان منها الى دولة تميم اليرفرنى ، ورجوع المغراويين من بعده حتى العهد المرابطى ، الذى جاء اثر الفتن التى كانت بين المغراويين وبنى يفرن ، وأثر ذلك فى انقسام الحكم فى المغرب ، زيادة عن أولئك البرغواطيين ، الذين طال حكمهم على بسيط تامسنا ، وكان من سلالتهم ، سقوط وابنه حاكما سبتة وطنجة ، وان لم يكونا على عقيدتهم ، فقضى المرابطون على هؤلاء جميعا ، بعد قتال عنيف (1) .

وقد أطال المؤلف فى هذه الدولة اطالة محمودة تعتبر حتى الآن أهم المصادر وأوفاها ، لهذه الدولة ، ثم اتصل بالموحدين فتناولهم تناول المؤرخ الثبت . وبعدهم اتصل بالمرينيين ، فأفاض فيهم ، وشغل كلامه عنهم ، ثلثى قرن من قيامهم ، أو ما يعادل نصف هذه الدولة ، تقريبا ، وهو نصف يتسم بالقوة والسيادة المطلقة .

لقد كان من أهم مصادر المؤلف فى هذه الدولة ، الملزوزى فى ارجوزته التاريخية ، فاستشهد بنصها أحيانا .

أما فاس وتأسيسها وأحداثها العديدة ، فان المعلومات التى توجد بهذا الكتاب ، يكاد يستقل بها عن غيره ، فى جلها ، وكان أفقه التاريخى واسعا ، اذ نجده يحيل على كتاب الاكليل للهمدانى فى الدولة الحِمْيَرِيَّة

---

1) انظر كتابنا « تاريخ سبتة » .

ويبدو أن المؤلف كان يهتم بالمدن المغربية وتاريخها ، ولهذا نجده يذكر أنه تناول تاريخ طنجة ، فى كتابه « الكبير المسمى بأزهار البستان فى اخبار الزمـــان » .

ومن مصادره أو مراجعه فى فاس ، كتاب تاريخ مدينة فاس لابى القاسم بن جنون . وفيما عدا هذا التشوف لابن الزيات ، وكتاب الاستبصار وكتاب جلاء الاذهان لابن البان ، وكتاب المن بالامامة لابن صاحب الصلاة ، وكتاب المقباس ، لعبد الملك الوراق ، وكتاب ميزان العمل ، لابى على ابن رشيق ، وكتاب القبس لابن الفياض وكتاب الممالك للبكرى الجغرافى وكتاب البرنسى التاريخى ولا نعرف من هذه جميعا ألا قطعة صغيرة مـــن كتاب المن بالامامة ، وكتاب التشوف وكتاب الممالك للبكرى وكتـــاب الاستبصار الذى لا يعرف مؤلفه حتى الآن .

وكذلك البرنسى الذى تردد ذكره ، فيمن « اعتنى بتاريخ أيام الادارسة » على شهرته ، يعد كتابه ضائعا . وبما أن كتاب البكرى الجغرافى فيـــه معلومات تاريخية مفيدة ، فقد جعله المؤلف « ممن اعتنى بتاريخ أيـــام الادارسة » .

هذا ما يتصل بموضوع الكتاب ، على العموم ، وبما اعتمد عليه فى تأليفه صاحبـــه .

اما أسلوب المؤلف ، فنلتمسه أولا فى المقدمة التى يقول فيها :

اما **بعد** ، أطال الله بقاء مولانا الخليفة الامام ، معلى الاســـــلام ورافعه ، ومذل الكفر وقامعه ، تاج العدل وناشره ، وماحى الظلـــم وهاتكه ، ملك الزمان ، وسراج الاسلام والايمان ، امير المسلمين ابوسعيد عثمان ، ابن مولانا الامام المظفر المنصور ، الملك العابد الزاهد المذكور ، الذى تقدم بكل فضيلة وسبق ، الامام العادل القائم بالحق ، امير المومنين أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق ، نصره الله وأعلى كلمته ، وأيده وخلد ملكه وأيمانه ، وفسح له فى البلاد شرقا وغربا ، وأوطأله رقاب الاعداء سلما وحربا ، وفتح على يديه الفتح المبين ، وجعل الخلافة « كلمة باقية فى عقبه

الى يوم الدين ، ولا زال للخلافة يحيى آثارها ، ويجدد اظهارها ، ويرفع منارها ، ويجلو أنوارها ، والسعد مخيم بفنائه وعتباته ، والنصر مقرون براياته ، وقلوب الامة مجتمعة على طاعته ومحبته ، ما محا النور الظلم ، وغنى الحمام على غصن وترنم .

لا زال يحمى حمى الاسلام مجتهدا في الحق ينظـر للدنيا وللديـــن
ينال ما شاء مـن دنياه قاصـده يغنى ويعطـى عطاء غير ممنـون

وانى لما رايت مكارم دولته السعيدة ، أطالها الله وخلدها ، وأعلى كلمتها وأيدها ، تنظم نظم الجمان ، وسور محاسنها تتلى بكل لسان ، وغرر انوارها تلهى عن الغزل ، وتسير سير المثل ، أردت خدمة جمالها ، والتقرب الى كمالها ، والتفيأ بظلالها ، والورود من عذب زلالها ، بتأليف كتـاب جامع للطيف الاخبار وملح الآداب ، يحتوى على غرر التاريخ وعجائبه ، ونوادر الاثر وغرائبه ، يخبر بنبذ من اخبار ملوك المغرب المتقدمين ، وأمرائه الماضين ، وأممه السالفين وتاريخ أيامهم ، وذكر انسابهم ، واعمارهـم وسيرهم ، وغزواتهم واحوالهم فى دولتهم ، وما رسموه بالمغرب مـن المراسم ، وصنعوا من المصانع والمعالم ، وفتحوا من البلاد والاقاليم ، وبنوا من الحصون والمدن والمكارم ، وأذكرهم اميرا بعد امير ، وملكا بعد ملك ، وخليفة بعد خليفة ، وأمة بعد امة . على حسب تواليهم فى اعصارهم ، ومراتبهم فى دولتهم وأزمانهم ؛ كما وقع فى الزمان ، من أول دولة الامام ادريس بن عبد الله الحسنى الى هذا الاوان . ابذل فيه جهدى ، واظهر جلدى ، بقدر الوسع والامكان ، ومساعدة الزمان . فاستخرت الله تعالى فى تأليفه ، واستعنته فى تقييده ، فسهل الله تعالى ما أردته من ذلـك ويسره ، بفضله وبركـات مولانـا أمير المومنـين ، الظاهرة الباهـرة فألفت هذا المجموع المقتضب ، انتقيت جواهره من كتب التاريخ المعتمـد على صحتها ، والمرجوع اليها . سوى ما رويته عن أشياخ التاريخ والحفاظ والكتاب ، وقيدته عن الرواة الثقات الانجاب . وحذفت فيه الاسناد خيفة الاكثار والامتداد ، مع الميل الى ترك الاسهاب والتطويل ، وتجنب الاختصار والتقليل . وجعلته كتابا مخرجا على التوسط ؛ فهو خير الامور . ومعتمدى فى ذلك على ما رواه الجمهور ، عن النبى صلى الله عليه وسلم من الحديث المأثور ، اذ قال يؤدب أمته ويبسطها (خير الأمور اوسطها) .

وسميته « الانيس المطرب بروض القرطاس ، فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » .

والله سبحانه يعصمنا من الزلل ، ويجنبنا الخطأ فى القول والعمل ، ويبلغ السؤال والأمل ، ويبقى لنا امير المسلمين تعلو على الدولات دولته ، وتمضى فى الاعداء صولته ، منصورة أعلامه ، محمودة أيامه ، لا رب غيره ، ولا خير الا خيره .

فهذه المقدمة من حيث النسج مهلهلة ، بنحو « تاج العدل وناشره » « وجعل الخلافة كلمة باقية فى عقبة الى يوم الدين ، ولا زال للخلافة يحيى آثارها . » ويلاحظ أنه ضمن ذلك اقتبس من القرآن » وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون » ثم يأتى قوله « وغرر مآثارها وبركاتها تشرق بكل ناحية ومكان ، وغرر أنوارها تلهى عن الغزل » ثم تتكرر كلمة غرر فى قوله بعد « يحتوى على غرر التاريخ وعجائبه » وكذلك تكرر مكارم فى قوله « لما رأيت مكارم دولته » « وبنوا من الحصون والمدن والمكارم » . وكذلك البركات فى قوله « وبركاتها تشرق بكل ناحية ومكان » و « يسره بفضله وبركات مولانا » . فهذا مما ينبىء عن فتر فى الأسلوب ، والبيتان اللذان هما من نظمه — كما نظن — ليسا على مستوى رفيع فى الشعر .

وتبقى اهمية المقدمة فى تخطيط الكتاب ومنهجه ومضمونه ومسنده ، فهو كتاب جامع لتاريخ ملوك المغرب فى اقتصاد ، يخبر عن الماضين الى الحاضرين ، على التوالى ، أميرا بعد امير وملكا بعد ملك وخليفة بعد خليفة ، مع ما لهم من الآثار القائمة والمكارم الحميدة ، وغزواتهم المظفرة وفتوحاتهم الواسعة . مطعما كل ذلك بلطيف الأخبار وملح الآداب ، ومعتمدا فيه على الكتب القيمة ، والرواية الصحيحة ، عن أشياخ التاريخ والحفاظ والكتاب ، والرواة الثقات الانجاب ، بحذف الاسناد والتوسط فى ذلك .

يضم الى هذا ما تنبىء عنه التسمية ، بكون فاس بصفة خاصة ، لها نصيبها الاوفى فى هذا التأليف ، لأنها عاصمة المغرب الاولى ، وموطن دولته الباكرة باستقلالها ، ثم لانها مدينة المؤلف ، وعاصمة سلطانه أبى سعيد ، فكان روض القرطاس ممعنا فى هذا .

وبعد فلننظر الى النصيب الادبى فى الكتاب ، وهو جانب لا يختلف فيه عن غيره من التواريخ الاسلامية ، كمروج الذهب والكامل فى المشرق ، وكتاب المعجب والبيان المعرب فى المغرب ، وان كانت النسب تختلف بين هــذه جميعا .

فمن أولها خطب الجمعة والأشعار التى قيلت فى العهد الادريسى ، منسوبة اليهم والى غيرهم ، أعنى الادارسة ورجالهم كادريس الثانى ، الذى افتخر ببيتين ، ووجه أربعة أبيات الى بهلول بن عبد الواحد المدغرى ، كما خطب خطبته الاولى عند بيعته ، بل يذكر حتى ما صدر عن غير هؤلاء ، كالأبيات المنسوبة الى ابراهيم بن الاغلب ، يخاطب بها الرشيد العباسى عند اغتيال راشد ... وبعد ذلك يذكر أبياتا وردت فى مدح فاس ، ليوسف ابن النحوى ، وأبى عبد الله المغيلى .

ومن ملح الاخبار ما رواه فيما جرى بين خطيب القرويين الشــاب عبد الله بن موسى المعلم والخليفة الموحد محمد الناصر فى قصره الذى كان على وادى فاس .

ومن الأشعار التى ساقها ، ما قاله الفقيه الكاتب محمد بن حامد ، فى يوسف بن تاشفين :

ملك له شرف العــلا من حميــر	وان انتموا صنهاجــة فهم هــــم
لمــا حووا أحواز كـل فضيلــة	غلــب الحيــاء عليهــم فتلثمــوا

ثم أتى بنص الرسالة التى وجهها يوسف الى المغرب من الاندلس ، اثر موقعة الزلاقة المظفرة ، كما أتبع ذكرها ، ببيتين ؛ لابن اللبانة أحدهما ، ولابى جهور الآخر فى ذكر يومها ، وهو الجمعة هكذا ، الاول منهما ثــم الثانــى :

يــوم العروبــة كــان الموقــــف	وأنا شهدت فأين من يستوصــف
لم تعلم الروم اذ جاءت مصممــة	يوم العروبــة أن اليــوم للعــرب

وأتبعهما ببيتين للمعتمد ، وجه بهما نحو ابنه أبــى هاشم ، فقال :

أبا هاشــم هشمتنــى الشفــــار	فللــه صبــرى لـــــذاك الأوار
ذكــرت شخيصــك مــا بينهــــا	فلــــم يثننــى ذكــره للفــــرار

وفى تحصين عبد الله بن بلكين لبلده دفاعا للمرابطين ، قال بعضهم :

يبنـــى عـــلى نفســـه سفاهـــــا كأنـــــــه دودة الحريــــــــر
دعـــوه يبنـــى فســــوف يــدرى اذا اتـــت قـــدرة القديـــــر

ثم ذكر للزاهد أبى جبل ، يعلا الفاسى ، عن « التشوف » ثلاثة ابيات ، فى السفر والسياحة ، تقدم ذكرها .

وعند انتقاله الى الموحدين ، بدأ بذكر الأبيات ، التى ترددت بـــين المهدى والطيف الذى رآه فى المنام قبيل وفاته بيسير ، وما كان يقوله المهدى لعبد المومن ، فى البيتين المعروفين ، ثم الأبيات الاربعة التى قالها الشاعر الحسن الأشيرى ، عند حادثة الاسد الذى بصبص بين يدى عبد المومن ، وهو بمكانه قاعدا لا يتحرك ، أولها :

انـــس الشبـــل ابتهاجا بالأســـد ورأى شبـــه أبيـــه فقصـــد

وبعد هذا ما صدر عن أبى جعفر بن عطية فى استعطاف عبد المومن ، من شعر ونثر ، ثم ذكر شعرا لابى عمران بن عبد المومن مجيبا به القاضى حجاج بن يوسف ، فما جرى من شعر بين ابن عطية وعبد المومن ٠

وهكذا يأتى بالقطع ثم القصائد فى العهد المرينى ، كالتى كتب بها ابن اشقيلولة الى يعقوب (وهى لسليمان الموحدى) وكبائية الملزوزى ٠

نكتفى بهذا العرض الخفيف لكتاب الانيس المطرب بروض القرطاس ونتناول بعده الكتاب الثانى ، الذى ألف لابى سعيد عثمان بن يعقـــوب المرينى ، فى التاريخ ، وهو كتاب « الذخيرة السنية فى الدولة المرينية » .

هذا الكتاب لا يوجد كاملا ، بل الموجود ينتهى عند سنة تسع وسبعين وستمائة ، على حين انتهى روض القرطاس عند ستة وعشرين وسبعمائة .

ثم انه لا يعرف مؤلفه على التحقيق ، وكل ما فيه على سبيل الحدس والتخمـــين .

نعم ، ان مقدمته فيها فقرات من مقدمة « روض القرطاس » . وهذا ليس برهانا قاطعا على كون مؤلف القرطاس هو مؤلف الذخيرة ، كمـــا قال بعضهم ، وقطع بذلك استنادا على ما هنالك ، وتبعه من التابعين الماخوذين

لان تلك الفقرات أصبحت — كما يبدو — « كليشى » لهؤلاء « المقربين » فيمكن أن يكون مؤلف هذا اطلع على كتاب القرطاس ، فأخذ منه الفقرات ولم يذكر به البتة . وان كان كتاب الانيس المطرب بروض القرطاس ، لم يذكر كذلك بالذخيرة . وتقدم أن الاول فيه ذكر لعديد من الكب التاريخية والجغرافية كما ذكر غيرها لآخرين بل للمؤلف نفسه ، مثل كتاب « البستان فى أخبار الزمان » فهو من هذه الناحية الزمنية كما قلنا متأخر عنه قطعا ، والا لأحيل عليه بالانيس — عادة — فى مناسبة ما ، خصوصا انه أوفى فى موضوعه وأكثر تفصيلا ، فى الدولة المرينية ، كما هو فى العنوان .

ومن المفيد أن نعرض مقدمة الكتاب ، لنقارن بينها وبين مقدمة القرطاس ، ولنطلعنا على مثال من نثر المؤلف كذلك ، وهى :

أما بعد أطال الله بقاء مولانا الملك الرفيع ذكره وقدره ، البديع شرفه وفخره ، الطيب أصله وفرعه ، الزكى شخصه وصنعه ، المنيف حسبه ونجاره ، الكريمة مآثره وآثاره ، الذى لا توازيه الجبال رجاحة ، ولا تباريه الرياح سماحة ، ولا يضاهيه الصباح طلاقة وساحة ، ولا ترومه الملوك بسالة وسياسة ، ولا تجاريه بجالة وسياسة ، ولاتساميه علوا ونفاسة ، ولا تقل الارض أسعد منه جدا ، ولا أثبت زندا ، ولا أحضر فهما ، ولا أمضى عزما ، ولا أعدل حكما ، ولا أرجح حلما ، ولا أغزر كرما ، ولا « خيرا منه زكاة وأقرب رحما » . القائم بأمر الدنيا والدين ، والقامع لطغاة المفسدين ، الذى أشرق بجبين خلافته الزمان ، وسعد بها العباد واضاء الأوان ، وتمهدت ببركة دولته الاقاليم وتأمنت البلدان ، وشهدت بعلو شأنه وجلال سلطانه الآثار والاعيان ، الامام العادل الرشيد ، والملك المنصور السعيد ، أمير المسلمين ابو سعيد ، ابن مولانا الملك الامام ، ناصر دين الاسلام ، ومبيد عبدة الاصنام ، المؤيد المظفر المنصور ، الصالح العابد المجاهد المبرور ، الهمام القائم بالحق ، أمير المسلمين أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق ، أمتع الله الدين والدنيا باتصال أيامهم ، ودام ملكهم وسلطانهم ، وأعان الامة على القيام بطاعتهم ، وتعزيزهم واعظامهم ، وفتح لهم فى البلاد شرقا وغربا ، وأوطأ لهم رقاب الكفار والاعداء سلما وحربا ، وفتح لهم وعلى أيديهم الفتح المبين ، وجعل الخلافة « كلمة باقية فى عقبهم الى يوم الدين » .

لا زال ملكهم فى رفعة وعلا   وسعدهم بمدى الأيام موصول
يفنوا العدا ويقيموا الدين من أود   وسيف نصرهم لله مسلول

وانى لما رايت الخلافة العبد الحقية العثمانية باهرة ، وغرر مآثرها الكريمة على أوجه محاسنها سافرة ، واخبار مكارمها ومآثرها تنظم نظم الجمان ، وسور فضائلها تتلى بكل لسان ، وشموس عوارفها وأنوار محامدها تشرق بكل افق ومكان ، اردت خدمة جلالها ، والتقرب الى كمالها ، والتفيأ بظلالها ، والورود من عذب زلالها ، بتأليف كتاب أورخ فيه أيام الدولة السعيدة المرينية العبد الحقية ، اخلد فيه محاسنها ، واسطر مآثرها ، واذكر غزواتهم وفتوحاتهم ومناقبهم الجميلة وآثارهم ، وما رسموه من المراسم ، وبنوه من المدائن وفتحوه ، من البلاد ، وما ملكوه من الاقاليم ، وما وقع من الحوادث فى الوجود فى أيامهم . معتمدا فى جميع ما اذكره من ذلك على ما شاهدته وقيدته ، وما رويته عمن أثق به من الاشياخ والثقات ، من اهل العلم بالتاريخ ، وايام الناس والمعرفة بالانساب ، ونسجته على عشرة أبواب :

الباب الاول فى ذكر بنى مرين وقبائلهم ونسبهم الصريح ، ونجارهم العالى الصحيح ، ودخولهم المغرب ، وظهور ملكهم السنى المعجب .

الباب الثانى فى ذكر الامير الصالح أبى الاملاك أبى محمد عبد الحق بن محيو وسير أولاده وفضله .

الباب الثالث فى ذكر الامير أبى سعيد عثمان بن عبد الحق .

الباب الرابع فى ذكر الامير أبى معرف محمد بن عبد الحق .

الباب الخامس فى ذكر دولة الامير الاجل ابى يحيى بن عبد الحق .

الباب السادس فى خلافة أمير المسلمين وناصر الدين ، الملك القائم بالحق ، يعقوب بن عبد الحق .

الباب السابع فى خلافة أمير المسلمين يوسف ابن أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق .

الباب الثامن فى خلافة أمير المسلمين عامر ابن الامير عبد الله ابن أمير المسلمين يوسف ابن أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق .

الباب التاسع فى خلافة أمير المسلمين سليمان ابن الامير عبد الله المذكور ابن أمير المسلمين يوسف .

الباب العاشر فى خلافة ملك الزمان ، وسراج الاوان ، الامام السعيد ، الخليفة العادل الرشيد ، أمير المسلمين أبى سعيد عثمان ابن مولانا أمير المسلمين المنصور القائم بالحق ، يعقوب بن عبد الحق ، أطال الله أيامه ، وخلد ملكه ونصر أعلامه ، وأمضى فى الأعادى سيوفه وأقلامه ، بمنه وطوله .

ففى الجمل الدعائية تشابه بينها وبين ما فى القرطاس ، كما ان الاوصاف فيها بعض من ذلك ، ولكن الحمدلة هنا فى جملة واحدة ، وفى مقدمة القرطاس طويلة مسهبة اسهابها فى التصلية على النبى وآله وأزواجه والتابعين لهم باحسان ، مما يطول بسرده الكلام .

ثم ان نظام الابواب هنا ، لا وجود له فى تلك وجلها مقام على الافراد وتسلسلهم فى السلطان ، ولعل هذا نتج عن التركيز فى الذخيرة على دولة بمفردها ، بخلاف القرطاس الذى شمل دول المغرب ، منذ الادارسة الى أواسط الدولة المرينية ، فكان نظام السرد فى الاول ، ونظام التبويب الشخصى فى الثانى .

والمصادر والمراجع الواردة فى القرطاس ، لا يذكر منها فى الذخيرة الا تاريخ مدينة فاس لابن جنون ، وارجوزة الملزوزى والتشوف .

وبالرغم من أن الذخيرة لم يشر الى الناحية الأدبية منها فى المقدمة ، فانها فى الواقع أطول نفسا فيها ، بالنسبة الى القرطاس .

هذه أشياء الى جانب غيرها ، تجعلنا فى شك من أمر المؤلف الذى كتب الذخيرة ، والغالب أنه كان من رجال الدولة ، حيث تأتى له الاستناد على مشاهدته فى ذكر أخبارها ، كما تقدم له . وطابع التزلف فيها اقوى منه فى روض القرطاس ، مما يزيدنا قوة فى استظهارنا السالف وان تشابهت الارادة فيهما .

وعلى كل حال ، فالمؤلف لا يهم بقدر ما يهم كتابه ، الذى كان ضمن حلبة المؤلفات فى التاريخ المغربى ، أوائل القرن الثامن ، كما أن مادة التاريخ وحدها ، لا تهمنا فيه بقدر ما تهمنا مادة النصوص الأدبية فيه ، وهى تبتدى ببيتين للمؤلف سبق ذكرهما . يلى ذاك بيتان آخران له فى الاشادة ببنى مرين كذلك ، وهما :

هـــم نصروا دين الاله واظهــروا ... على الدين والدنيا من الحق رونقا
بملكهــم قــد اخمــد الله للعــدا ... ومن عدلهم ضاء الزمان واشرقــا

ثم بيتان ، ثلاثة أشطار منهما لسليمان الموحد ، فى أول قصيدة ذكرت بديوانه ، والبيتان هكذا :

لا يسلمون الى النوائب جارهــم ... يوما اذا اضحى الجــوار يضيــع
لهم الرياسة والشجاعة والنــدى ... واللــه يعطى مــا يشاء ويمنــع

ولم يرد ذكر لصاحبهما فى الكتاب ، وبدل الشطرة الثالثة ، جاء فى ديوان أبى الربيع :

« هيهات سر الله أودع فيهــم »

وقد تعرض ابو الربيع ، السطو على قصيدة له أخرى ، كانت فى مدح المنصور ، فنسبت لابن أشقيلولة ، موجهة للمنصور المرينى ، كما ذكرت فيما مضى بالقرطاس ، وكأن الشطرة « لهم الرياسة والشجاعة والندى » انبثقت من قول الموحد « لكم الهدى لم يؤته الا كم » وهذا من البيــــت المتصل مباشرة بالبيتين المذكورين له .

وكذلك وردت أبيات ثمانية فى الاشادة ببنى مرين ، لم يذكر صاحبها ، الا بقوله « ولله در القائل فى مدح حسبهم الصميم » ثم بيتان لمالك بــن المرحل ، فى مدح يوسف بن يعقوب . وقد ظفر ابن المرحل بنصيب من شعره ذكر بهذا الكتاب ، فيما بعد .

أما البيتان فهما :

انتــم لابنــاء عبد الحــق كلهــم ... فخر وهم للورى فخر اذا افتخــروا
فحسبكم شرفــا أن كان جدكــم ... بر بن قيس وقيــس جده مضــر

وفى هذا النسب ، اتى بأبيات لبعض ادباء زناتة الذين سكنوا الاندلس ، يرفع نسبهم الى قيس عيلان (1) .

وفى ذكر ابنى خندف تعرض لأنساب تتصل بهم ، كما تعرض لبر بن قيس ، وانتشار ذريته فى البربر ، وفى ذلك اتى باشعار لتماضر بن قيس ، وانتقل الى ما قاله الملزوزى فى ارجوزته وجل هذه فى القرطاس . ثم انتهى الى بنى على الحسنيين ، نسبة الى على بن صالح الحسن السرغينى ، اقام فى أحياء من بنى مرين وتزوج فيهم فأنجب ثلاثة عشر ولدا ، فكانوا وابناؤهم فى بنى مرين ، كأحد شعوبهم ، قال بعضهم :

لأن بنى على من على	هم الشرفاء من نسل الامام
بجدهم حووا كل المعالى	وحازوا الفخر اجمع فى نظام

ثم ذكر انه فى عبد الحق وذريته ، كان الملك ، وبه يفتخرون ، وساق ثلاثة ابيات لعلها له وهى :

اصل نما فى المكرمات ففرعه	سام نداه بالمحامد مثمرا
هم آل عبد الحق حقا انهم	ورثوا العلا والمجد اكبر اكبرا
اهل السيادة والرياسة والندى	بسيوفهم حلوا الذرى منعوا الورا

ثم اتى بثلاثة اخرى فيهم ، لعلها له أيضا وهى :

فبنوا مرين من بنى مضر الألى	نصبوا منار الحل والاحرام
من قيس عيلان الذين بهديهم	شدت على التقوى عرى الاسلام

---

1) كما قيل فى عبد المومن وبنيه وأصلهم القيسى ، مثل قول الجراوى :

وان من قيس عيلان أرومته	وقيس عيلان أملاك وسادات

وقوله :

من قيس عيلان الذين سيوفهم	أبدا تصول ظباتها وتصون

وقوله

له نسبة قيسية قرشية	تقر لها بالمعلوات المناسب

ووردت فى بر أبيات للطرماح ، وهى خمسة ابتدأت بقوله :

يا آل بر بن قيس مرحبا بكم	قيس أبى وأبوكم حيث ننتسب

ثم جاءت أبيات أربعة لبعض العرب الذين كانوا بالاندلس ، يستألف زناتة ، فى الفتنة البربرية ، منها هذا البيت :

أبونا أبوهم قيس عيلان فى الذرى	لهم حرمة تشفى غليل المحارب

ثم ثلاثة اخرى لسابق المطماطى ، آخرها :

قبائل بر ابن قيس وخندف	وذى يمن فى عزها المتطاول

المخمدون بجدهم وسيوفهم   في الحرب حدة عبد الاصنام

كما أتى ببيتين لآخر في مدحهم ، وبعدهما أتى بآخرين ، لعلهما له وهما في القرطاس في تاريخ قدومهم الى بلاد المغرب ، كما قال . وعقب عليهما بالبيتين من ارجوزة الملزوزي وهما في القرطاس مع ثالث . وعند تعرضه لعبد الحق أتى ببيتين في مدحه ، من نظمه ، كما نظن :

عف اللسان عفيف الفرج تحمده   في كل حال له في الدين تصميم
وعزة وتقى قد حاز كل علي   له لدى الناس تبجيل وتعظيم

وذكر في أحداث اول المائة السابعة ، وفاة علي بن أحمد الاسدي المعروف بالجياني ؛ نزيل فاس ، قيد بخطه أربعين حديثا عن اربعين شيخا من اربعين مدينة ، وان حمد بن هبة انشد بيتين ، في معنى أنشده فيها ابن عساكر بيتين آخرين ، ثم ذكر لموسى بن عمران المرتالي ، المتوفى بفاس سنة ثلاث وستمائة ، شعرا في الزهد . وبعده اتى بقصيدة لأبي ذر بن مصعب الخشني المتوفى سنة أربع وستمائة بفاس كذلك ، وهي في اللجوء الى الله ، ختمها بقوله :

رب ان الذنوب قد أثقلتني   فاعف عني فقد تحملت جرما
لست أرجو سواك ربا رحيما   تغفر الذنب لي وان كان جما

فهي معدودة في شعر الزهاد ، في ذلك العهد ، الذي طفح بهذا النوع من الشعر ، كما سلف ذكره . ومنه بيتان ذكرهما لعدي بن خيار البلنسي المتوفى بفاس سنة خمس وستمائة ، وهما :

نجدد نسيانا كذا كل هالك   ونأمن احيانا ولم ياتنا أمن
فانا ولا كفران لله ربنا   لكالبدن لا تدري متى يومها يدنو

وهكذا نجد مقطوعات شعرية عديدة وقصائد المغاربة والاندلسيين خصوصا الذين نزلوا المغرب وتوفوا غالبا بفاس . ونص على كون شعر منها لابن منقاد .

كما جاء ببيتين لابن تاخمست من أهل فاس ، ذكرناهما فيما تقدم ، وهما مذكوران كذلك بالقرطاس ، وفي ذكر ابي معرف ، محمد بن عبد الحق اتى بأبيات من نظم الملزوزي . وهي أيضا في القرطاس، كذاك وصفه للشاعر .

وفى أبى بكر ثلاثة أبيات ، أولها بالقرطاس كذلك .

ننتقل الى القرن الثامن ، فنجد فى نصفه الاول كثيرا من فطاحل النثر والنظم ، وخصوصا فى العاصمة المرينية فاس ، وفى الفرضة الأصيلة سبتة التى استمر فيها الأدب على صلة وثيقة مستمرة بالاندلس ويكفى أن نمثل فى هذا برجلين ، أحدهما كان متفلسفا طبيبا ، الى جانب أدبه ، والثانى كان فقيها قاضيا الى جانب أدبه كذلك ونعنى بهما ابن شعيب الجزنائى التازى الفاسى ، والشريف الحسنى محمد بن أحمد السبتى اللذين جعلهما ابن الاحمر طليعة فحول زمانهما .

أما الجزنائى فهو أحمد بن محمد بن شعيب أحد كتاب أبى سعيد ثم ابنه أبى الحسن ، ومن علمائهما اللامعين . كان متطببا كيماويا ورياضيا ، وأديبا بارعا اشتهر ذكره فى الاندلس والشمال الافريقى ، وترجم له من معاصريه ابن الخطيب بالاحاطة وغيرها ، وابن خلدون فى التعريف وغيره ، ثم ابن الاحمر فى نثيريه ، وأخيرا ترجم له أحمد بابا التنبكتى فى نيل الابتهاج ، ترجمة قصيرة مقتصرة على ما لابن خلدون . ولكن معاصر التنبكتى ابن القاضى ترجم له ترجمة وافية فى كابه جذوة الاقتباس وغيره . وقد صدر به ابن الاحمر ، فى نثير فرائده ، شعراء العدوة ، يريد المغرب .

والجزنائى هذا ذكر فى الاحاطة بالكاف (1) .

ولا نعرف تاريخ ميلاده ، أما تاريخ وفاته فكان بتونس بالطعون الذى عم عام تسعة وأربعين وسبع مائة أو خمسين وسبع مائة ، كما يقول ابن الاحمر الذى أدركه ، ونوه بأدبه وعلمه الواسع الغزير .

وهذا الأديب هو ثانى الادباء المغاربة الذين عرفوا بالتطبب ، فأولهم كان ابن زنباع ، كما يذكره بذلك الفتح ابن خاقان . وكان الجزنائى فى تفلسفه وعلومه العقلية يدل بذلك ويدعى فيه دعوى عريضة ، كما ينم عنه ، ما فى ترجمته بالاحاطة ، وخصوصا فى الكيمياء ، التى لم يكن لها آنذاك مفهوم مسلم به معترف بنتائجه .

وعلى كل حال ، فالذى يعنينا من الرجل ناحيته الأدبية التى اعترف

1) وتصحفت الكلمة فى الطبعة الاخيرة ، بالكريانى .

بها جميع من ترجموه ، واشاد بها ابن الخطيب نفسه ، فهو كاتب رسمى ، شاعر متفوق ، ناقد لاشعر بصير بأغواره . طرق بشعره عدة موضوعات ، اكثرها موجود بالاحاطة وجذوة الاقتباس ، وبعضها فى التعريف لابن خلدون والنثيرين لابن الاحمر ، الذى اثبت له رسالة افتتحها بشعر كما يأتى ، اثر شعره .

وهذه الرسالة قد وصفها ابن الأحمر بالبراعة ، كما وصف بذلك له بائية ، سنذكرها اول نماذجه الشعرية .

ومما قال فيه ابن الأحمر « سابق ركض فى ميدان الشعر فجلى ، وماهر طلع فى سماء الاجادة فتجلى .... والانشاء اجرى فى لوح الاحسان قلمه ، واطلع بين اجبال تنميقه علمه . ومدينة تازا مسقط رأسه ، ومتوقد نبراسه ، وطرأ على فاس فحمدت سراه للطلاوة ، وقالت : ما اجل سراه للجزالة ، وبه صلصلت ، والأحاديث الفخرية به سلسلت » .

ومع أن الجزنائى كان من الكتاب ، الا اننا لا نعثر له الا على الرسالة التى اشرنا اليها ، وهى من رسائله الاخوانية ، تسفر عن معارفه العديدة كالنجوم ، التى كان فى أحكامها ، آية ، كما يقول ابن الاحمر . وهذه الرسالة فى موضوعها قليلا ما نجد لها مثيلا فى ادبنا ؛ فقد عرفت الاخوانيات فى العهد المرابطى برسائل عياض ولكننا فى العهد الموحدى عدمنا موضوعها

ومن أهم أشعاره — ان لم يكن أهمها — قصيدته البائية التى سلفت الاشارة اليها ، نأتى بها لبراعتها ، وعدم نظيرها عندنا ؟

احار سل العتبى فلست بعاتب	حنانيك ان الدهر أخبث صاحب
عجيب من الايام أنى الفتها	مسالمة الايام احدى العجائب (1)
عرفت الليالى قبل عرفانى النهى	وقد اخلدت خلدا وما طر شاربى
ولابست حاليها مع الكره والرضى	وقد شاب رأسى وهى سود الذوائب
ومارست أبناء الزمان فلم أجد	أخا ثقة ياحار غير التجارب
مليون بالبغضاء الا تملقا	وما هو الا مثل ابساس حالب

1) لقد ذكر أبو الربيع هذا المعنى كثيرا كقوله :

وليس عجيبا غدرها بك انما ركونك منها للوفاء عجيب

يضيق بها رحب الفضاء وانهـا   لجاثمة بـين الحشى والترائـب
اذا ذكرت ملقى عصاها من العلى   ترامت اليه دون ذكر العواقـب
فان تسألوا صعب الشكيمة قاضيا   فحيهلا بى أو بسعد بـن ناشـب
وسعـت الليالـى عفـة وقناعـة   وقد ضقن ذرعا عن تسنـى مآربى
وقضيتهـا خمسا وعشرين حجـة   أصدق ظنـى بالامانى الكـواذب
فمالى وللاوطان هل يطاب الجـدا   من القطر الا كائنا فى السحائـب
وما كنـت أرضى أن اقيم بذلـة   فكيف وما سـدت على مذاهبـى
وما يطبينـى أين نيطـت تميمتى   على فأوطانـى ظهور الركائـب
فان مح عن فودى جون شبيبتـى   فما مح عن عطفى جون الغياهـب
ستألف منـى البيد طلاع انجـد   قليل هموم النفس جـم المطالـب
وشيحان لا تثنـى المهامه عزمـه   يخوض غمارات الردى غير هائب
حليف سرى لا يسأم البيد والسرى   طوال الليالى فى عراض السباسب
أزجـى بها مـن عزمتى متوقـدا   فأحسبنى بعض النجـوم الثواقب
حثيثـا وترعانى النجـوم كأنمـا   تسابقنى مـن خشية لامغـارب
تقدمنـى حتـى اقـول شمائلـى   واقدمهـا حتـى أقـول جنائبـى
بمنخـرق يثنـى العيـون كليلـة   طروح النوى جم السرى غير لاحب
كأن جنى الظلمـاء فيه ابن دايـة   لأمن فراق البيد ليـس بناعـب
تخـال بـه زهر الكواكب جثمـا   وتحسب فيه البرق نار الحباحـب
فلا جهـورى الرعد فيـه بنابس   من الرعب الا مثـل صر الجنادب
ولا ناجـم الا قتـاد كأنـه   براثـن أسـد أو حماة عقـارب
وفى شعب الاكـوار شعث كاننـى   بهـم فى ذرى دو سليك المقانـب
اذا اعتكـر الليـل البهيم تنوروا   اضاءة مشقوق العقيقة قاضـب
الا علمـت سبـل المعالى بأننـى   سريت اليها حين كل مصاحبـى
مـع الليـل الا بارقـا متنـورا   كطرفة جفن أو كغمـزة حاجـب
وبين جفونى والكرى فيـه جاثـم   بهم على خفض من العيش ناصب
فان ثاب نحوى موهنا قعقعت له   خطى من عشار كالقسى لواعـب
قـد استابتهـا البيـد الا بقيـة   وكانت منيفات الذرى والغـوارب
الا يا اسلمـى ياناق ثم تقدمـى   بنا تصدرى بالرفد ملأى الحواقـب

فلى أمل فى آل فهر ابن مالـك   خلا أن حيى فى لؤى بن غالب (1)

ومن شعره يرثى جاريته الابيات :

اعلمـت ما صنـع الفـرا   ق غـداة جـد بـه الرفـاق
ووقفـت منهـم حيـث للنـ   ـظـرات والدمـع اتسـاق
سبقـت مطاياهـم فمـا   أبطـا بنفسـك فى السبـاق
الطقـت حمـل صدودهـم   البـين خطـب لا يطـاق
عـن ذات عـرق اصعـدوا   اتقـول دارهـم العـراق
نـزلوا ببرقـة ثهمـد   فلـذاك ما شئـت البـراق
وتيامنـوا عسفـان أن   يقفـوا بمجتمـع الرفـاق
مـا ضرهـم وهـم المنـى   لو وافقـوا بعـض الوفـاق
قالـوا تفرقنـا غـدا   فشغلـت عـن وعـد التلاق
عمـدا رأوا قتـل العميـ   ـد فكـان عيشـك فى نفـاق
اولـى بجسمـك أن يـرق   ودمـع عيـن أن يـراق
امـا الفـؤاد فعندهـم   دعـه ودعـوى الاشتيـاق
اعتـاد حـب محلهـم   فرحيـب صـدرك عنـه ضـاق
واهـا لسالفـة الشبـا   ب مضـت بأيامـى الرقـاق
ابقـت حـرارة لوعـة   بـين التراتـب والتـراق
لا تنطفـى وورودهـا   مـن أدمعـى كـأس دهـاق

هذه الابيات لا تفهم كونها فى الرثاء الا فى الابيات الثلاثة الأخيرة وان كانت الاحاطة قد نصت على كونها فيـه ، وهى بالغـزل أحرى .

وعلى كل ففيها من التأنق ما يجعلها تبدو متكلفة أحيانا ، مثل البيت :

---

1) لعل هذه الابيات كانت مطلع قصيد فى المدح تخلص بالبيت الاخير فيها الى ذكر ممدوحه من « آل فهر ابن مالك » أو « لؤى ابن غالب » وفى هذا المطلع ما عهدناه عند صعاليك الجاهلية كالكافية الواردة بديوان أبى تمام ، لتأبط شرا احد العدائين ، كسليك المذكور بذلك ؛ يقول فيها :

قليـل التشكـى للمهـم يصيبـه   كثير الهوى شتى النوى والمسالـك
يظـل بموماة ويمسـى بغيرهـا   جحيشـا ويعرورى ظهـور المهالـك
ويسبق وفد الريح من حيث ينتحـى   بمنخـرق من شـدة المتـدارك
اذا حاص عينيه كرى النوم لم يـزل   لـه كالىء من قلـب شيحان فاتـك
ويجعـل عينيـه ربيئـة قلبـه   الـى سلـة من حـد أخلق صائـك
يرى الوحشة الانس الانيس ويهتدى   بحيث اهتـدت أم النجوم الشوابك

عـــن ذات عــرق اصعـــدوا   انتقـــول دارهـــم العـــراق

ولا داعى له الا ما اراده من الجناس فى عرق والعراق ، وكذلـــك الشأن فى البيت التالى حيث ورود برقة والبراق

واخيرا البيت :

اولـــى بجسمـــك أن يـــــرق   ودمـــــع عينـــك أن يـــــراق

وفيها من الاقتباس القرآنى واستعمالاته قوله فى البيتين الأخيريـــن « بين الترائب والتراق » من قوله تعالى : « بين الصلب والترائـــب » وقوله « حتى اذا بلغت التراقى » وكذلك « كأس دهاق » من قوله تعالى « وكأسا دهاقا » فهو وصف قرآنى ، وان اخرجه من الفرح الى الحـــزن حيث انه فى القرآن وارد ضمن نعيم الجنة الذى وعد به المتقون . ومـــن التقليد فيها ذكر الأماكن ، مثل ذات عرق ، والعراق ، وبرقة ثهمد وعسفان وذكر ابن الخطيب فى الاحاطة انه خاطب ابا جعفر بن صفوان يسأله عن شيء من علم الصناعة بابيات اقتصر على الاول منها فقال :

دار الهـــوى نجـــــد وساكنهـــا   اقصى أمانـــى النفس مـــن نجـــد

هل باكـــر الوسمـــى ساحتهـــا   واستـــن فى قيعانهـــــا الجـــــرد

او بـــات معتـــل النسيـــم بهـــــا   مستشفيـــــا بالبـــان والرنـــــد

يتاـــو احاديـــث الذيـــن هـــــم   قصدى وان جاروا عن القصـــــد

أيـــام سمـــــر ظلالهـــا وطنـــى   منهـــــا وزرق مياههـــــا وردى

ومطـــارح النظـــرات فى رشـــــأ   احـــوى المدامـــع اهيـــف القـــد

يرنـــو اليـــك بعـــين جارحـــــة   قتـــل المحـــب بهـــا علـــى عمـــد

حتـــى اجـــد بهـــم على عجـــــل   ريـــب الخطـــوب وعاثـــر الجـــد

فتـــدوا فمـــا وابيـــك بعدهـــــم   عيـــش شفـــى الا عـــلى الفقـــد

وغـــدوا دفينـــا قـــــد تضمنـــه   بطـــن الثـــرى وقـــرارة اللحـــد

ومشـــردا مـــــن دون رؤيتـــــه   قـــذف النـــوى وتنوفـــة البعـــد

اجـــرى عـــلى العيـــش بعدهـــم   انـــى جرعـــت حميمهـــم وحـــدى

لا تلحنـــى يا صـــاح فى شجـــــن   اخفيـــت منـــه فـــوق ما ابـــدى

بالغـــرب لـــى سكـــن تأوبنـــــى   مـــن ذكره سهـــد عـــلى سهـــد

فرخـــان قـــد تركـــا بمضيعـــــة   زويـــت عـــن الرفـــداء والرفـــد

فيفهم من أواخر هذه الابيات ، أنه توفى له طفلان دفنا بالغرب ، على حين أن كان هو شرقا بالبلاد التونسية ، فزاده هذا سهدا على سهد ، أو أن صبحا تركت له هذين الطفلين بمضيعة ، حينما توفيت .

ومن ناحية الصناعة ، ففيها تأنق بالغ ، وتلاعب ببعض الفاظها ، وتقابل بين معانيها ، وتكلف بذكر بقاع ، الغالب أنها لا علاقة لها بمرثيته .

ومن قصائده الاخوانية ما خاطب به صديقه أبا جعفر ابن رضوان الاندلسى وهو فيها غير محتفل بالصنعة متشوقا الى ضيعة لأبى جعفر ، خارج مالقة . ومطلعها :

رعى الله وادى شنبانة	وتلك العشايا وتلك الليال
ومسرحنا بين خضر الغصون	وودق المياه وسحر الظلال
ومرتعنا تحت أدواحه	ومكرعنا فى النمير الزلال
نشاهد منها كعرض الحسام	اذا ما انتشت فوقه كالعوال
ولله من در حصبائه	لآل واحسن بها من لآل

والأبيات جميلة وان كان البيت الاخير اعتراه فتور ، فى قوله « واحسن بها من لآل » فهو كلام هامد لا روح به للشعر وعرائسه ، وانما الصنعة المتكلفة اتت به ليكون البدء كالختام فى هذا المصرع الأخير .

وهذه أخرى فى رثاء صبح جارية :

يا قبر صبح حل فيـ	ـك لمهجتى اسنى الأمان
وغدوت بعد عيانها	اشهى البقاع الى العيان
اخشى المنية انها	تنبى مكانك عن مكان
كم بين مقبور بفا	س وقابر بالقيروان

ومن حذلقته فى هذه الابيات قوله :

اخشى المنية انها تنبى مكانك عن مكان (1)

---

1) ويبدو أنه كان يسترفد أحيانا من مراثى أبى الربيع الموحد ، من مثل قول هذا :

يا صاحب القبر الغريب كان ما	غنيتنا « يا صاحب القبر الغريب »
كم بين مشقوق عليه من الجيو	ب وبين مشقوق عليك من القلوب

ومن مرثياته لها قوله :

يا صاحب القبــر الذى أعلامــه ... درست ولكــن حبه لــم يــدرس

ما اليأس منك على التصبر حاملى ... أيأستنــى فكأننــى لــم أيــأس

لما ذهبــت بكــل حسن أصبحــت ... نفسى تعانــى شجو كل الأنفــس

يا صبــح أيامــى ليــال كلهـــا ... لا تنجلــى عن صبحك المتنفــس

ففيها من التأنق « أيأستنى فكأننى لم اياس » وفيها البيت الاخير ، الذى انبثق من اسم المرثية الحبيبة ، وله فى تلك الجارية ايضا :

يا غائبــا فى الضمــير ما برحـــا ... دانــى محل الهــوى اذا نزحــا

لم تضمــر الصبــر عنك جارحـــة ... ولا فــؤادى لسلــــوة جنحـــا

مستعيــر المــزن فيــك أدمعــه ... يظــل يبكيــك كلمــا سفحـــا

ولا رأى البــرق عــاد مبتسمــا ... بعدك بــل زنــد شوقــه قدحــا

ومـــا تغنــى الحمام مــن طــرب ... بــل يعلن النــوح كلمــا صدحــا

وهناك أبيات أخرى قالها فى أغراض مختلفة ، وأهمها النسيـــب كما فى مثل قوله :

يــارب ظبــى شعــاره نسـك ... الحــاظ فى الــورى لهــا فتــك

يتــرك مــن هــام فيــه مكتئبــا ... لا تعجبــوا ان قومــــه التــراك

أشكو له مــا لقيت مــن حــرق ... فينثنــى لاهيــا اذا أشكــو (1)

هذا ما يتصل بشعره ، وهو كاف فى تصوير طريقته المتصنعة المتأنقة ، أما نثره ، فقد اشرنا الى نموذج منه ؛ وهو عبارة عن رسالة اثبتها له ابن الاحمر ، فى نثير فرائد الرحمان ، كما تقدم ، تدل على مكانة له فى الترسل ممتازة ، استهل تلك الرسالة بالشعر ، ثم انتهى الى النثر فصال وجال وطرق عدة توريات متنوعة ، بعد ما لمح ببعضها فى ذلك الشعر ، وهى هكذا :

يا موحشــى والبعــد دون لقائـــه ... ادعوك عن شحــط وان لم تسمــع

يدنيك منــى الشوق حتى اننــى ... لأراك رأى العــين لولا ادمعــــى

وأحس شوقــا للنسيــم اذا سرى ... بحديثكــم وأصيــخ كالمستطلــــع

(1) لم نأت بالابيات التى تدل على الغزل الشاذ مما ذكر فى الاحاطة وغيرها .

كان اللقـــاء فكان حظـــى ناظـــرى وسطا الفراق فصار حظى مسمعى
فابعـــث خيالك تهده نـــار الحشى ان كان يجهل من سقامى موضعى
واصحبه من نومى « بتحفة قادم » فمذ استقل بكـــم نوى لم أهجـــع
كيما أطارحــــه حديــــث صبابتــــى وتصدق البلوى « مقال المدعـــى »
« موقوف » آمالى و «مسند» لوعتى و «بلاغ» أشواقى و «مرسل»أدمعى

قد كان حنينى الى سيدى أطال الله بقاءه ، وسنى لقاءه ، موصولا مع الاتصال ، ودائما مع البكر والآصال ، لا تلحته فترة فأضل فيها من سواه عاكفا على صنم ، ومنظر العيش أنيق ، وغصن الشبيبة وريق ، والدهر جمع ولم يحسن التفريق ، ومسك العذار تحت ختامه، وماء الشباب فى عوده ، لم تفض العين بانسجامه ، والدار حرية بما تهوى الانفس ، واليد مليئة بنضار العقار ، تصرفه فى لجين الأكؤس ، وشملنا المنتظم عقد على لبة الزمان ، وليالينا فى مقلته كحل ، وفى وجنته خيلان ، فكيف وقدعاد الدهر بجوره وسطاه، وأرانا من حدثانه عجبا ، برد الشباب بيد مزيقاه ، وشمل الاحباب بأيدى سبا ، فهل كان الا مثل القناة طولا ، هزته أريحية فالتقى طرفاه ، وكصفح الحسام صقيلا ، فانقلب بصفحه حرفاه ، ورمانا الفراق مراميا ، وصرت شآميا ، فانفردت يمانيا ، حتى لا نلتقى الا بالفكر ، ولا نجتمع الا فى الذكر ، اللهـــم الا طيف الخيال ، كالبدر المتوهم ، والليل فى شيه الجواد الأدهم ، قد نظم نظم الكوكب لجيده عقدا ، والتحف الظلماء بردا ، فكتمت منه صبحا مسفرا ، وسرا عرفه فى سوادها فكانت مسكا أذفرا ، واعتسف المسافة الزيـــزاء ، والأفق متشح بصارم الفجر ، والجو معتقل عصا الجوزاء ، والرامح قـــد أشرع سنانه ، فخفق قلب الاسد ذعرا ، وجرى دمع الغميصاء على العبور ، فكانت به المجرة نهرا ، وذهبت تستبق الكواكب للمغارب ، فجاء الفجر على قميص الليل بدم كذب فقيل فجر كاذب وافى فكان من تباشير الصباح ، والنوم متخبط فى حبائل الاجفان يجاذبها وقد علق الجناح ، اعتيادا لطروقـــه مثواه ، لا عيادا لمشرقه من بلواه ، وقد طبع فى طينه القلب ، واعتورته نار الحب ، فأقام ماثلا بين الجوانح ، لا تعفيه الانفاس العواصف ، ولا الدموع السوافح ، لا ينزل به طارق السلو وان كان محل كريم ، ولا يقدم فيـــه رسول العذل ، وان كان فترة بين طوفان نوح ونار ابراهيم ، ولو شاء لكانت بردا وسلام ، برد السلام ، أو هبة شمال ، وبرود الليل اسمال ، بليلـــه

الجناح ، عليله تنعش الارواح كليله المسرى ، قد تطوفت معاهد حسان بين جلق وبصرى ، وبثت لبثينة حال جميل ، وجالت بالحمى ، فأذكـــرت اذخـــرا وجليـــــل ، وقضت لقيس مــــن لبناه لبانة ، فخلــع عليهــا « لقد كان فيها للامانة » والمت بالخمائل الماما ، فمنحت الغصون اعتناقا ، والازهار التثاما ، وأطالت السجف عن الخدور ، بل السدف عن البدور ، فالتمس الصحب تلك الغرة ، فاختلس منها نظرة ، حتى خلصت الـــى مثواى ، وما تخلصت من بلواى ، فظنتنى من خوافيها نسالا ، فغلبتنى فى الشمال يمينا وشمالا ، فلما تنسمت نشرك فى طيها ، وتوسمت بشراك من حليها ، قلت أسعيدة فاسعدى ، انى لأجد ريحه لولا أن تفندى ، والا فما عطر شذاك ؟ اصدقى ! فقالت : هو ذاك ، فقلت لها بعد هذا الترحيـــب والتحية ، وسكون هذه الاريحية : ما حال تلك الشيم المرضية ؟ التـــى لو كانت نسيما لكانت الصبا ، قالت : كالزهر أشرقه الندى بمائه ، والاقحوان غداه غب سمائه . قلت : فالهمم العلية ؟ التى لا تبصر العلياء اختلاسها ، ولا تدركها التماسها . قالت : ما كنت اقفو ما ليس لى به علم ، فما لى ولأخيات النجم ، فمن لى بالمجرة أوافيها ، فأعلم من فيها ؟ فاسال الكواكب عن عدادها ! فأنت حلف سدادها . قلت : فما حال ذات الكمال والسيادة ؟ قالت : بالحسنى وزيادة ، قلت : جعلت فداك ، انك خالطت سقيما فأعداك ، فجئت سموما ، وستعودين نسيما لمن أهداك ، فينكر سيماك ، ويقول : ما وراك ؟ واين خلعت نصيفك ورداك ؟ فقولى : على يعقوب هواك ، الذى لا يفتر عن ذكراك ، المستشعر مع يأس السلو عنك ، ورجاء الدنو منك ؛ فلان ، والسلام الكريم ، يخص ذلك الحسب الصميم ، ورحمة الله وبركاته .

فهذه أول رسالة اخوانية تواجهنا بهذا الطول ، الذى لم يكف نثره ، حتى مهد له بالشعر ، وقد حوى كثيرا من التوريات المختلفة من ادبيـــة وعلمية ، وفى مقدمتها علم الهيأة والنجوم (1) . وقد سقناها على طولها ، كنموذج لما آلت اليه هذه الاخوانيات ، بعد قصرها .

وبعد الجزنائى التازى الاصل الفاسى المنشأ ، نتعرض ــ كما أشرنا ــ

---

1) على منوال ما سبق للقاضى عياض . وسنرى فى العصر السعدى أن ابن عيسى نسج على منوال أواخرها مقامته النقديـــة .

لأبى القاسم الشريف الحسنى السبتى المعروف بالغرناطى المولود عام سبع وتسعين وستمائة ، والمتوفى عام ستين وسبعمائة .

هذه الشخصية تمثل حق تمثيل الامتزاج الأدبى بين المغرب والاندلس ، فهى كشخصية بعض العزفيين الذين كان أدبهم مسرحا للعدوتين ، وان كان الواقع تعميم هذه الظاهرة ، فى أدباء سبتة عامة ، منذ القاضى عياض الى ابن رشيد الى هؤلاء .

لقد كان من أثر الشريف ، الذى كسب له أصدقاء حتى عصرنا شرحه لمقصورة حازم القرطجنى الاندلسى ، مجدد البلاغة لعهده ، فيما ألفـــه فيها ، وكتب له البقاء كذلك بها .

كان لهذا الشريف تلاميذ عظام ، ذكروه بالتقدير والاعجاب ؛ مثل ابن الخطيب وابن خلدون والنباهى ، الذى جعل ترجمته مسك الختام لمرقبته الوارد فيها عنه قوله : « انه كان نسيج وحده براعة وجلالة ، وفريد عصره بلاغة وجزالة ... ارتحل من بلده سبتة ، وقد تملأ من العلوم ، وبرع فى طريقتى المنثور والمنظوم فطلع على الاندلس طلوع الصباح عقب السرى ، وخلص اليها خلوص الخيال مع سنة الكرى ، فانتظم فى الحين فى سلك كتبتها ، وأمسى وهو صدر طلبتها ؛ لما كان قد حصل له من الاخذ بأطراف الطلب ، والاستيلاء على غاية الأدب ...

ثم صرف الى الاستعمال فى الخطط القاضوية ... فتقدم بذلك بجهات شتى ... وكان فى اقرائه سريع الجواب ، متبحرا فى علم الاعراب فظفرت أيدى الطلبة منه بالكنز المذخور » .

وبعد ما ذكر أنه تقلد القضاء بمالقة ، قال ثم ان الولاية (يريــــد غرناطة) حنت اليه فعاد اليها . . واسمر قيامـــه بها ... وكان لــــه فى المجالس الملكية ، والمجتمعات الجمهورية ، من جلالة الأبهة ، وملازمة التؤدة ... ما لم يكن لغيره من أهل طبقته .

وبعد ما أتى بنماذج من شعره ، قال « ونظمه كله رائق المعنى ، صريح الدلالة ، صحيح المعنى » (ثم قال فى أساتذته) .

وأما مشيخته فقرأ ببلده سبتة القرآن على والده المنقطع لاقراء كتاب

الله ومدارسته ... وأكثر من ملازمة الاستاذ الشهير أبى عبد الله ابـــن هانىء والاخذ عنه ، فانتفع به وتأدب به ، وقرأ على القاضى الامام أبـــى اسحاق الغافقى ، وروى عن أبى عبد الله الغمارى ، وعن القاضى أبـــى عبد الله القرطبى ، وعن الخطيب ابن رئيس وابن حريث وغيرهم » . واستمر النباهى فى ترجمته التى استنفذت سبـــع صفحات من كتابه منوهـــــا وقد زاد ابن فرحون ناقلا عن الاحاطة ، فى مشيخته القاضى المحدث أبـــا عبد الله ابن رشيد والاستاذ النظار أبا القاسم ابن الشاط ، وهؤلاء كلهم كانوا من اساتيذ بلده سبتة ، واليهم يعود الفضل فى تنشئة هذا العالم الفذ ، الذى برع فى النثر والنظم ، كما نجد فى جميع تراجمه .

وشرحه للمقصورة كان فى مقدمة ما يذكر به ويرفع من شأنه .

ومن المفيد فى هذا الشرح ذلك التمهيد الذى قدم به الشريف لفنون البديع وتفصيلاتها ، ولالوانها البارزة فى تلك المقصورة الجميلة ، التى مدح بها صاحبها ، الامير الحفصى أبازكرياء ؛ حيث كانت افريقية وتونس بصفة خاصة ملتحمة بالاندلس ، التحاما كان فى ضمنه كثيرون من رجـــال الاندلس ، منهم ابن الابار وابن عميرة والقرطجنى المذكور .

لقد كانت تلك الفنون التى اهتم بها صاحب المقصورة . وتنزل لهـــا شارحها ، قد طغت على الاندلس والشمال الافريقى عامة فضروب الزينة والحلية ، وجدناها تتجلى حتى فى المعمار الاندلسى ، بما تجلت به قصور الحمراء بغرناطة ، وفى المعمار المغربى ، بما تجلت به لذاك العهد قصـــور فاس ومدارسها المرينية العديدة ، فلا غرو أن يكون الأدب ممثلا لتلـــك المرحلة « المتزينة » بشتى الألوان ومختلف النقوش والخطوط المتعارضة المتشابكة ، انها الحضارة فى مرحلتهـــا المتبرجـــة بزينتها ، والمتجملـــــة بتطريتهـــا ...

هذا ما نجد الشريف يحرص عليه فى نثره ، كما فى مقدمة شرحـــه ، وتقديم ديوانه لابن الخطيب فيما نرى بعد . اذن فلنترك نثره الى حـــين لنتصل بشعره ، وجل نماذجه ، مستخلصة من تلك التى وردت فى شرحه المذكور ، فمن ذلك قوله فى وصف ناعورة :

وذى فلـك ما دار الا قضـى بأن | يعاد الى الروض الشباب جديـدا
تجود بنوء الفـرغ فيها كواكـب | فتسقـى وهادا ريهـا ونجـودا
اذا الكوكب المائى منهـن قورنت | به أنجـم الأزهـار كن سعـودا

وقوله فى وصف دولاب السقى :

وذات سيـر اذا حثـت ركائبهـا | حنت فراقتك فى مرأى ومستمـع
كأنهـا فلـك درات كواكبـه | على الرياض بنؤى غير منقشـع
تماثل السحب صوبا بل تخالفهـا | اذا استهـل حيا الهتانـة الهمـع
هذى من الماء تعلـو كل منخفـض | وتلك تنـزل منـه كـل مرتفـع

وقوله فيه أيضا :

وذات حنـين تستهـل دموعهـا | سجاما اذا يحدو ركائبها الحادى
تعجبت أن ليست تريم مكانهـا | ولم تخل من تاويب سيـر واسئاد
وارصدتها فى الروض أيـة عـدة | فكانت لدفع المحل عنـه بمرصاد
تخالف ماء المزن حكمـا وماؤهـا | وكل على روض الربى رائح غـادى
فينجد هذا بعد أن كان متهمـا | وذاك تـراه متهمـا بعد انجـاد
لئن قدفت ذوب اللجين على الثرى | لقد خلصته القضب حليا لأجيـاد

وقولـه كذلك :

ومترعـة يعـل الـروض منهـا | اذا علـت مـن المـاء الفـرات
بـدا دولابهـا فلكـا ولاحـت | بدائـرة كواكـب سائـرات
اذا ما الـروض قابلهـن كانـت | عليـه بكـل سعـد طالعـات
اراها ان شعـاع الشمس لاقـى | بيـاض المـاء مشرقـة الايـات
وأعجـب أنهـن ذوات نـوء | غزيـر وهـى تغـرب خاويـات

وقوله فى وصف سفينة تمخر البحر به :

وغريبـة الانشـاء سرنا فوقهـا | والبحـر يسكـن تـارة ويمـوج
عجنـا نـؤم بها معاهـد طالمـا | كرمت فعـاج الأنس حيث تعـوج
وامتد مـن شمس الاصيل أمامنـا | نـور لـه مرأى هنـاك بهيـج
فكـأن مـاء البحـر ذائب فضـة | قد سال فيه مـن النضار خليـج

ويقول فى ليـــل :

خليلى كم مـــن ليلة قد سهرتهـــا اراقب فيهـــا النجم والنجم حيران
وقد حال دون الصبح بحر من الدجا الى أن نجا من غمره وهـــو عريان

ويقول فيه وفى شعر وحف :

ليل وليـــل ففـــرع وارف ودجـــى طـــالا فواحزنـــى ممـــا اكابـــده
شاهدت فى ذاك بـــدرا لا أهيم بـــه وهمـــت فى ذا ببـــدر لا أشاهـــده

وقولـــه أيضـــا :

غـــزال أنـــس كم استدنيته فنـــا عنـــى وأعـــرض مـــزورا بجانبـــه
طالت على ليالـــى فى هواه كمـــا طالت عليـــه ليال مـــن ذوائبـــه

فهذه نماذج من أوصافه الشعرية ، والوصف فى أدبنا عزيز جدا ، ولا نجد من تفوق فيه الا القاضى ابن زنباع (1) ، يليه هذا القاضى السبتى وآخرون بعد هذا العهد ، أجادوا بعض الوصف ، كما سنجد لابن عبد المنان المكناسى النشأة الاندلسى الاصل .

والبيتان اللذان عقد فيهما التشبيه بين الشعر الفاحم وبين دجـــى اللايل فى السواد والطول ، وما يعانيه الانسان ؛ فقال انه شاهد فى الليل المشبه به بدرا لا يهيم به ، ولكنه فى المشبه هام ببدر لم يشاهده .

وهذه حذلقة ارتكبها بين النفى والايجاب ؛ فهذا بدر لا يهيم به يشاهده ، وهذا بدر لا يشاهده وهو هائم به .

وفى مجرد الطول وجدنا البيت الثانى من البيتين التاليين ، وهو :

طالت عـــلى ايال فى هواه كمـــا طالـــت عليه ليـــال من ذوائبـــه

أما تناوله للناعورة فهو يجعلها فلكا يدور بكواكب تجود بأمطار هاطلة ، تسقـــى النجود والوهـــاد ، ولكـــن الكوكـــب المائـــى منهـــا يخالـــف كوكب السماء ، لانه يجعلها سعودا كلها ، حيث لا تدور الا أعادت للرياض شبابها ورونقهـــا .

---

1) أو ابن بياع السبتى كذلك ، كما كان يقطع بذلك المرحوم محمد بن العباس القباج .

فهذا وصف قائم على تشبيه ومقارنة ، ليس فيه بعد ذلك تأنق ولا تصنع في التعبير ، وكذلك الشأن في وصف دولاب الماء للسقي فانه يجعله سائرا يستحث ركائبه التي تحن الى أعطانها ، فيروق مرآها ، ويعذب في الاسماع هديرها ، هذا ما تضمنه البيت الاول . ولاشك أنه في مرآها استعان بقوله تعالى : « ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون » .

وفي البيت الثاني ، كرر ما جاء في التشبيه عند وصف الناعورة ، من كونها فلكا تدور كواكبه على الرياض ، بمطر هاطل لا ينقشع وينقطع فهي في هذا تشبه السحب في صوبها ، ولكنها تخالفها في وضعها ، فهذه تعلى المنخفض من المياه ، وتلك تنزل المرتفع منها . . ويعود مرة اخرى الى هذا الدولاب ، فيجعله ناقة تحن الى عطنها فتستهل دموعها ، حينما يحدو الحادي ركائبه ، ولكن العجب منها أنها تسير ولا تريم مكانها ، بالرغم من عدم توقفها في هذا السير ، ليل نهار . لقد أعددتها في روضي ، وأرصدتها لذلك ، فكانت حافظة له ، تقف دون المحل بالمرصاد ، وهي في الحكم تخالف ماؤها وماء المزن ، وان كان كلاهما رائحا غاديا على روض الربى ، فينجد منها ما كان متهما ، ويهتم منها ما كان منجدا (1) .

وفي البيت الأخير يقول ، ان كانت هذه الآلة ، قد أصابت الارض برشاش مياها الصافية ، كأنها ذوب اللجين ، فان ما يتوم من قضبان على الارض ، ينظمها حليا لأجيادها .

انه وصف كذلك يقوم على ما تولد من التشبيه في عمومه ، وليس فيه من التحسين اللفظي ، الا الجناس في « أرصدتها وبمرصاد » وكذلك يفعل في وصف آخر ، يجعل هذه الآلة المترعة يشرب الروض منها ويعل من مائها العذب الصافي ، فالدولاب كأنه فلك تحتوي دائرته على كواكب سائرة ، اذا قابلت الروض طلعت عليه بسعوده ، وحينما تتسلط اشعة الشمس على صفحة الماء ، تبدو مشرفة دارتها ، كأنها الشمس

---

1) فهذا وصف للآلة الساقية العمودية المسماة بالاسم ألفارسي « دولاب » أي الآلة ذات الشفتين ، وما زالت تعرف بهذا الاسم في مصر . أما في المغرب ، فيطلق عليها اسم « الناعورة » كما كانت معروفة بفاس كثيرا ، وما زالت منها بقية ، فيها وفي بعض الجهات ، التي تحتاج الى روافع المياه ، للاماكن المرتفعة عن مستواها، ولكن هذه تطلق على الآلة الافقية الدائرة ، كما كانت منذ عهد قريب بسلا ، تديرها دابة مثلا .

بنورها وحسنها ، والعجيب أن تلك الكواكب ذوات أمطار هاطلة في اقبالها ، وأنها تغرب فارغة خاوية وهكذا وجدنا فى القطع الثلاث ، هذا التشبيه المنعقد بين الآلة الساقية وبين الافلاك بكواكبها ، ولا اختلاف الا بالزيادة والنقصان .

أما السفينة ، فلم توصف الا بكونها غريبة الانشاء ، وأنهم سافروا على ظهرها ، وكان البحر يسكن تارة ويموج أخرى ، وانهم قصدوا بها مكانا كريما على نفوسهم ، فعاد الانس اليهم بعودها ، وأن أشعة الشمس المنبسطة على سطح البحر عند الاصيل جعلت المنظر بهيجا ، فكأن ماء البحر فى صفائه فضة ذائبة ، وتلك الاشعة الذهبية عند الاصيل ، خليج من الذهب فيه .

ولا شك أن هذا التشبيه اسعفه به ابن خفاجة بنحو قوله :

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء

وهذا أن تحقق مرآه فى مياه الانهار الصافية الهادئة ، فلا أراه يتحقق فى مياه البحار التى تغلب عليها الزرقة فى هدوئها .

وتأتى هذه الصورة للصبح والظلام الذى غمره ببحره الى ان نجا منه عريانا ، فتشبيه الصبح بشخص غارق فى بحر الظلام ثم نجاته منه عريانا ، جميل لا محالة ، وهو منتزع من قوله تعالى : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار » على العكس فى النهاية .

وله فى الرمح :

واصم ممطول الكعوب اذا اقتضى	مهج الكماة فدينه لا يمطل
متوقد حتى اقول أذابل	يبدى منه أم ذبال مشعل
لولا التهاب النصل أينع عوده	مما يعل من الدماء وينهل
فاعجب له أن النجيع بطرفه	رمد ولا يخفى عليه مقتل

ففى هذا مقابلة بالتضاد كما فيه جناس بذابل وذبال . ومن التضاد كون الطرف مصابا بالرمد وهو يبصر مقتله ولا يخفى عليه فى شيء .

وللشريف قطع فى أوصاف أخرى ، كقوله فى حدائق :

حدائـــق أنبتـــت فيهـــا الغوادى ضـــروب النـــور رائقـــة البهـــاء
فمـــا يبـــدو بهـــا النعمـــــان الا نسبنـــاه الـــى مـــاء السمـــــاء

ويقول فى قصد منزل :

يا راكبـــا يطـــوى المطـــــ ـــى بـــه إلفـــلا بيـــدا فبيـــدا
متوســـــــدا أعضادهــــــا يرمـــى بهـــا البلـــــد البليـــــدا
دع عنـــك اعمـــــال الركـــــا ب وحـــــط عنهـــــن القتـــــودا
وانـــــزل بـــــه بيتـــــا لآ ل البيـــت بالعليـــــاء شيـــــدا
للضيـــف فيـــه حكمــــــه منهـــم ويولـــــون المزيـــــدا
لم يدخـــرا عنـــك الطريـــف اذا أتيـــت ولا التليـــــدا
خلـــق لهـــم ورثـــوه عـــن عمـــرو الـــذى هشـــم الثريـــدا

فهذه القطعة لم يستعمل فيها المحسنات الا بقدر ، مثل البلـد البليد ، وبيتا لآل البيت ، وهو بسيط فى صنيعه هذا والغالب أنه يعنى قومه عامدا الى الفخر بها .

وللشريف أشعار أخرى فى المديح والتنويه بآل البيت والغزل الذى اقتصر منه ابن الاحمر على ما سرت عدواه الى المغرب فى هذا القـرن الثامن ، من عدوة الاندلس . فجاء ابن الاحمر بشواهد عديدة للشريف ، اقتصر عليها ، عند ذكر شعره ، وأهمها هذه القصيدة :

دعينـــى مـــن مقـــال العاذلـــين وخلى بـــين تهيامـــى وبينـــى
ومـــن يـــك ساليا فلـــدى حـــب سلـــو القلـــب عنـــه غير هيـــن
علقـــت فمقلتـــى للنـــوم حـــرب بأعـــزل وهـــو شاكـــى المقلتـــين
مليـــح الـــدل شاقـــت كـــل قلب شمائلـــه وراقـــت كـــل عـــين
جنـــى وحمى فلـــم أطاب بثـــارى محاجـــره ولـــم أتقـــاض دينـــى
اهيـــم بخـــده وبمبسميـــه فأنســـب بالحمـــى والأبرقـــين
عقدت مـــع الغـــرام فبعت فيـــه وقـــارى والتصبـــر صفقتـــين
وهمـــت بناعـــم العطفـــين فيـــه عـــذاب الصب عـــذب المرشفـــين
تديـــر عـــلى عينـــاه كؤوســـا كـــأن سلافها مـــن راس عـــين
فأحلـــف بالمحصـــب والمصلـــى واعـــلام الصفـــا والمأزمـــين
لأنتـــصرن بالاجفـــان حـــتى تكـــون دموعها فى الحب عـــونى

وحـــين تعرفـــوا كلفـــى وقلبـــى — يصـــون السر عنهـم كل صـــون
كففـــت المقلتـــين ليشهـــدا لـــى — فجرحـــت الدموع الشـاهديـــــــن
فلـــو ابـــصرت ناظـــرى المعنـــى — ومـــاء الدمـــع فـــوق الوجنتـــين
بصـــرت بوردتـــين يسـح منهـــا — سكيـــب القطـــر فـــوق بهارتـــين
اذا أعرضـــت أعرض كـــل صبـــر — وآذن نـــــوم أحداقـــى ببـــــين
ولـــم تبد الريـــاض بحســـن زى — ولـــم تـــزه الربى بكمـــال زيـــن
كـــأن نسيمهـــا ممـــا أقاســـــى — يهـــب عليانـــه بالأبرديـــــــن
كـــأن الزهر غـــب سمـــا بكتـــه — لمـــا ابـــدى حمـــام الشاطئـــين
أهيج لهـــا الهـــوى وتهيجه لـــى — فنلفـــى فى الهـــوى متطارحـــــين
وقد هاج الحمـــام الوجد قبلـــى — لتوبـــة عنـــد بطـــن الواديـــــين
بعيشك هـــل ترى ثانـــى وحيـــد — يـــرى بـــك ثالثـــا فى النيريـــــن
وهـــل يدنو مـــن الآمال صـــب — بعيـــد بـــين هـــدب الناظريـــــن
فـــان يكن الجمـــال حباك ملكـــا — وأيـــد ناظريـــــك بحاجبـــــين
فمـــا أرضى لملكـــك أن كســـرى — وقيصـــر فى مقـــــام الحاجبـــين
تخبرنـــــى وفى عطفيـــك لـــــين — فعالك عـــن فـــؤاد غيـــر لـــــين
واعـــرف فى لحاظـــك مـــا رأت فى — ظبـــى الثقفـــى قاتلـــة الحســـين
وأتـــى فى الهوى بيـــدى ومالـــى — على فتكـــات لحظك مـــن يديـــن
عـــلام الغـــــب عنـــى لا اغبـــت — بـــك الخيـــرات هاميـــة اليديـــن

وفى هذه اصطلاحات فقهية ، وتوريات بشخصيات أدبية وتاريخية ؛ جاهلية واسلامية . وهى عادة منه لا تكاد تخلو منها أشعاره المختلفة .

ومن قطعه الغزلية قوله :

ظفـــرت بلثمهـــا فبـــدا احمـــرار — بوجنتهـــا يزيد القلـــب وجـــــدا
فأغراهـــا بـــى الواشى فظلـــت — تلـــوم ولم أكـــن ممـــن تعـــــدى
فما كانـــت ســـوى قبـــل بفيهـــا — جنـــين أقاحيـــا وغرســـــن وردا

وقولـــه :

مهفهـــف القـــد بديـــع الحـــلا — يعطـــو بجيـــد للرشـا الخـــاذل
رمـــى بنبـــل اللحـــظ فى مهجـــة — غادرهـــا بشغـــل شاغـــــل

وانعطف الصدغان فى خده ... ردك لأمين على نابل (1)

وقوله موريا :

من مبلغ الرشأ الذى ما عن لى ... صبر ولا لى عن هواه براح
ما لاح خدك والسواد شعاره ... الا انثنيت ودمعى السفاح

وقد استعان فى هذا بقول الفتح ابن خلقان :

لله ظبى من جنابك زارنى ... يختال زهوا فى ملأ مراح
ولى التمسك فى هواه كأنه ... مروان خاف كتائب السفاح

وقوله :

فخلعت صبرى بالعرا ونبذته ... وركبت وجدى فى عنان جماح

فهذا نموذج كاف من مقطوعاته الغزلية وربما كانت القصيدة السالفة من قبيل الاخوانيات كما يشعر بذلك البيت الاخير منها الوادع الداعى بالخيرات .

ومن شعر الشريف الغرناطى ، هذه القصيدة التى انشأها لما نبت به سبتة فغادرها الى الاندلس ، وهى :

يا أيها الراكب المزجى ركائبه ... يحثها السير بين الغور والأكم
ابلغ بسبتة أقواما ودونهم ... عرض الفلا وذميل الأينق الرسم
ولج ذى ثبج طام كأن به ... أعلام لبنان او كثبان ذى سلم
الوكة عن غريب داره تقذف ... مرماه لا صدد منهم ولا أمم
انى باندلس آوى الى كنف ... للمجد رحب وظل للعلى عمم
وأن غرناطة الغرا حللت بها ... فصرت من ريب هذا الدهر فى حرم
ليست كأخرى بلى ربع بها وجفا ... رهط وأخفر ما للمجد من ذمم
وأنكرتنى مغانيها وما عرفت ... الا بقومى فى أيامنا القدم
لولا مضارب من آل النبى بها ... وهن ما هن من طيب ومن كرم

---

1) نظر فيه الى قول امرىء القيس .

نطعنهم سلكى ومخلوجة ... كرك لأمين على نابل

وقد صحف هذا وما قبله بالمرتبة .

وفتية من بنى الزهراء قـد كرموا لهـم أواصر مـن ود ومن رحـم
اقلـت لاجادها صـوب الحيا أبدا الا بناقـع سـم أو عبيـط دم
لا يسفحن عليها الدمع من جـزع يوما ولا يقرعـن السن من نـدم
ما ضرنى أن نبا بى أو نأى وطنبى منها ولى شرف البطحاء والحـرم

فهذه القصيدة صدرت عن هذا الشريف ، طليقة من كل تصنع ، صادقة عما يجيش به مصدره من هواجس وأحزان بالغة ، والبيتان الاولان تقليديان بدويان ، انطلق أولهما من قول الحماسى :

يأ أيها الراكب المزجـى مطيتـه سائل بنى أسد ما هـذه الصوت

والثانى الذى يجعل بينه وبين سبتة « عرض الفلا وذميل الأينـق الرسم » صارخ بهذه البدوية الصحراوية ، التى لا نجد لها حقيقة لا من ناحية سبتة ، ولا من ناحية غرناطة ، فهو اذن امعان فى التقليد للقديـم السحيق ، وكأنه ما تنبه الا بعد ، حيث جاء وصف البحر الذى ركبه .

وعلى كل حال ، فانه فى هذه القصيدة ، يبعث بألوكته الى قومـه بسبتة ، يذكر أنه وان كان غريبا فى غرناطة ، فهو قد آوى الى كنف مـن المجد رحيب واستظل بظل للعلا ظليل ، فصار فى غرناطة فى حرم من ريب الدهر ، فليست هذه كتلك بلى ربعها وجفاه قومها ولم يرعوا ما لـه مـن ذمم بها ، فأنكرته مغانيها ولم تكن فيما قبل تعرف الا بقومه الحسنيين ، الحموديين الذى رفعوا شأن سبتة الى أوج الشهرة والحضارة فكانـت العاصمة الثانية للادارسة ، أعادت اليهم مجدهم التالد .

وفى عهده كان الاشراف الحسينيون ، أصحاب الحظوة بها من قبل الدولة المرينية ، فلعلها كانت قد انصرفت عن الحسنيين الى هؤلاء ، ولهذا لم نعثر لأديبنا عـلى أثارة مـن القول فى هـؤلاء المرينيين ، بخـلاف النصريين الذين هاجر اليهم .

فمن شعره فيهم تهنئته لهم بمناسبة موت الطاغية النصرانى الـذى كان محاصرا لجبل طارق ، سنـة 751 ، وان كان ذلك الجبـل تحـت حماية الغزاة من بنى مرين .

وله غير هذا كقصيدة رثى بها صديقه ابن هانىء السبتى ، ومطلعها :

سقى الله بالخضراء أشلاء سودد تضمنهن الترب صــوب الغمائـم

وكانت له معه مطارحات شعرية ، قال خاطبت ابن هانىء بقصيدة أولهــا :

هــات الحديــث عن الركــب الذى شخصا

واجابنى بقصيدة على رويها أولها :

لولا مشيب بفودى للفؤاد عــصى أنضيت فى مهمه التشبيب لى قلصا

(وهى طويلة) .

وأجابه كذلك عن قصيدة مهموزة بأخرى أولها :

يا أوحد الأدبــاء أو يا أوحد الــ ــفضلاء أو يا أوحــد الشرفــاء

(وهى طويلة كذلك) .

هذا ما يتصل بشعره أما نثره فمنه فى مقدمة شرحه لمقصورة حازم .

أما بعد ، فانى لما تأملت مقصورة الامام الاوحد ، أبى الحســن حازم بن محمد بن حسن بن حازم الانصارى القرطاجنى ، ألفيتها تجمــع ضروبا من الاحسان . وتشتمل على أفانين من البيان ، وتتضمن فوائد جمة من علم اللسان ، وتشهد لمنشئها بما انتظمته من غرائب الانواع ، واتسمت به من عجائب الابداع ، فانه سابق الميدان ، وحائز خصل الرهان ، لاجرم انها بما أورد من الفوائد ، وقيد من الأوابد ، ووصف من المعاهد ، وضرب من المثل الشارد ، وأومأ اليه من الوقائع والمشاهد ، وانتحاه من المنازع البيانية والمقاصد ، ديوان من دواوين العرب أودعه كثيرا من تواريخها ، وجمع فيه من المعارف ما يعترف لقدمه برسوخها . .

فهذا نموذج من نثر الشريف الفنى ، كما نرى له نموذجا آخر ، فيما قدم به ديوانه ، الذى أهداه الى تلميذه ، ابن الخطب ، وهو قوله « هذه أوراق ، ضمنتها جملة من بنات فكرى ، وقطعا مما يجيش فى بعض الاحيان فى صدرى ، ولو حزمت لاضربت عن كتبها كل الاضراب ولزمت فى دفنهــا واخفائها دين الاعراب ، ولكنى آثرت على المحو الاثبات بقولهم : ان أحسن

ما أوتيه العرب الابيات . واذا عرضت على ذلك المجد وسألها ، كيف نجت من الوأد ؟ فقد آويتها من حرمكم الى ظل ظليل ، وأحللتها من فنائكم الى معرس ومقيل ، وأهديتها علما بأن كرمكم بالاغضاء عن عيوبها كفيل . فاغتنم قليل الهدية منى ، جهد المقل غير قليل (1) فحسبها شرفا أن تبوأت فى جنابك كنفا ودارا وكفاها مجدا وفخرا أن عقدت بينها وبين فكرك عقدا وجوارا » ...

وهكذا نجد نثره ، على بساطته فى المعانى ، مثقلا بالمحسنات البديعية ، التى تأخذ بتلابيب الجمل والفقر ، وتتشبث كل التشبث بهذه السجعات المرهقة التى تضطره أحيانا الى المزاوجة العقيمة ، كما نجد فى قوله « انتظمته من غرائب الانواع ، واتسمت به من عجائب الابداع » وقوله « أورد من الفوائد ، وقيد من الأوابد » وغير مما نجده فى مقدمة شرحه السالف الذكر .

هذا من ناحية النسج الذى اعتمد على الالفاظ اكثر من اعتماده على المعانى فى تلك المقدمة .

وفى تقديمه لديوانه المذكور ، فقد ثبت صوره على قضية معروفة فى التاريخ الجاهلى للعرب ، وندد بها القرآن مبرزا بعض حيثياتها . وهى قضية الوأد للبنات . وقد انبثقت هذه ، من قوله السابق « هذه أوراق ضمنتها جملة من بنات فكرى » فكانت هذه البنات من فكرة محدوة بتداعى المعانى الى بنات الاعراب ودينهم فيها ، وأخيرا جعلها ناجية بنفسها لاجئة الى حرم مهداها ، فكان لبنات أفكاره شرف وقد عقد عليها فكر المهداة اليه عقد الزواج أو الجوار كما قال متحاميا الزواج ، لما يكون به نسل ونماء ، ربما يعرض عنهما ذلك الفكر وهو فى شامخ جنابه .

وهذا التقديم من ناحية أخرى ، تنبىء لهجته عن أن ابن الخطيب ، كان آنذاك قد تبوأ متعده من السيادة العلمية وغيرها . . وكأن تسمية الديوان بجهد المقل ، ما نشأت الا من هذه المقدمة التى خفضت جناحها لابن الخطيب التلميذ الخطير ، ففيها كما تقدم « ان جهد المقل غير قليل » .

والديوان يعد كغيره من باقى تواليفه الأدبية مفقودا ، وكل ما نعرفه

---

(1) وقد سمى هذا الديوان « جهد المقل » .

عن شعره ، ما ذكر فى نحو المرقبة والاحاطة والنثيرين والنفح وما خلل بـــه شرحه المذكور من نماذج تأتى ، غالبا ، ضمن تمثيله بأشعار المتقدمـــــين والمحدثين .

ومن شروح الشريف ما تناول به نظم الخزرجية لابى عبد الله محمد الخزرجى الاشبيلى الاصل الفاسى مولدا السبتى دارا ووفاة عام 610 أو بالاسكندرية مقيما فيها .

ومن ضمن شروحه تقييد له على « درر السمط فى خبر السبط » لابـــن الأبار شرع فيه كما فى الديباج ، ولا يدرى هل أتمه . وكانت النزعة الـــى التشيع ، كما يبدو ، قد عادت الى الظهور فى الاندلس . وكان رئيـــس الكتاب الشيخ العلامة أبو الحسن ابن الجياب ، قد شهر بالتشيع لآل البيت الكريم ، كما يقول النباهى . وسنرى فى العصر السعدى أن المنصور قد كافأ الماغوصى على شرحه للكتاب المذكـــور ، لنفس البواعـــث التـــى سنتكلم عليها بعد .

ومن أعلام الادب فى النصف الاول من القرن الثامن من معاصرى الشريف الغرناطى أبو محمد عبد المهيمن الحضرمى السبتى ، المولود بها عام ستة وسبعين وستمائة والمتوفى بتونس عام تسعة وأربعين وسبعمائة .

تقلد هذا الرجل مناصب هامة بالاندلس والمغرب وتوفى وهو من أكابر رجال القلم للسلطان أبى الحسن المرينى (1) وقد جمع فى أدبه بـــين الشعر والنثر ، من الاول قوله فى النسيب :

كانوا نعيـــم فؤادى والحيـــاة له ... والآن كـــل وجود بعدهـــم عـــدم
بانوا فعـــاد نهـــارى كله ظلمـــا ... وكـــان قربهم تمحى بـــه الظلـــم
والعيـــن منـــى لا ترقـــا مدامعها ... كأنهـــا سحب تهمـــى وتنسجـــم
تبكى عهـــود وصال منهم سلفـــت ... كأنمـــا هـــى فى انسانهـــا حلـــم
لئن ضحكت سرورا بالوصال لقد ... بكيـــت حزنا عليهـــم والدموع دم
هم علمونى البكا ما كنت أعرفـــه ... يا ليتهـــم علمونى كيـــف أبتســـم
واسترضعونى لبان الوصل فى صغرى ... حتى اذا علقت روحى بهم فطموا

(1) بعد أن كان كاتبا لابيه عثمان ، كما فى « مستودع العلامة » الذى حققناه ونشرناه فى الستينيات .

ولا شك أن البيت الاول مأخوذ من بيت المتنبى :

يا من يعــز علينــا أن نفارقهــم   وجداننا كل شىء بعدكــم عــدم

وجمال هذه القطعة قائم على التضاد بين الحالــين ، بين الحيــاة والعدم ، والبعد والقرب ، والنهار والظلام ، والضحك والبكاء والسرور والحزن ، وتعليم البكاء وتعليم الابتسام ، والرضاع والفطام ، والصغــر والكبر ، وما عدا هذا فالبيت الذى يستوقف النظر هو :

تبكى عهود وصال منهم سلفــت   كأنمــا هــى فى انسانهــا حلــم

حيث أسند الحلم لانسان العين ، كما هو المتبادر ، والا فلا يسترعى نظرا ان كان المقصود بانسانها صاحبها ، ولا لزوم لذكره هنا ٠

ومن حر شعره مطلع قصيدة له فى المدح ، وهو :

تراءى سحيرا والنسيــم عليــل   وللنجم طــرف بالصبــاح كليــل
وللفجر نهر خاضه الليل فاعتلــت   شــوى أدهم الظلماء منه حجــول
بريــق بأعــلى الرقمتــين كأنــه   طلائع شهــب فى السماء تجــول
فمزق ساجى الليل منــه شرارة   وخــرق ستــر الغيم منــه نصول
تبسم ثغر الروض عنه ابتسامــة   وفاضت عيــون للغمــام همــول
ومالت غصون البان نشوى كأنهــا   يدار عليهــا من صبــاه شمــول
وغنت على تلــك الغصون حمائــم   لهــن حفيــف دونهــا وهديــــل
اذا سجعت فى لحنها ثــم قرقرت   يطيــح خفيــف دونهــا وثقيــــل

فهذا مطلع جميل لولا هذه التقليدية بأعلى الرقمتين ، وهو ما لاكه الشعراء ، فيما قبل ، وذكر كذلك فى البيتين اللذين أولهما :

رأت قمــر السمــــاء فأذكرتنــى   ليالــــى وصلهــا بالرقمتــــين

كما أن المصرع الاخير « يطيح خفيف دونها وثقيل » مما نزل الى تعابير العوام فى هذا الطيح ، أما الخفيف والثقيل فاصطلاح للمغنين ، كان فى العصر العباسى ، ولا ندرى هل استمر معروفا عندنا لعهد الحضرمى ، أم كان ذكره من قبيل التقليد كما هو فى رسالة لعياض سلفت ٠

وبعد هذه الابيات من المطلع نجد أخرى عرف صنيعها عند الشاعــر

ابن دراج بالخصوص ، ولا داعى لعرضها ، الا ما كان من هذا البيت :

وفـوق أنابيـب اليراعة صفـرة تزيـن وفى قـد القنـاة ذبـول

يريد بهذا تشبيها ضمنيا عقده بينه ، وقد نحل من ممارسة الهوى وشحب لونه ، وبين ما ذكر فى البيت ، من صفرة اليراع وذبول القنا .
والقصيدة طويلة فى نيف وخمسين بيتا ، جاء فيها قوله :

ولا روضه بالحسن طيبة الشـذا ينـم عليهـا اذخـر وجليـل
وقد أذكيت للزهـر فيها مجامـر تعطـر منهـا للنسيـم ذيـول
وفى مقـل النوار للطـل عبـرة ترددهـا أجفانهـا وتحيـل

فهى أوصاف خفاجية لولا الاذخر والجليل ، المعروفان فى نباتات الصحارى ، وليس منها صاحبها وبعدها البيت :

فغرناطـة مصـر وأنت خصيبهـا ونائـل يمنـاك الكريمـة نيـل

ولا شك أنه عمل فيه ، قول ولادة لابن عبدوس :

أنـت الخصيـب وهذه مصـر فتدفقـا فكلاكمـا بحـر

والمعروف لدى الغرناطيين ، أن نهرهم « شنيل » ما هو فى اسمه الا مركبا من النيل والشين المختزل من أى شىء . ولو كان الممدوح عالما ببيت ولادة ، وما قيل فيه ، لما قبل هذا التحويل اليه ..

ثم البيت :

فقيـدت أفـراسى بـه وركائبـى ولـذ مقـام لـى بـه وحلـول

ماخوذ من قول المتنبى :

وقيـدت نفسى فى ذراك محبـة ومن وجد الاحسـان قيدا تقيـدا

وصنيع القصيدة ناظر فى عمومه الى لامية السموأل .

ومن مطالع أمداحه ما جعله فى الحنين الى موطنه سبتة ، كما فى قوله :

سقـى ثـرى سبتة بـين البـلاد وعهدها المحمود صـوب العهـاد
وجـاد منهـل الحيـا ربعهـا بوبلـه تلـك الربـى والوهـاد

فكـــم لنـــا فى طـــور سينائهـــــا — مـــن رائـــح للانس فى اثر غـــاد
وعينهـــا البيضـــاء كـــم ليلـــــة — بيضـــاء فيهـــا قد خلت لو تعـــاد
وبالمنـــــارة التـــــى نورهـــــــا — لكـــل مـــن ضـــل دليـــل وهـــاد
نـــروح منهـــا مثلمـــا نغتـــــدى — للأنـــس والافـــراح ذات ازديـــاد
فى فتيـــة مثـــل نجـــوم الدجـــى — ما منهـــــم الا كريـــــم جـــــواد
ارتشفـــوا كـــأس الصـــفا بينهم — وارتضعوا أخلاف محض الـــوداد
ويالايـــــــــــام ببنيولـــــــــش — لقد عدت عنهـــا صروف العـــواد
أدركت من « لبنـــى » بها كلمـــا — لبانـــة وساعدتنـــى « سعـــاد »
ونلت مـــن لذات دهـــرى الـــذى — قـــد شئتـــه وللامانـــى انقيـــاد
منـــازل مـــا ان علـــى مبـــــدل — هـــاء مكان الـــلام فيها انتقـــاد

يعنى أنها منازه ، وهذا المطلع كذلك لم يتخلص فيه من التقليد ، فقد جعل جبل سبتة ، جبل « طورسينا » (1) « ثم استعان من لبنى وسعاد فى تصوير متعه فقال :

ادركـــت مـــن لبنـــى بها كلمـــا — لبانـــــة وساعدتنـــــى سعـــاد

وهو كذلك مستعمل فى هذا تلاعب الالفاظ به ، ففى لبنى لبانة وفى سعاد مساعده ، ولابأس من هذا الاستغلال وبليونش قرية معروفة بجمالها ومياهها المتدفقـــة .

وفيها يقول ابن مجبر أو عياض ، وتقدم ذلك :

بليونـــــش جنـــــة ولكـــــن — طريقهـــا يقطـــع النياطـــــا
كجنـــة الخالـــد لا يراهـــا — الا الـــذى جـــاوز الصراطـــا

ومن تورياته بأسماء الكتب ، وهذا مما امتازت به سبتة فى ادبنا ، قولـــه :

مـــن اغتـــدى موطئـــا اكنافـــه — صـــح لـــه التمهيـــد فى أحوالـــه

---

(1) لعله يريد بطورسينا جبل موسى ، حيث يعتقد بعض الاقدمين ان لقاء موسى مع الخضر كان حواليه ، والحق ان الجبل نسب الى موسى بن نصير ، كما نسب جبل طارق الـــى الفاتح قبلـــه .

وقابـل استذكاره بالمتقى   مـن رايـه المختار مـن [illegible]
وأضحـت المسالك الحسنى لـه   تدنـى تقضيا خطـى اقبالـه
وسار مـن مشـارق الانوار فـى   أدنـى المـدارك الـى آمالـه

وقد تقدم من هذا شىء فى قـول باديه ومعارضره أبـى العبـاس العزفـى :

جمع الصحيحين الوفاء مع الهوى   قلبى وأملى الدمع كشف المشكـل

هذا ما يتصل بشعره ، أما نثره فنكتفى فيه بنموذج من مقامة لـه ، كانت أول ما عرف من مقامات فى أدبنا ، وهى من الفنون التى لم تنـم فيه نمو غيره (1) .

ومهما يكن فهذا نموذج من نثره فى مقامته . التى استفاد فيهـا مما جاء فى قصة من « الف ليلة وليلة » .

برزت يوما لخارج بلد فاس الاشهر ، وانتهيت الى واديها المعروف بوادى الجوهر ، فلم يكن غير بعيد ، واذا بمحفل يرتج بالغيد ، وقد دار بينهن عتاب ، بألفاظ تعجز عنها السنة الكتاب ، بيضا وسمرا ، فى مفاتنة كبرى ، وكاملة وقصيرة ، فى معاطاة كثيرة ، وسمينة ورقيقة ، فى معاتبة خفيفة ، وعربية وحضرية ، فى مجادلة قوية ، وعجوز وصبية ، فى مخاصمة بديـة .

فبينما أنا أنظر فى تلك الوجوه المشرقة ، والقدود المرونقة ، واذا بجارية يغلب ضياء وجهها ضياء الشمس ، فوقفت بين الصفوف وسلمت ببنانها الخمس ، ثم تقدمت وقالت :

الحمـد للـه الـذى جعـل البيـاض طـراز كـل جمـال ، وشرف أهله بالحياء والكمال ، وأعطاهم عزة لا تبيد ، وصير السمر لهم عبيد ، الا وان قلبى جمرة ، هى من معاتبتك يا ذات السمرة ، أعندك

(1) بالرغم من تعرف المغرب على المقامات ، ودراستها وشرحها ، أواخر القرن السادس ، أو أوائل السابع ، بابن الزيات ، مثلا ، شارح مقامات الحريرى ، ربما قبل الشريشى ، وبعده كان منديل يقوم على تدريسها ، كما يأتى ، أما القيروان والاندلس ، فقد عرفتا المقامات ، فى القرن الرابع ، أو أوائل الخامس ، وكان فيها النقد غالبا ، وهذا أيضا عرف فى الشرق ، عند البديع ، الى جانب القصة .

يا سمراء ما عندى ! وليس قدك كقدى ولا خدك كخدى ، جبينى ذو ابتهاج ، وذوائبى كقطع الزاج ، ورشح عرقى كمسك اذفر ، يرشح من تحت البرد والمغفر ، وثغرى أقحوان ، وديباج وجهى أرجوان ، وان أسدلت شعرى المضفور ، فظلام ليل على بياض كافور ، ثم أنشدت :

قـــل للـــذى أزرى باهــــل البياض ... ما أنـــت الا باطـــــل الاعتــــراض
فـــورد خـــدى أبـــدا زاهـــــــر ... فى كل فصــــل فوق خدى ريــــاض
يا حاســـدى مـــت كمـــدا انمـــا ... تجنى المنى من الخدود الفضاض

فتقدمت السمراء وحطت اللثام ، عن وجه شهى الالتثام ، وابلغت فى السلام ، واقبلت تواضعا على رؤوس الاقدام ، فوقفت كالغلام ، وافصحت فى الكلام ، وقالـــت :

الحمد لله الذى خلق الانسان ، فى أحسن تقويم وجعله أفضل الحيوان ، وفرق بين الصور والالسنة والالوان ، وزين الابيض بشعر كالغســـق ، وامتداد الحاجبين وسواد الحدق ، وأجل ما يقف له العاشقون اجلالا ، ويرتجلون فيه الاشعار ارتجالا ، مسكة الخال ، وعقرب الدلال ، ثم التفت الى البيضاء وقالت :

يا اشبه شىء بجبن الروم ، أخرقت حجاب الاشروم ، ما زال طعامك قليل الملح ، وجفنك كثير الرشح ، ولبنك أدى ، وعسلى أنا عدا ، ولونى لون الخمر ، وطعمى طعم التمر ، ثم أنشدت :

الحمـــد لله ليـــس التبر كالورق ... قد احسن الله فى خلـــق وفى خلق
فالجسم منى نضار صيغ منظـــره ... بمسكـــة فغـــدا طيبا لمنتشـــــق
يا مـــن يعيرنـــا باللون ان لكـــم ... جهلا يقود الى الطغيان والحمـــق
كـــم اسمـــر قلبـــه كافورة ولـــه ... من السعادة نجـــم لاح فى الافـــق

فلما فرغت من كلامها ، وما أبدعته من حسن نظامها ، تبرقعت بنقابها وسلمت على الضفين ، وقبلت أسارير الكفين واذا بجارية تتخطى الرقاب ، بعد أن حطت النقاب عن ديباج صقيل ، ورنت بطرف كحيل ، ومالت بقد قويم وردف ثقيل ، فسمعتها تقول اليكم يا ذوى العقول ، فلعلكم تحكمون بينى وبين هذه القصيرة ، فانها عمية البصيرة ، تعيب الكمال ، وهى الطبقة

الثانية من الجمال ثم قالت فى الثناء على ذى الجلال ، وأجادت فى المقال .

الحمد لله فالق الاصباح من بعد الغيوم ، لا اله الا هو الحى القيوم وصلى الله وسلم على محمد نبيـــه الذى ارتضاه لنفســـه حبيبا وخليـــلا وارسله لجميع خلقه نبيا ورسولا ، ثم قالت : أين هذه التى تعيب ما لا يعاب وتدخل نفسها فى الامور الصعاب ، لا تحجب عـــين الشمس بالغربال ، والثعلب لا يقابـــل بالاشبال . يا هـــذه خطا بك الـــى من غيـــر الواجـــب الم تسمعى أن العين ولو علت فوقها الحاجب . فالـــى كـــم يازريعـــة يا جوج وما جوج ، يكون فرسك معى للشر مسروج ، ثم صالت وما اعتدلت فأنشـــدت :

نحـــن قـــوم لنـــا بهـــاء البنـــود	ولدينـــــا تفاخـــــر بالقـــــدود
كـــل زيـــن أرينـــــه بكمالـــــى	وجمالى وغنـــج لحظى وجيـــــدى
واذا مـــا القصـــار قلـــدن حليـــا	صـــار كالدر فى نحـــور القـــرود

فلما أتمت كلامها ، وانهت نظامها ، اذا بالقصيرة أقبلت تجر اذيالها وتواتـــر اقوالها ، فولولت وصاحت ، واعلنت بما فى ضميرها وباحـــت ثم قعدت على أعلا مكان ، وتكلمت بأفصح لسان ، فقالت تخاطب الطويلة يا شقيقة الزرافة، الى كم تطيلين هذه الخرافة، ياناقة العشير، وقصبة النشير وياكاملة الصاد ، وقايلة القصاد ، نحن أهل المعانى الرقاق وفتنة العشاق وعلى منظرنا طلاوة ، ورونق وحلاوة ، فارى لك من الرأى والتدبير أن تاخذى معى فى التقصير ، فـــان الله تعـــالى خلق الكامـــل والمتوسط والقصيـــر على أن القصر والكمال ، انما هو فى الافعال . ثم قعدت على أعلا مكان ، وتكلمت بأفصح لسان فقالت :

الحمد لله الملك الكبير ، الذى ليس له حاجب ولا وزير وصلى الله وسلم على محمد نبيه وعلى آله ما هب نسيم وفاح عبير ، ثم أنشدت :

غـــزلان الانـــــس ذوو القـــصر	وشفـــاء النفـــس مـــــع البـــصر
فيعيــــــش القلــــــب بمنظرهـــا	وتقـــر العـــين مـــن النظـــــــر
واذا مـــا الـــروض أتيـــت فلـــذ	بقصـــار القـــد مـــن الشجـــــر
ايـــاك النخـــــل فـــــان لهـــــا	طـــولا يعديـــك الـــى الغـــــرر

وبينما هما فى طويل الكلام وعريض يتنازعان أبيات القريض ، اذا بضجيج ، كضجيج الناس فى الحجيج ، والناس قد تطاولت أعناقهم وشخصت أحداقهم واذا أنا بقلاع يسوق مركبا موسوقا بالسلاح ، فقلت ما هذه السفينة ، فقيل لى هذه الجارية السمينة ، فدار المجفل عليها كالحلقة ، فقلت سبحان من لا يمل من خلقه فحطت من القلق رداءها ، وغاظت بأعكانها حسادها وأعداءها ، وقد تكلل العرق على جبينها كدر الحباب ، وفتنت بروض خدها ذوى الالباب ، ثم قالت :

الحمد لله باسط الرزق وسابغ النعم المنفرد فى ديموميته بالقدم . والصلاة على خيرته من خلقه سيد العرب والعجم صلاة تنجى العبد يوم المزدحم ثم اعتمدت بكفها على عطفها ، ومالت كالبحر الزاخر ، فقدمت المقال وأخرت المواخر ، وقالت : أين هذه المسفولة الصوت ، الواقفة بين ميدان الحياة وميدان الموت ، المنفوضة اللحم التى حرم عليها كما حرم على بنى اسرائيل الشحم المنغصة العيش الكثيرة الطيش الضعيفة المخاخ الشديدة الفخاخ ، النحيلة من غير علة ، الهزيلة من غير قلة ، كفى يا مسقومة عنى هذه الغرارة ، واعلمى ان على جسمى من الزينة نضارة ، أقتنص بها القلوب من غير حيلة ولا ادارة ، ونهدى وأعكانى ، يغنيان عن الشورة فى اركانى ، ثم أنشدت :

الحمد لله فى سر وفى علن	حمدا يخلصنى من ظلمة المحن
قد نلت ما أشتهى فى الدهر من أرب	فى العقل والقلب منى ثم فى البدن
ان البهاء يزين الخلق منظره	كما تزان حلى الاشجار بالدمن
أرحت قلبى من هم ومن سهر	وساعد السعد بالافراح فى زمنى
يا من تعوذ بالتوبيخ كف فما	يشبه العجف فى الانعام بالسمن

وذهبت لتجلس ، فما استقر بها القعود ، الا وجارية وقفت كأنها كوكب السعود ، تنتهج باللطف والابتسام ، وتضطرب كما يضطرب الحسام ، وتبسم عن ثغر كالآل ، ريقه كالعذب البارد الزلال . ثم قالت : الى الى يا معشر العشاق ، فعلى مثلى تندب الاطلال ويجرى الدم المراق ؟ وحمدت الله عز وجل بقولها :

الحمد لله الذى أودع الحكمة فى النفوس الرقاق ، باعث الخلق

وناشرهم يوم التلاق والصلاة والسلام على سيدنـــا محمد المخصـــــوص بالحوض والشفاعة واللواء والبراق ما حدا حاد وساق الركب اليـــه مشتاق ، يامن حضر فى مجلسنا ، ولاذ بأنسنا أسمعت مقالة هذه العاهة ، وما ظهر منها من قلة النزاهة . هذه التى تفتح فمها مثل التمساح ، وتبلــع القرع وتخرجها صحاح . وان قرب منها الرجل لمقصد أوسول ، عرق فى بحر بسول (1) قلبها بالعلف هائم ، كما تفعل البهائم ، ثم أبرقت وأرعدت ، وقالت فأنشدت :

يا عاهـــة ليـــس لها مـــن خـــلاف	هـــواك قد أنســـاك يوم التـــلاق
والحـــشر والنـــــشر وأهوالـــــه	وخجلـــة العبد وخـــوف المســـاق
لو كـــان للقلـــب بــــه فكـــــرة	لكـــان للجسم ضنـــى واحتـــراق
نحـــن رقـــاق فى النفـــــوس ولا	يـــرق قلـــب الصــــب الا وراق

ثم قالت : وما حيلتك أيتها العاهة اذا جاوزت الاربعين وأتتك العلل بجيش ظاهر غير كمين . وقد تدلت منك الحواصل ، وهجرك الصديـــــق المواصل وتكمشت منك الحلاقم ، وتفرقت على أعضائك البلاغم وتعطلت منك القوائم ، فلا تتحركين الا بعجلة ودعائم — وانشدت :

اذا رق الحسام قضـــى وأمضى	وخـــط لجـــده حيـــــد النفـــــاق
وان رق الزجـــــاج وراق فيـــــه	رقيـــق الخمـــر لذ لكـــــل راق
فتبـــصره نحيـــــــلا فى نحيـــــــل	ويعظـــم فعاـــه عنـــد المـــــذاق

ثم انى سمعت صوتا يصيح ، ويقول بلسان فصيح :

مهـــلا رويدا يا جميـــع مـــن حضر	حتـــى أقـــول بـــين بـــدو وحضر
مـــن هـــن ربات الخدود الناضره	ذات الخيـــام أو نســـاء الحاضره
نحـــن جوار مـــن بنات الباديـــه	ملامـــح الحســـن علينـــا باديـــه
فـــان بـــدت منكـــن لـــى مكلمـــه	انـــا التـــى أردهـــا مكلمـــــه

ثم حطت اللثام عن وجه يشبه البدر ليلة التمام وقالت :

الحمد لله الذى اموره بين الكاف والنون ، الحاضر الناظر القاهـــر

(1) من سبتة حيث الساحل الشرقى لها ، يقابله بحر الرملة ، حيث الساحل الغربى انظر خريطتنـــا .

الذى بيده ملكوت كل شىء واليه ترجعون . وصلى الله على النبى الذى نور الافئدة فابصت البصائر وقرة العيون . وانشدت :

قد مــال الحسن الــى العــرب	نحــن الاقمــار بــــلا كــــذب
فلنـــا أرج ولنـــــا غنــــج	ولنـــا دعــج بالسحــر حـــبى
ولنـــا كـــرم ولنـــا همـــم	ولنـــا ذمـــــم للمكتئــــب
ولقاصدنــــا فينـــــا أرب	فيمـــا يرجــــوه مــــن الارب
قــد شرف محتدنـــا وكفــــى	أن المختـــار مـــن العـــرب
صــل ما دمــت عليــه تفـــزا	يــوم الاهــوال مــن الكـــرب

ثم قالت : نحن ربات القلوب ، ومنتهى غاية كل مطلوب ، جمالنا أبدع جمال ولساننا أفصح لسان . فالعربية بهذا البيان قمر فى شكل انسان .

وسكتت فاذا بجارية حضرية ، ذات جمال فائق وهمة سنية ، نادتها : كفى عن الجدال ودعى هذا الاحتيال ، فان من بالمعاطاة يلوذ ، كمن يدخل بجهلة فى زقاق غير منفوذ .

اياك أن تذكرى فى هذا المحفل نسبا أو قبيلا ، وان أردت تفتحى للحرب بابا فانا على السبيل . واعلمى ان رعيان الجمال ، لا يفتخرون لا بحسن ولا بجمال ، ثم قالت :

الحمد لله الذى فضل على البادية الحاضرة واعطاها الراحة فى الدنيا وأعاننا على طريق الآخرة ، وخصنا باحسن الملابس وأيمن المواطن ، وأمن قلوبنا فى الظاهر والباطن وشحنا بالحلى والحلل ، وأسكننا فى القصور والدور فى ظل الحجب والكلل ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، عدة للقائه يوم تكون النفوس حاضرة ، والوجوه الناضرة الى ربها ناضرة (1) وصلى الله على محمد وعلى آله وأصحابه وأصهاره وأزواجه وحزبــه وأنصاره ، وقالت :

ما اعطيت الهمة السنية الا للجارية الحضرية ، خدى مورد ، ونحرى مفند ، ولا يرى صدرى العابد الزاهد الا تنهد ثم أنشدت :

---

(1) ضمن قوله تعالى « وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة » .

الا انما الحسن حسن الحضر — علينا ومنا وفينا ظهر
فان كنت يا هذه نجمة — بأعلى السماء فانى قمر
بسحر الجفون وغنج العيون — أسل القلوب كسل الشعر
ومن ليل شعرى ظلام المسا — ومن وجنتى الصباح الأغر

فلما اتمت الحضرية الأبيات ، وقد أفصحت فى المبادى والغايات ، اذا بهزة عظيمة فى المحفل ، كاد يرجع أعلاه منها أسفل ، فأتت عجوز قد اشتبكت مع صبية ، وبينهما معاطاة ومجادلة قوية ، والصبية تنادى وتقول : كثر الحمق وقلت العقول ، ياقوم اعدلوا بينى وبين هذه العجوز ، بكلام يتعقل ويجوز فقالت العجوز يا هذه الزمى الوقار ، وكفى النقار ، فأنا أفصح منك وأعلم وأسبق وأقدم ، ولا أحق بالتعظيم ممن له الحق القديم ، ثم قالت :

الحمد لله راحم الشيب ، وساتر العيب وجامع الناس ليوم لا شك فيه ولا ريب أنا من ذوات العهود والمواثق ، أجمع بين المعشوق والعاشق ، وازوج العرائس ، واقبل النفائس ، وأشرف المجالس ، ولا تجرى السفينة الا لمحاولة الرايس . ألجم الرجل بالشكيمة وأرده فى الأركان يدور كالبهيمة ، على اننى أقضى له المآرب والاوطار ، ويجد عندى كل سلعة لا توجد عند العطار . وارفع المؤن والوظائف ، ولا أطالبه بشىء من التكالف . وأقنع منه بالزبيبة ، وأكون له تارة محدثة وتارة طبيبة . فانظرى أيتها الصبية من يكون لك عون ، ولا تمشى على أثرى فتغرقى كما غرق فرعون . فانى أكثر منك بحثا عن المناسب ، واى معرفة وذهن ثاقب . وان شئت مناظرتى ومناضلتى ففكرى فى العواقب . ثم أنشدت :

أمنت الدهر يا بنت الزوانى — وصار لك البها نصب العيان
فكم طفل قضى فى خفض عيش — وأخلف ظنه بعد الامان
اله العرش عمرنى وابقى — سعودى ثم ساعدنى زمانى
جررت الذيل فى زمن افتخارى — ونزهت الجفون بمهرجان
وانى اليوم من ستين عاما — ولكنى أعد من الحسان
فيوم فى المجالس فى اتعاظ — ويوم فى المحافل والمغانى

وكانت العجوز مخضوبة البنان ، مسوكة الفم وليس لها أسنان ،

مصبوغة الحاجب والسالف ، تندب عـــلى ما فاتها فى الزمن السالـــف .
فاجادت فيما قصدت :

اذا جف لين التـــين يحلو مذاقـــه	وأحلى مذاقا فى الثمـــار العجائز
عجزت وليس القلب منى عاجـــزا	وانى لمـــن قد رام حربى مبـــارز
فطعمى ذكى طيـــب النشر عاطـــر	وانســـان عينـــى للمحبين غامـــز

ثم قالت : وان أردت يا هذه المجون والرقاعة ، فانا والله ربـــة الصناعة واستاذة الجماعة .

واذا بالصبية قد أتت تدرج درج القطا على الاقدام ، وتبدلت فاقبلت اقبال العام ، ووردت ورود الغنى على أهل الاعدام ، وهى تزعم بنفسها كما يزعم البطل المقدام ، اذا ساعدته الايام ، ترمق بلحظ نائم ، وتفعل بأشفار فى قلوب العاشقين ما تفعله الصوارم . ثم نادت أيتها العجوز الشمطا ، يا من كشفت بعيبها عن نفسها الغطا . أما قنعت يا عجوز ، يا نشوز . اما كفاك ، ســـد اللـــه بالشوك فـــاك . ، هيهات ، هيهـــات . يا عجـــوز ، يا بنت الدروز . أن يكون لك بعد الهرم طلق ، أو يكون الجديد مثل الخلق . أما رأيت شعرى الفاحم ، وثغرى الباسم ، وغصنى الناعم .

ثم حطت النقاب ، فاخرجت الشمس من تحت السحاب ، وقد سلمت على القوم فأفصحت ، وقالت فاوضحت :

الحمد لله الذى غرس ريحانة الشباب ، فى قلوب ذوى الالباب .
ثم قالت ، وللعجوز أشارت : ويحك لو كنت تبكين على ما مضى ، لكان ذلك أقرب الى الرضى . وأنشدت :

نور الشبـــاب له عـــز وسلطـــان	وللسعـــادة أرجـــاء وأوطـــان
وللمحاسن أوصـــاف تقوم بهـــا	وللحقائـــق آيـــات وبرهـــان
روض الشباب تبدت فيه أربعـــة	ورد وزهـــر ونسريـــن وريحـــان
من قال ان زمان الشيب يشبهـــه	عهد الشباب فذاك القول بهتـــان
ياتىالعجوز ! اندبىماقد مضى أسفا	ترحلـــت عنك أوقـــات وازمـــان
وأنتـــم يا اهيـــل الحســـن كلكـــم	بينـــى وبينكم فى الحـــرب ميـــدان

فلما فرغت الصبية من النظام ، اقبلت الجوارى والعجوز عليهـــن

من أمام . فقالت لها : بورك فيك من صبيه ، وفى الفاظك الزكيه . وسافول بينكن مقال انصاف ، يقتضبها الحق وجميل الاوصاف . أما البيضا ، وذات السمرة ، فتلك فانيذة وهذه تمرة ، وزينة الدنيا ذهب ونقرة . ثم قالــت للكاملة والقصيرة : مسالتكما عندى يسيرة . اذا كانت الصورة الحسنــاء كاملة ، فهى من النعم الشاملة . وعلى هذا فالقصيرة الذراع ، لا يمتد لها فى مجال الفخر باع . فان القصر مذلة ، بسبب هذه العلة . فتأدبى مـــع ذات الكمال ، فانها أبهى منك وامتع للرجال ، ولو كنت بالسوية معهـــا والجمـــال .

ثم قالت للسمينة والرقيقة ، تالله لا أخفى عليكما من معانى الحسن حقيقة فالسمينة رياض وجنان ، والرقيقة روح وريحان . ثم قالت للبدوية والحضرية سأنصف بينكما بحكم الانصاف فى هذه القضية . أما القول الصحيح فكل واحدة منكما فى زيها أملح مليح . فالعربية تصلح للحضر والسفــر ، والحضرية لا تصلح الا للحضر . وأما انا والصبية فحجتها واضحة ، وحجتى غير جلية لانها ابرع منى فى الجمال ، وانفع للرجال . وأما العجوز مثلى فقد هرمت بمضايقة الاجال ، فما لأحد فيها مجال .

ثم انصرف القوم وارتفع العتاب واللوم .

فهذه مناظرة فى نثرها ضعيفة توشك أن تخرج من النثر الفنى فى بعض فقرها . وشعرها الذى هو شعر صاحبها متواضع فى مغلبه .

أما الحبكة فهى مهيضة الجناح ، لم تقو فى الجملة الا فى آخرها عندما انعقدت المناظرة بين الصبية والعجوز .

ويوخذ على تلك الابيات السالفة ما فيها من تكرار الاوصاف مـــرة لهذه وأخرى لتلك فالغنج والدعج وما اليهما يكاد يكون حظا مشاعا بـــين الجميع .

كما يوخذ على تلك الحمدلات وما يتلوها أنها لا تختلف عما عهد فيها بخطـــب الجمعـــة .

وكان من أدباء سبتة المعاصرين للشريف الغرناطى وللحضرمى أبوبكر ابن شبرين المولود بها عام أربعة وسبعين وستمائة ، والمتوفى عام سبعة

وأربعين وسبعمائة بغرناطة التى كان قد انتقل اليها كمعاصره حين آلت سبتة الى صاحبها .

وصفه تلميذه ابن الخطيب بأنه « كان فريد دهره ونسيج وحده .., تاريخيا طلعة أخبار ،،، محققا لما ينقله .., وعلى شأن الكتابة . أشد الناس اقتدارا على الشعر .... وله الأدب الذى تحلت بقلائده اللبات والنحور وقصرت عن جواهره البحور .

ولابن شبرين هذا رسائل وقصائد يغلب على بعضها النزوع الى المعانى الصوفية والدقائق الحكمية ، وفى بعضها زهدية وأمداح نبوية ، وغالبها قاله فى الاندلس ، حيث كان كالعزفيين منضويا الى الوزير ابن الحكيم.

فمن شعره مرثية بلديه ابن هانىء الذى استشهد فى حصار جبل طارق :

قد كان ما قال البريد	فاصبر فحزنك لا يفيد
أودى ابن هانىء الرضى	فاعتادنى للثكل عيد
بحر العلوم وصدرها	وعميدها اذ لا عميد
قد كان زينا للوجو	د ففيه قد جمع الوجود
العلم والتحقيق والت	وثيق والحسب التليد
تندى خلائقه فقل	فيها هى الروض المجود
مغض عن الاخوان لا	جهم اللقاء ولا كنود
أودى شهيدا باذلا	مجهوده نعم الشهيد
لم أنسه حين المعا	رف باسمه فينا تشيد
وله صبوب فى طلا	ب العلم يتلوه صعود
لله وقت كان ينـ	ـظمنا كما نظم الفريد
أيام نغدو أو نرو	ح وسعينا السعى الحميد

الى ان يقول فيه موجها الخطاب :

ايه أبا عبد الالـ	ـه وبيننا مرمى بعيد
أين الرسائل منك تا	تينا كما نسق العقود
أين الرسوم الصالحا	ت تصرمت أين العهود

انعـــــم مســـــاء لا تخطـــــ	ـيــك البشائـــر والسعــود
واقــدم عـــلى دار الرضـــى	حيـــث الاقامـــة والخلـــود
والـــى الاحبـــة حيـــث دا	ر المالــك والقصـــر المشيـــد
حتـــى الشهـــادة لــــم تفتـــ	ـك فنجمـك النجـــم السعيـد
لا تبعـــدن وعـــد لـــو ان	البـــــدء فى الدنيـــا يعـــود
فلئـــن بليـــت فـــان ذكـــ	ـرك فى الدنـــا غـــض جديـــد
تاللـــه لا تنســـاك انـــ	ـديـة العـلا مـــا أخضر عــود
واذا تسومـــــح فى الحقـــــو	ق فحقـــك الحـــق الأكيـــد
جـــادت صـــداك غمامـــة	يرمـــى بهـــا ذاك الصعيـــد
وتعهدتـــك مـــن المهيــــ	ـمـن رحمـة أبـــدا وجـــود

وهى كما ترى مرثية مهلهلة النسج ، تتناكر بعض حروفها ، كما فى البيـت :

تنـــــدى خلائقـــه فقـــل	فيهـا هـى الـروض المجـــود

كما تتسكع بعض كلماتها ، وفى البيت الاخير منها مثل لذلك ، وما افتر البيت :

والـــى الاحبـــة حيـــث دا	ر الملـــك والقصـــر المشيـد

ولابن شبرين مراث أخرى لا تختلف عن هذه ، ويزيدها خفة فى وزنها خفة هذه البحور التى اختارها لها ، وهى لا تناسب الرثاء ، كقولـه فى رثاء أبى جعفر الزيات ، من مطلع فى ذلك :

ايساعـــد رائـــده الأمـــل	أو يسمـــع سائلـــه الطلـــل
يا صـــاح فديتـــك ما فعلـــت	دمـــن الأحبـــاب ومـــا فعلـــوا
فأجـــاب الدمـــع مناديـــه	أمـــا الاحبـــاب فقـــد رحلـــوا

فبحر المتدارك ، كسابقه مجزو الكامل ، مما يستعمل فى الترنـــم والحركة العابثة ، كما فى شواهد العروض :

كـــرة طرحـــت بصوالجـــة	فتلقفهـــا رجـــل رجـــل
مالـــى مـــال الا درهـــم	أو برذونـــى ذاك الأدهـــم

وكذا الشأن بمجزو الرمل الذى رثى به أحد ملوك غرناطة ، فقال مستهـلا :

استقـــلا ودعانـــى طائفـــا بـــين المعانـــى

وزاد الطين بلة فى الموضوع هذه النون المكسورة فى قافيتها .

وبالجملة فطابع أبى العتاهية الذى كان يقلده أو يترسمه غالب عليها وحتى التى لم يستعمل فيها تلك الايقاعات الراقصة ، نجده ينهج فيهـا نهج أبى العتاهية ، كقوله :

عـين بكـى لميـت غـادروه فى ثـراه ملقـى وقـد غـدروه
دفنـوه ولـم يصـل عليـه أحـد منهـم ولا غسـلوه
انما مـات حـين مـات شهيـدا فأقامـوا رسمـا ولـم يقصـدوه

فهى فى نسجها كقصيدة لابى العتاهية ، جاء فيها :

وكـأن بالمـرء قـد يبـ ـكى عليـه اقربـوه
فـاذا استيـأس منـه الـ ـقـوم قالـوا حرفـوه
ارفعـوه غسلـوه كفنـوه حنطـوه
فـاذا صلـوا عليـه قيـل هاتـوا واقبـروه

على أن له أخرى راعى فيها ما يناسب الرثاء ، كالتـى انشدها فى الوزير ابن الحكيم ، وهى فى نيف وأربعين بيتا جاء فيها قوله :

رثيتك عن حب ثوى فى جوانحـى فما ودع القلـب العميد وما قـلا

وهو اقتباس من قوله تعالى « ما ودعـك ربـك ومـا قـلا »

ومن شعره أبيات قالها على لسان أحد الملوك النصريين ، بعد خلعه واستقراره بمدينة المنكب ، استهلها بقوله :

قفـا نفسـا فالخطـب فيه يهون ولا تعجـلا ان الحديـث شجـون
علمنا الذى قد كان من صرف دهرنا ولسنا علـى علم بمـا سيكـون
ذكرنـا نعيمـا قد تقضى نعيمـه فأقلقنـا شـوق لـه وحنـين
وبالأمـس كنا كيف شئنـا وللدنا حراك عـلى أحكامهـا وسكـون

وهكذا استمرت الأبيات فى الاعتبار .

والملاحظ على ما سبق منها اضطراب فى قوله :

« ذكرنا نعيما قد تقضى نعيمه » فاضافة النعيم لا يخفى ما فيها من ذلـــك ...

وغالب شعره فى المراثى وما يناسبها من الاعتبار والمواعظ التى منها ما نجد فى هذه السوانح الغرامية ، التى يستهلها بقوله :

ظعن الصبا ومـــن المحال قفولـــه	ان كنــت باكيـــة فتلـــك طلولـــه
قف عندها خيـــل الدمـــوع ورجلها	وانـــدب شبابا شـــط عنك رحيله
نزحـــت « بثينته وليـــلاه » معـــا	فبكى المعاهد « قيسه » و « جميله »
رعيـــا لجـــيرانـــى وللظل الـــذى	قد كـــان يجمعنا هنـــاك ظليلـــه
هـــذى ديارهـــم فمثلهـــم بهـــا	ان المتيـــم شأنـــــه تمثيلـــــه
وانـــدب اخـــلاء المصافاة الالـــى	فلربمـــا نـــدب الخليـــل خليلـــه
عهـــد أحيلـــت حالـــه فاليـــوم لا	معقولـــــه منـــا ولا منقولـــــه
أشجـــاك مجتمـــع عفـــت آياتـــه	وتعاورتـــه شمالـــــه وقبولـــــه
قد كنت تصغر عـــن سنى فتيانـــه	فاليوم تصغر عن سنيك كهولـــــه
ولقلما تبقـــى الرسوم فويح مـــن	ألهـــاه مـــن هـــذا المتاع قليلـــه
لا يامنـــن ذو مهلـــة فكـــأن بـــه	قـــد يممـــت دار المقام حمولـــــه
ما كان ماضى العيـــش الا خطرة	خطـــرت ووقتنا قـــد تتابع جيلـــه
اسفـــا على زمـــن كريـــم عهـــده	ولت غضارتـــه وغاب سبيلـــــه
ضيعت فى طلب الفضول بكـــوره	لكـــن ندمـــت وقد أتاك اصيلـــه
دع عنك تذكار الصبـــا ان الصبا	رسم يهيـــج لك الغـــرام محيلـــه

وهى قصيدة طويلة غريبة فى بابها ، ينحى فيها بعد عـــلى نفسه ، ويركن الى تلاوة القرآن الذى يقول فيه :

تبـــدو الحقائـــق لـــى اذا رتلتـــه	يا حبـــــذاه وحبـــــذا ترتيلـــــه

وبعد ما يذكر مزاياه وفضائله ، يتصل بالنبى والأمين جبريل عليهما الصلاة والسلام ، بقولـــه :

أدى أمانتــه أمــين ناصــح ... فى السدرة العلياء طــاب مقيلــه
ووعــاه عنــه مصطفى متخيــر ... صحــت رسالتــه وصدق قيلــه

ويستمر فى ذكر النبى وجبريل ثم يعود الى ذكر القرآن بالتبجيل له ، ولحملته والمهتدين بهديه والمرتسمين لآدابه والمقتدين به ويتجه الى المناجاة الالهية ، عائذا بالله مستغفرا مسترحما . وتنتهى القصيدة بهذا البيت :

أنا ذلــك العبــد الظلوم لنفســه ... زلــت به قــدم وأنــت مقيلــه

ولا يوخذ على القصيدة ، الا بعض النفور بالتقارب فى حروف منها ، مثل « هذى ديارهم فمثلهم بها » . ونحو هذا تقدم له فى غيرها ، ومــن التعبير الفقهى قوله : « لا معقوله منا ولا منقوله » وهذا لا غرابة فيه ، فقد كان الرجل فقيها ــ الى جانب أدبه ــ قاضيا .

ومن شعره قصيدة يتشوق فيها الى الديار المقدسة ، ويتندم عــلى ما فرط منه فى حياته الأولى :

خزعبلات صبى مرت وأهل هــوى ... مروا فلا رجعت يوما ولا رجعــوا
فلــو رأيــت رسوم الدار ماثلــة ... ينتابها الظبــى أو يعتالها السبــع
أنكرت ما كنت قبــل اليوم تعرفــه ... وأخبرتــك الليالــى أنهــا خــدع
آه عــلى صبوة جــاد الزمان بها ... وكــل انــس لأيــام الصبا تبــع
ما أسأرت غيــر أشواق وغير أسى ... يحثــه نــدم يشقــى بــه لكــع
سرعان ما ريع ذلك السرب وا أسفى ... فاليوم لا سبــع فيهــا ولا ربــع

يكنى بقوله « لا سبع ولا ربع » عن عــدم الحظ (1) منها بعد ذهاب الشباب ، وما تلاه من الأسى والحسرة . وقد كرر بهذا ما جاء أوائل القصيدة
حاز الاسى بعدهم صبرى بجملتــه ... لا النصف فرضى منه لا ولا الربع

وهذا أيضا تعبير فقهى فى الفرائض والترائك ، فى نحو ما يــــرث الزوج من زوجته ، حالة الولد وعدمه .

ومن زهدياته قوله :

أثقلتنــى الذنــوب ويحي وويسي ... ليتنى كنــت زاهدا « كأويــس »
انما أصــل محنتــى حــب دنيــا ... هى « ليلى » ولى بها وجد « قيس »

(1) وهو متصل بفقه الفرائض والتركات وما يعترى أنصبتها من عول .

فهو فى هذا يتمنى أن يكون مثل الزاهد التابعى ، أويس القرنى ، وينعى على نفسه تعلقها بالدنيا تعلق قيس بليلاه .

ولابن شبرين قطع فى أغراض أخرى ، كالنسيب والاباء ، كما أن له نثرا لا بأس به ، كقوله من رسالة ، يسلى بها صديقا معتقلا :

والوقائع — عافاكم الله — وعاظ ، ونحن هجود وفى الحى أيقاظ ، وما كل المعانى تؤويها الالفاظ ، وهذا الفنا الذى نشأ عن الوقت هـو — ان شاء الله — عين البقيا ، واذا أحب الله عبدا حماه الدنيا ، وما هى الا فتون ، وجنون فنون ، وحديث كله شجون ، « وقد يجمع الله الشتيتين »، ولن يغلب عسر يسرين ، فلاباس ، ويأخطب لا مساس ، وأبعد الله الياس ، و « انما يوفى الصابرون » و « لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون »...

فلا تنبىء هذه الفقر عن مكانة بالغة له فى النثر الفنى ، وقد لا حظنا عليها اقتباسا من بيت شعر مشهور ، ثم اقتباسات عديدة من القرآن الكريم.

وبالجملة فان ابن شبرين يصح أن يضاف أدبه الى الزهديات أكثر من غيرها خاصة فى شعره ، فهو من أولئك المتصوفة بأدبهم . ولا يناهض هذا ما نجده فى شعره من أغراض أخرى ، فلكل مقام مقال ولكل سـن منطقه ومجراه ، وقد سبق نحو هذا لابن المرحل وابن خبازة وغيرهما ومن قبلهما رأينا المكفرات للاغماتى والزهديات لسليمان الموحدى .

وهكذا كانت سبتة ، كما رأينا تصطخب بالعلماء والأدباء ، منذ القرن السابع ، بفضل ما انثال عليها من الاندلسيين المهاجرين من بلادهم التـى تعرضت لاكتساح النصارى . بل ان هؤلاء كان منهم من تولى حكمها نزولا من الموحدين لهم ، كما نزلوا لهم عن مدينة الرباط يعمرونها .

وزيادة على ذلك ، فقد صارت سبتة تتعرض لحكم بنى الاحمر ومـد سلطانهم عليها ، فى فترات من هذا العهد المرينى ، فانتقل اليها اندلسيون غرناطيون كما انتقل منها الى غرناطة مغاربة آخرون ، كان فيهم بنـو العزفى وعبد المهيمن الحضرمى وابن شبرين والشريف السبتى ، بعـد ذلك ؛ فنسب الى غرناطة وبها عرف فى القرن الثامن .

ومن الادباء الذين عاصروا الشريف الغرناطى ، أديب بالغ الاهمية

فى فنه ، كان من فاس ؛ نجل أحد علمائها الاعلام : هو منديل بن محمـد ابن آجروم النحوى المعروف ، قال فيه ابن الاحمر ، شيخنا الفقيـه الاستاذ المقرى المصنف الأديب .

توجه هذا الأديب الى المشرق ، سنة احدى وأربعين وسبعمائة ، فأخذ عن علماء به ، مثل أبى حيان الجيانى الغرناطى بمصر كما أخذ عن علمـاء تونس وغيرهـا .

كان ــ كما يقول أبو زكريا السراج ، فيما نقله صاحب الابتهاج ــ شاعرا أديبا مكثرا مجيدا ، منبسطا جميل المجلس من أعجب المقرئين فصاحة وحسن القاء . وكان جل اقرائه مقامات الحريرى ؛ كان فيه أوحد زمانه ، ونبلاء الطلبة يرصدونه ، فلا يسمعون منه لحنة وقد ورد ذكره فيما عدا ما ذكر ، بدرة الحجال لابن القاضى ، ونفح الطيب وأزهـار الرياض للمقرى ، والمسلك السهل لابن الصغير .

ومن شعره قوله ، كما فى نفح الطيب :

يا غائبا كان أنسى رهن طلعتـه   كيف اصطبارى وقد كابدت بينهما
دعـواى أنـك فى قلبى يعارضهـا   شوقى اليـك فكيف الجمع بينهمـا

وفى درة الحجال والمسلك السهل :

يا غائبـا سلبتنى الانس غيبتـه   كيف اصطبارى وقد كابدت بينهما
دعواى انـك فى قلبى يعارضهـا   شوقى اليك فكيف الجمع بينهمـا

ومن شعره قوله فى سيف ادريس الثانى ، المرفوع على مأذنـة القرويـين :

شاموا بفـاس سيف ادريسهـم   فـوق منـار لا لأمـر مخـوف
بل أشعـروا بقول خير الـورى   جنتكـم تحـت ظـلال السيـوف

وله شعر غير هذا ذكر فى « الشعر والشعراء » للنميشى بعد ذكره فى المسلك السهل وغيره . والقطعتان من الشعر المتحذلق المتنمق ، والبيت الثانى من الاولى يطبعه التعبير الفقهى :

دعواى أنـك فى قلبى يعارضهـا   شوقى اليك فكيف الجمع بينهمـا

أما الثانى من الثانية ، فقد ضمنه — واشار الى ذلك — قوله عليه الصلاة والسلام « الجنة تحت ظلال السيوف »

وعلى الرغم من أن الشاعر ، كان مكثرا مجيدا فى شعره ، فما عرف له من الشعر الا قليل جدا ، ومع هذه القلة فانه يدل على شاعرية حق ومن ذلك الابيات الواردة فى « المسلك السهل » لابن الصغير ·

فقد ذكر من شعره ما قاله فى مناسبة عزل قاض وتولية آخر مكانه :

لما تأخر قاضينا النبيه أبو   عبد الاله لأجل السن والشيخ
خفنا يلى بعده من ليس نعرفه   أو من يكون بحكم الشرع غير سخى
فما تقدم الا الأوربى لها   فنقل الأمر فيه من أخ لاخ
كلاهما فاضل عدل رضى ثقة   بحر زكى السجايا غير متسخ
فان اردت قوام الدين تتبعه   فعند بابهما بالعيس فلتنخ

قال قوله : « لاجل السن » مما ينتظم فى حسن التعليل » . وهو فى غير هذا مغسول من مائية التعبير الشعرى الجميل ·

ومن شعره قوله فى تسلية أبى عبد الله بن مرزوق ، وقد حبسه أبو عنان :

يا شمس علم أفلت بعد ما   اضاءت المشرق والمغربا
حجبت قسرا عن عيون الورى   والشمس لا ينكر أن تحجبا

ومما قاله على البديهة ، هذان البيتان المذكوران بقصتهما العجيبة للبلاغيين عند تناولهم الاستعارة فى قوله تعالى : « فاصدع بما تومر » فقد سأله طالب عن معنى الصدع ، وهو يقرىء مقامات الحريرى بصحن جامع القرويين · فلما فسر ذلك له ، صادف أن صدمت مصبحية كانت معلقة فوق رؤوسهم بسارية ، فانكسرت زجاجاتها . عندئذ أطرق مليا ، فقال :

ولما ضربنا فى بيان استعارة   مثالا لصدع الأمر صدع زجاج
أرتنا عيانا صدعه الريح اذ غدت   تكسر فى الجدران كل سراج

وفى اليوم التالى أنشد الحاضرين فى مجلسه ، أبياتا تتصل بالاولين ، هى :

أدرنا مــن الآداب كأســا رويــة لها النقل نقــل والمزاج لها نــص
فبتنــا سكــارى لا نخاف مفنــدا ولا احد بالحــد للسكــر يقتــص
فجدنا على الكيسان من فضل كاسنا فكان لها من فوق أرؤسنا رقــص

ومن شعره قوله فيمن حلق رأسه ممن كان على معهوده يشعر فيه :

ما شانه شيئا حلاقــة راســـه بــل زاد أضعافا بــذاك جمالــه
والشمــع اضوأ ما يكــون ضياؤه للناظريـــن اذا يقــط ذبالـــه

واذكر بهذا ما قاله العنصرى الشاعر الفارسى بمناسبة قط غــلام محمود الغزنوى طرتيه ، من بيتين ترجمناهما هكذا :

متى كــان عيبــا قص طرة أغيــد وفيم الهمــوم من مقيــم ومقعــد
فهذا مجال الخمر واللهو والغنــا فان جمال السرو بالشذب يغتدى(1)

ومن شعره قوله :

بــين كريمــين منــزل وافــر والــود شىء يقــرب النافــر
والبيــت ان ضــاق عن ثمانيــة متســـع بالـــوداد للعاشـــر

وأجمل ما بيدنا من شعره ، هذه القصيدة الواردة فى أزهار الرياض ونفح الطيب ، نسوقها بتمامها لانها فريدة فى بابها ، حيث تتصل ببيئتها ، وتعبر عن هيام صاحبها ، وتعلقه بها ، وهى على قدرة فى الوصف للمناظر الجميلة للطبيعة وتلوينها :

أيهــا العارفون قــدر الصبــوح جــددوا أنسنا بــباب الفتـــوح
جــددوا ثــم أنسنــا ثم جـــدوا نسرح الطرف فى مكــان فسيــح
حيث شابت مفــارق اللوز نــورا وتساقطــن كالاجــين الصريـــح
وبــدا منه كــل ما احمر يحكــى شفقــا مزقتــه أيــدى الريـــح
وكــان الــذى تساقــط منـــه نقــط لحن مــن دم مسفـــوح
واذا مــا وصاتـــم للمصلـــى فلتحلـــوا بموضــع التسبيـــح
وبطيفورهــا فطوفـــوا لكيمـــا تبصروا مــن ذراه كــل سطــوح
ولتقيمــوا هنــاك لمحــة طــرف لتــردوا بهــا ذمـــاء الـــروح
ثم حطــوا رحالكــم فوق نهـــر كــل فى وصفــه لســان المديــح

---

1) أنظر نص البيتين فى كتاب « جهار مقاله » وترجمتنا له .

فوق حافاته حدائق خضر ... ليس عنها لعاشق من نزوح
وكأن الطيور فيها قيان ... هتفت بين أعجم وفصيح
وهى تدعوكم الى قبة الجو ... ز هلموا الى مكان مليح
فيه ما تشتهون من كل نور ... مغلق فى الكمام أو مفتوح
وغصون تهيج رقصا متى ما ... سمعت صوت كل طير صدوح
فأجيبوا دعاءها ايها الشر ... ب وخلوا مقال كل نصيح
واجنحوا للمجون فهو جدير ... وخليق من مثلكم بالجنوح
واخلعوا ثم للتصابى عذارا ... ان خلع العذار غير قبيح
واذا شئتم مكانا سواه ... هو أجلى من ذلكم فى الوضوح
فاجمعوا أمركم لنحو أتى ... جاء كالصل من قفار فيح
عطرت جانبيه كف الغوادى ... بشذا عرف زهرها المنوح
قل لمهيار ان شممت شذاها ... قول مستخبر أخى تجريح
اين هذا الشذى الزكى من القيـ ... ـصوم والرند والغضى والشيح
حبذا ذلك المهاد مهادا ... بين دان من الربى ونزوح
ثم من ذلك المهاد أفيضوا ... نحو هضب من الهموم مريح
فيه للحسن دوحة وروابا ... وانشراح لذى فواد قريح
وحجار تدعى حجار طبول ... غير أن التطبيل غير صحيح
تنشر الشمس ثم كل غدو ... زعفرانا مبللا بنضوح
و « سبو » من هناك يسبى عقولا ... ويجلى لحاظ طرف طموح
وعيون بها تقر عيون ... وكلام يأسو كلوم الجريح
فرشت فوقها طنافس زهر ... ليس كالعهن نسجها والمسوح
كلما مر فوقهن طليح ... عاد من حسنهن غير طليح
فانهضوا أيها المحبون مثلى ... لنرى ذات حسنها الملموح
هكذا يربح الزمان والا ... كل عيش سواه غير ربيح

اذا نظرنا الى لغة هذه القصيدة وجدناها طليقة فى تعابيرها ، غير متكلفة لصنعة فى بدائعها ، وقليلا ما تعرج على التشبيه . وأقل منه الاستعارة المتولدة منه · وأقل من الجميع الجناس والطباق ، كما نرى فى هذه الأبيات :

حيث شابت مفارق اللوز نورا ... وتساقطن كاللجين الصريح

وبــدا منه كــل ما احمر يحكــي شفقــا مزقتــه أيــدي الريـــح
وكــأن الــذي تساقــط منـــه نقــط لحــن مــن دم مسفـــوح
وكــأن الطيــور فيهـــا قيـــان هتفــت بــين أعجـــم وفصيـــح
وغصـــون تهيـــج رقصا متى مـــا سمعت صوت كــل طير صـــدوح
فاجمعـــوا أمركـــم لنحـــو أتـــى جـــاء كالصـــل مــن قفار فيـــح
عطـــرت جانبيـــه كــف الغوادي بشذى عـــرف زهرهـــا الممنـــوح
تنـــشر الشمـــس ثـــم كل غـــدو زعفرانـــــا مبلـــلا بنضـــــوح
و « سبو » من هناك يسبى عقولا ويجلـــى لحـــاظ طـــرف طمـــــوح
وعيـــون بهـــا تقـــــر عيـــــون وكـــلام يأســـو كلـــوم الجريـــح
فرشـــت فوقها طنافـــس زهـــر ليـــس كالعهن نسجهـــا والمسوح
كلمـــا مـــــر فوقهـــن طليـــــح عـــاد من حسنهـــن غير طليـــح

ومن تعابير القرآن :

ثـــم مـــن ذلـــك المهـــاد أفيضـــوا نحـــو هضب مـــن الهموم مريـــح
فاجمعـــوا أمركـــم لنحـــــو أتـــى جـــاء كالصل من قفـــار فسيـــح

فهو من قوله تعالى : « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس » ومـــن قوله « فاجمعوا أمركم وشركائكم » كما أنه استعمل « العهن » القرءانى ، فى قوله :

فرشـــت فوقهـــا طنافس زهـــر ليس كالعهـــن نسجها والمســـوح

ومن ضعف التعبير ما تكرر فيه « ثم » بفتح الثاء وضمها . أما ما سوى هذا فالقصيدة كما تقدم منبثقة عن بيئتها ناعية على غيرها ولو كان من شعر مهيار الديلمى .

وهذه القصيدة أجمل من قصيدة معاصره الثغرى فى تلمسان :

ايهـــا الحافظـــون عهد الـــوداد جـــددوا انسنـــا ببـــاب الجيـــاد

ومن المعاصرين لابن أجروم ممن مثلوا دورهم فى النصف الاول مـــن القرن الثامن حتى منتصفه ، (1) الكاتب الشاعر ، محمد بن عبد الرحمن

1) توفى المعنى هنا عام 753

المكودى الفاسى . قال فيه ابن القاضى فى كتابيه ، درة الحجال ، وجذوة الاقتباس : الفقيه الكاتب ، من بيت بنى المكودى ، وبيتهم بفاس بيت فقه وكتابة وعدالة وثروة ، ولهم زقاق بفاس يقال له ، عقبة المكودى .

ويبدو أنهم توارثوا الكتابة عند بنى مرين ، فذكر فى الجذوة ، بالفقيه الكاتب . وسنرى فيما بعد أن الحفيد أبا زيد عبد الرحمن ، كان من المنضوين الى بعض الوزراء لهذه الدولة .

ومهما يكن فان محمدا هذا كان له شأن فيها ، وكان مقصد العلماء والأدبـــاء (1) .

أما أدبه ففى نفح الطيب عن «الاكليل الزاهر» لابن الخطيب أنه ؛ شاعر لا يتقاضى ميدانه ، ومرعى بيان رف غضاه واينع سعدانه ، يدعو الكلام فيهطع لداعيـــه ، ويسعى فى اجتـــلاب المعانى فتنتج مساعيــــه ...

فمما نسبه الى نفسه وأنشدناه قولـــه :

غرامـــى فيـــك جـــل عن القياس	وقـــد سقيتنيـــه بكـــل كـــأس
ولا انسى هـــواك ولـــو جفانـــــى	عليـــك أقاربـــى طـــرا ونـــاسى
ولا أدرى لنفـــسى مـــن كمـــــال	سوى انـــى لعهـــدك غير نـــاسى

وقال أيضـــا :

بعثـــت بخمر فيـــه مـــاء وانمـــا	بعثت بمـــاء فيـــه رائحة الخمـــر
فقـــل عليه الشكـــر اذ قل سكرنا	فنحن بلا سكـــر وأنت بلا شكـــر

---

1) فى كتاب نفح الطيب ، نقلا عن « نظم اللآلى فى سلوك الامالى » فيما ذكره المقرى الجد ، أن قاضى الجماعة وكاتب الخلافة ، وخطيب جامعها يعنى تلمسان أبا عبد الله محمد بن منصور بن على بن هدية القرشى ، المتوفى سنة خمس وثلاثين وسبعمائة ، كان قـــد رفع الى المكودى هذا ، قصيدة ، لما ورد من المغرب ، أولها :

سرت والدجى لم يبق الا يسيرهـــا	نسيـــم صبا يحيى القلـــوب مسيرها

قال المقرى الجد : وفيها الابيات العجاب ، التى سارت سير الامثال ، وهى قوله :

وفى الكلـــة الحمراء حمـــراء لو بدت	لثكلـــى لولـــى ثكلهـــا وثبورهــــا
فما يستوى مثوى لها من سوى القنا	خيام ومن بيض الصفاح ستورهـــا
وما بسوى صدق الغـــرام ارومهـــا	ولا بســـوى زور الخيـــال أزورهـــا

فأحسن اليه وكلم السلطان ، حتى أرسل جرايته عليه ، قال : وقد شهدت المكودى وهذه القصيدة تقرا عليـــه .

فالبيتان من شعر الخمريات ، الذى قل فى ادبنا ، فلم نجده الا عند فئة قليلة ، غالبهم كانوا على صلة بالاندلس · وكذلك المكودى قدم غرناطة مفلتا من رهق تلمسان حين الحصار . كما قال ابن الخطيب ، الذى كان وجماعة فى منادمة ، دعوه اليها فى « مجلس أعاره البدر هالته ، وخلع عليه الاصيل غلالته ، وروض تفتح كمامه ، وهمى عليه غمامه ، وكأس انس تدور ، فتتلقى نجومها البدور . فلما ذهبت الموانسة بخجله ، وتذكر هواه ويوم نواه ، حتى خلنا حلول أجله ، جذبنا للمؤانسة زمامه ، واستسقينا منه غمامه ، فامتع واحسب ، ونظر ونسب ، وتكلم فى المسائل ، وحاضر بطرف الابيات وعيون المسائل ، حتى نشر الصباح رايته ، واطلع النهار آيته »· ويظهر انه فى لجوئه هذا الى غرناطة توجه الى ابن الخطيب بقصيدة مدح يقول فيها :

رحماك بى فلقد خلدت فى خلدى ... هوى أكابد منه حرقة الكبد
حلت عقد سلوى عن فؤادى اذ ... حالت منه محل الروح من جسدى
مرآك بدرى وذكراك التذاذ فمى ... ودين حبك اضمارى ومعتقدى
ومن جمالك نور لاح فى بصرى ... ومن ودادك روح حل فى خلدى
لا تحسبن فؤادى عنك مصطبرا ... فقبل حبك كان الصبر طوع يدى
وهاك جسمى قد أودى النحول به ... فلو طلبت وجودا منه لم تجد
بما بطرفك من غنج ومن حور ... وما بثغرك من در ومن برد
كن بين طرفى وقلبى منصفا فلقد ... حابيت بعضهما فاعدل ولا تحد
فقال لى قد جعلت القلب لى وطنا ... وقد قضيت على الاجفان بالسهد
وكيف تطلب عدلا والهوى حكم ... وحكمه قط لم يعدل على أحد
من لى بأغيد لا يرثى لذى شجن ... وليس يعرف ما يلقاه ذو كمد
ما كنت من قبل اذعانى لسطوته ... أخال أن الرشا يسطو على الاسد
ان جاد بالوعد لم تصدق مواعده ... فان تنعت بزور الوعد لم يعد
شكوته علتى منه فقال : الا ... سر للطبيب فما برء الضنى بيدى
فقلت ان شئت برئى أو شفا المى ... فبارتشاف لماك الكوثرى جد
وان بخلت فلى مولى يجود على ... ضعفى ويبرىء ما أضنيت من جسدى

وبعد هذا المطلع الغزلى تخلص الى المقصود ، وخرج الى مدح

لسان الدين ، فأطال وأطنب — كما يقول المقرى — وكيف لا وقد ملأ من احسانه الوطاب .

وهكذا فالمطالع يرتكن الى مجانسة الالفاظ ، فى نحو « خلدت فى خلدى » و « حللت عقد سلوى اذ حللت منه محل الروح » كما ارتكن فى المعنى للمقابلة بين الضدين فى نحو :

كن بين طرفى وقلبى منصفا فلقد حابيت بعضهما فاعدل ولا تحد
وكيف تطلب عدلا والهوى حكم وحكمه قط لم يعدل على أحد
ان جاد بالوعد لم تصدق مواعده فان تقنعت بزور الوعد لم يعد

هكذا من ناحية السبك ، أما من ناحية المضمون ، فنجده فى البيت :

وهاك جسمى قد أودى النحول به فلو طلبت وجودا منه لم تجد

يلم بقول المتنبى ، كما الم به من قبله فيما تقدم :

كفى بجسمى نحولا اننى رجل لولا مخاطبتى اياك لم ترنى (1)

والبيت :

ما كنت من قبل اذعانى لسطوته أخال أن الرشا يسطو على الأسد

فمعنى كذلك طرقه الشعراء منذ أن قال على لسان هرون الرشيد ، العباس بن الاحنف أبياتا ثلاثة ، سلف ذكرها وما قيل على نمطها (2) .

---

1) قلده الشعراء فى هذا كثيرا ، سواء منهم العرب والفرس ، وأفرطوا فى ذلك ، ومنه ما ترجمه بديع الزمان الى العربية للشاعر الفارسى المنطقى بقوله :

سرقت من طرته شعرة حين غدا يمشطها بالمشاط
ثم تدلحت بها مثقلا تولح النمل بحب الحناط
قال أبى من ولدى منكما كلا كما يدخل سم الخياط

2) ومن أدباء المغرب الذين اتصلوا بابن الخطيب ، محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشى ، المتوفى سنة ثلاث وأربعين وسبع مائة ومن شعره الذى خاطب به ابن الخطيب ، لما ولى قوله :

وليت فقيل أحسن خير وال ففاق مدى مكارمه بفضله
وكم وال أساء فقيل فيه دنا فمحا محاسنها بفعله

وله شعر آخر ، لا يعلو عن هذه المنزلة ، وقد قال عنه ابن الخطيب ان له شعرا حسنا ، ومن البيتين ندرك أنه كان قد اتصل به فى الأندلس ذلك أن أديبنا ، كان قد انتقل الى الاندلس وأقام بها ، ثم رجع الى المغرب حيث توفى قتيلا فى معركة كانت بين المسلمين والنصارى حول سبتة وقد خلف من تآليفه كتابا فى البديع ، وهو ابن صاحب « الذيل والتكملة لكتاب الموصول والصلة » .

وبعد فان القرن الثامن يعد العصر الذهبى فى الدولة المرينية ، ففى هذا القرن بالذات كان ريعان الشباب للدولة نفسها وللحضارة المغربية عامة والأدب منها خاصة ، اذ أن المرينيين ، كانوا لاول قومتهم بداة رحلا ، اقتعدوا كرسى الملك بعد الموحدين ، وخشونة البداوة لما تزايلهم ، وحاجتهم الى الحضارة تدفعهم الى الاستعانة بسيدات القصر اللائى صرن ازواجهم شأنهم فى ذلك شأن المرابطين الاول ، ولم يكن شأن الموحدين الذين كانوا يرتفقون بعصا الأدب والعرفان منذ قيامهم بالامر . فكان ملوك المرينيين الاول كذلك ، وما كان القرن الثامن يهل عليهم حتى كان من ملوكهم وأمرائهم أدباء يحبرون النثر ويقرضون الشعر ، كعمر بن عثمان بن يعقوب ، وأبى الحسن على وابنيه أبى عنان ، وأبى فارس عبد العزيز ، ثم أبى العباس أحمد ابن أبى سالم (1) واستبحر المغرب بعلمائه وأدبائه ، فلم يقتصر بذلك على عواصمه العلمية الاولى ، بل صرنا نجد علما وأدبا بارعا فى مدن أخرى مثل مكناسة وتازة ، بعد ما كانت مراكش تكاد تستقل بحمل راية التراجم ، خاصة ، فكان منها ابن عبد الملك وغيره ولاول مرة نسمع من الاندلس تقديرا لعلماء المغاربة واعترافا بطريقتهم المثلى ، فهذا القاضى النباهى يكتب الى لسان الدين ابن الخطيب ، الأندلس الى المغرب ، فيقول له فى رسالته :

« وأنتم قد انتقلتم الى جوار أناس أعلام ، قلما تجوز عليهم ، حفظهم الله ، المغالطات » .

وهذا معاصرهما ابن زمرك ، يقول فى طريقة المغرب فى الشعر والكابة :

« ان كتاب المغرب يحافظون فى شعرهم وكتابتهم على طريقة العرب ، ويذمون ما عداها من طريقة المولدين ، وأنها خارجة عن الفصاحة » وهؤلاء جميعا كانوا ضمن الاندلسيين الذين تتلمذوا على أساتذة مغاربة ، وهم بالكثرة التى يكل عنها الاحصاء والعد ، وسبق ذكر بعضهم . ولولا الكارثة التى جرفت عشرات العاماء والأدباء ، فى الطاعون الفتاك بالاندلس والشمال الافريقى ، أواسط هذا القرن ، وانضم اليها الفاجعة

1) كما تقدم وذكر لهم ولغيرهم من الامراء بعض الاشعار المختلفة فى جودتها وموضوعاتها .

التى حلت بأسطول أبى الحسن المرينى فى المياه التونسية ، وكان معــه وجوه العلم والأدب ، فغرقوا جميعهم ، لكنا نرى وجها مشرقا بأكثــر مما اشرق لنا ، هذا العصر بالبقية الباقية من رجال العلم والأدب عندنا ، ويكفى على سبيل المثال ، أن نعد أفرادا منهم ، غمرهم التاريخ وأهملتهم كتب التراجم ، ولكنهم ذكروا لمناسبة خاصة ، جمعت بينهم وبين هؤلاء الاندلسيين، الذين نقتصر منهم على ابن الخطيب وتلميذه ابن زمرك . فقد نشأت بــين هذين الاديبين الخطيرين وبين زملائهما المغاربة علاقة ، جعلتهم يتنفسون فيها بالشعر ويحبرون فيها الرسائل ، بل التآليف أحيانا . وقد سبقهم الجزنائى ، فرأينا من اخوانيته الاندلسية شعــرا ونثرا ، ذكرنا بعضا مــن ذلك ، وبالجملة لقد كان ابن الخطيب القطب الذى يدور فى فلكه كثير من أدباء المغرب لعهده ، ذكر معظمهم فى كتبه العديدة ، وعلى رأسها الاحاطة ، ولم يكن اتصال هؤلاء به مقتصرا عليه وهو ذو الوزارتين بغرناطة ، بل كان كذلك وهو بالمغرب ، وافدا ثم لاجئا ، فكان ابن الخطيب فى المغرب عاملا من عوامل تنشيط الحركة الادبية بين رجاله ، زيادة على المؤلفات التــى ألفها وهو بالمغرب .

ففى أواسط القرن الثامن ، كان تردد ابن الخطيب على المغــرب لا ينقطع ، وما كانت سنة احدى وستين تحل ، حتى وجدناه يقدم عليــه للمرة الثالثة ، وفى قدمته هذه كان فى معية سيده ملك غرناطة ، الغنى بالله محمد المخلوع ، الذى لجأ الى السلطان أبى سالم المرينى ، مقصيا عــن كرسى عرشه ، فأنشد ابن الخطيب السلطان المرينى رائيته المعروفة :

سلا هــل لديها مــن مخبرة ذكــر وهل أعشب الوادى ونم به الزهر

وما اطمأن به المقام ، حتى صار يجوب البلاد طولا وعرضا ، ويخاطب رجالها بالقصائد والرسائل ، فيجيبونه كذلك شعرا ونثرا ، بل كان يناجى معاهدها وأجداثها ، ويصف بلدانها ومدنها وحتى براغيثها ، فى قطع فنية سرعان ما كانت تنتشر بين القوم وفى أوساطهم المختلفة ، مما كان له أثره القوى وصداه البعيد فى تأريث شعلة الأدب وتنوير معالمها فى فاس ومكناس وسلا ومراكش وغيرها من المدن وحتى القرى .

ولا ننس انه فى هذا التاريخ ، كان بالمغرب ابن خلدون التونسى وابن

مرزوق التلمسانى ، فسجلت لابن خلدون قصائد ورسائل طوال ، كما سجلت كذلك لابن مرزوق · ويكفى أن يكون المغرب بملوكه محفزا لابن خلدون على تأليف كتابه ، الذى اهدى منه النسخة الاولى الى السلطان المرينى ، اعترافا منه بالجميل . كما الف ابن مرزوق كتابه « المسند الحسن » استجابة لرغبة السلطان ابى الحسن ، ثم كان ابن الخطيب يؤلف كتابا بوحى من سلطان آخر ، وهو كتاب « أعمال الاعلام » . وهؤلاء جميعا لهم مراسلات ومطارحات فيما بينهم ويصح أن يجعل هذا « الثالوث » مشعلا نيرا للادب فى منتصف القرن الثامن .

لقد وجدنا ابن خلدون سنة اثنتين وستين ، ينشد قصيدة رائقة فائقة ، فى وصف الزرافة التى كانت ضمن الهدية التى وجهها ملك السودان الى السلطان ابى سالم ، فتبارى الشعراء فى وصفهم لها ، وقال ابن خلدون داليته :

قدحت يد الاشواق من زند وهفت بقلبى زفرة الوجد

كما أنشد ابن زمرك الاندلسى ، الذى كان يعمل كاتبا فى الحضرة المرينية ، رائيته :

لولا تألق بارق التذكار ما صاب واكف دمعى المدرار

ومن قبل كانت مناسبة أخرى جعلت ابن الخطيب ينشد نونيته اثر استيلاء أبى سالم على تلمسان ، استهلها بقوله :

أطاع اسانى فى مديدك احسانى وقد لهجت نفسى بفتح تلمسان

واذ قلنا ان ابن الخطيب كان له أثر فى تنشيط الحركة الادبية ، فهذا لا يعنى أنها كانت خامدة فبعثها ، أو قد كسلت فنشطها بل المقصود أنه زادها نشاطا ، وتجاذب أطرافها الممتدة بين رجالها ، الذين كانوا بالكثرة والقوة .

كان ابن الخطيب صديقا لابن مرزوق حينما كان يعمل فى البلاط الغرناطى ، ثم اتصل به ، فى وجهته هذه ، وكانت بينهما مراسلات اشتملت فى عدة اغراض واخوانيات تحتوى شعرا ونثرا · بل ان هذه المراسلات

كانت قد سجلت بينهما من ذى قبل ، حيث كان الغنى قد بعث وهو فى محنة تعرض ملكه لها ، بابن الخطيب الى ابى عنان ، مستمدا له على عدوه . وقد كانت هذه عادة بنى الاحمر مع بنى مرين ، فلما اشرف فى لجوئه الاخيـر الى المغرب ابن الخطيب على فاس ، خاطبه ابن مرزوق بهذه الرسالة ، التى تعطينا فكرة عن نثر ابن مرزوق وشعره ؛ يقول — ابن مرزوق — فيها :

يا قادمـا وافى بكـل نجـاح ... ابشر بمـا تلقـاه مـن افـراح
هذى ذرى ملك الملـوك فلذ بهـا ... تنـل المنـى وتفز بكـل سمـاح
مغنـى الامام ابـى عنـان يممن ... تظفـر ببحـر بالنـدى طفـاح
من قاس جود ابى عنان فى الندى ... بسواه قاس البحر بالضحضـاح
ملك يفيض عـلى العفاة نوالـه ... قبل السؤال وقبـل بسطـة راح
فاجود كعب وابن سعدى فى الندى ... ذكـر محـاه عـن نـداه مـاح
ما ان رايت ولا سمعت بمثلـه ... مـن اريحـى للنـدى مرتـاح
بسط الامان على الانام فاصبحـوا ... قـد الحفوا منـه بظـل جنـاح
وهمى على العافين سيب نوالـه ... حتى حكـى سح الغمام الساحـى
فنوالـه وجلالـه وفعالـه ... فاقـت واعيت السـن المـداح
وبه الدنا اضحت تروق واصبحت ... متلافـة الاحـزان والاتـراح
فانهـض ابا عبد الاله تفز بمـا ... تبغيـه مـن أمل ونيـل نجـاح
لازلت ترتشـف الامانـى راحـة ... مـن راحـة المولى بكل صبـاح

فالحمد لله يا سيدى واخى على نعمه التى لا تحصى ، حمدا يؤم به جمعنا المقصد الاسنى ، فيبلغ الامد الاقصى ، فطالما كان معظم سيدى للاسى فى خبال ، وللاسف بين اشتغال بال ، واشتعال بلبال ، ولقدومكم علـى هذا المحل المولوى فى ارتقاب ، ولمواعيدكم بذلك فى تحقق وقوعه من غير شك ولا ارتياب ، فها أنت تجنى من هذا المقام العلى بتشيعك وجوه المسرة صباحا ، وتتلقى احاديث مكارمه ومواهبه مسندة صحاحا .. ولسيدى الفضل فى قبول مركوبه ، الواصل اليه بسرجه ولجامه ، فهو من بعض ما لدى المعظم من احسان مولاه وانعامه ، ولعمرى لقد كان وافدا على سيدى فى مستقره ، مع غيره ، فالحمد لله الذى يسر فى ايصاله ، على افضل احواله .

هذه رسالة ابن مرزوق ، وكان قد اتصل بالمرينيين ، من عهد ابـى

سعيد بن يعقوب ، فابنه أبى الحسن ، الذى الف فى سيرته كتابه كما تقدمت الاشارة الى ذلك « المسند الصحيح الحسن ، من احاديث السلطان أبى الحسن » ، ثم اتصل بابنه أبى عنان ، فأخيه أبى سالم · فكانت له الحظوة والتوجيه فى الثقافة والسياسة ، ومع هذا فان رسالته هذه لا تنم عن مكانة عظيمة ، لا فى النثر ولا فى الشعر ولهذا لما اثبت له ابن الخطيب ، قصيدة عصماء ، كان قد انشدها بالبلاط النصرى بغرناطة ، قال ، وتنسب اليه القصيدة ، اشارة الى انها لربما كانت لغيره ، ونظمت له شأن الكبراء ، فى الدولة التى كان يعمل بها على ذلك الحين ، نعم ، انه اشتهر بالخطابة ، وصار وصفه بها لازما له ، والخطابة غير الترسل والشعر ·

وعليه فرسالته هذه اتينا بها كنموذج لمجرد التجاوب الذى كان بين ابن الخطيب ، وادباء المغرب وهى الا تكن من تلك النماذج الراقية ، فلابن مرزوق رسائل أخرى مبثوثة فى النفح وغيره الى جانب أشعاره ، مرتفعة عن هذا المستوى بعض الشيء ، وقد حلاه ابن الخطيب نفسه بكثير من النعوت العظيمة فى الشعر والنثر . ولا يهمنا أن كان ابن مرزوق تلمسانيا قد تلقى دروسه وثقافته فى الشرق ، لان نبوغه لم يظهر الا فى بلاط المرينيين الذين اتصل بهم ، وتلمسان نفسها من جملة مملكتهم ·

قلنا ان ابن الخطيب حرك النشاط الأدبى بالمغرب · وكما أشرنا فانه لم يكن وحده مبعثا لتلك الحركه الطيبة التى ظهرت فى الأدب وغيره ، بل كان هناك أعلام آخرون فى الأدب من الاندلسيين ، اتصلوا بالبلاط المرينى وعملوا فيه ، مثل ابن جزى الكلبى الذى وفد على أبى عنان سنة ثلاث وخمسين وسبع مائة ، والذى رتب لابن بطوطة تلك الرحلة العالمية ، التى صارت مرجعا هاما للبحاث فى اقطار الدنيا ، كما تقدم أن اتصل به الاديب البارع ابن زمرك ، وقال كلاهما كثيرا من الشعر الرائق ، وحبرا كثيرا من النثر البالغ ، الذى ما لو جمع لطفحت به الاسفار الضخام ، والى جانب هذين كان ذلك الرجل العبقرى ابن خلدون يكتب ويشعر فى مناسبات شتى ، واغراض متنوعة ، فكان المغرب على ذلك العهد محشر الأدباء ، وعكاظ الشعراء ، من جميع الاصقاع ·

فمن مراسلة قاضي فاس محمد الفشتالى (1) لابن الخطيب قوله مجيبا :

وافت يجـــر الزهو فضلة بردهـــا ... حسناء قد أضحت نسيجة وحدهـــا
للـــه اى قصيـــدة أهديـــــت لــو ... يهدا المعارض نحو غاية قصدهـــا
لابن الخطيب بها محاسن جمـــة ... يلقى الخطيـــب فهاهة فى عدهـــا
سر البلاغـــة عنه أودع حافظـــا ... قد صانه حتى فشا مـــن عندهـــا
فى غير عقـــد نفثتـــه بسحرهـــا ... فلذا أتى سلسا منظـــم عقدهـــا
لـــم أدر ما فيها فقمـــت معـــاودا ... من طرسهـــا أو معلما من بردهـــا
حـــتى دفعـــت بها لابعـــد غايـــة ... باعا تقصـــر فى البلوغ بحدهـــــا
حـــدان مـــن نظم ونثـــر ان مـــن ... يلقاهمـــا يرجـــع بذلـــة عبدهـــا
أولـــى يـــدا بيضـــاء موليها فمـــا ... لـــى قدرة حـــتى أقوم بحمدهـــا
ورفضت تكذيـــب المنى متشيعـــا ... لعاـــى مرآهـــا بصادق وعدهـــا
فبذلت شعرى رافعا من قدرهـــا ... وهززت عطفى رافـــلا فى بردهـــا

خذها أعز الله جنابك ، وأدال للأنس على الوحشة اغترابك ، كنغبة الطائر المتجعد ، ونهبة السائل المسترفد ، رمكية اللحظ ، قليلة الحظ ، وليتنى اذ جادت سحابة ذاك الخاطر الماطر الودق ، وانجاب العشا عن قريحة فكرتى بتقاضى الجواب انجياب الطوق ، أيقنت أنى قد سد على باب القول وارتج ، وقلت هذه السالبة الكلية التى لا تنتج ، لكنى قلت وجـــد المكثر كجهد المقل ، والواجب يكفى فيه الامتثال بالأقل ، فبعثت بها على علاتها، وأبلغتها عذرها ، اذ كتبت عن شوقها بلغاتها ، وهى لا تعدم من سيدى اغضاء كريم ، وارضاء سليم · والله عز وجل ، يصل بالتانيس الحبل ، ويجمع الشمل . والسلام الكريم يخص تلك السيادة ، ورحمة الله وبركاته .

ومن هذه الرسالة نستفيد أن عنصر المنطق صار يتدخل فى أدبنا ، بنحو « السالبة الكلية التى لا تنتج » وكان معروفا بالقرن السادس ولكننا لم نجد له صدى فى أدبنا (2) بل كان صداه فى علم الكلام ، وفيما ألف من كتب ، كالقانون فى النحو للجزولى ·

ومن مخاطبة الفشتالى لابن الخطيب ، ما راجعه به عن رسالـــــة

---

(1) ترجمه فى الاحاطة وأتى برسالته التى أجاب عنها مصدرة بأربعة أبيات ·

(2) ولا شك ان الفشتالى بهذا ، كان مجاريا لابن الخطيب فى قوله بالرسالة المجاب عنها :

« وقـــضى قياس تراثـــه عن جـــده ... أن المقـــدم فيـــه عـــين التالـــى »

أنظر الاحاطة، وجذوة الاقتباس · والفشتالى يشير الى أن النتيجة تتبع الاخس من المقدمات ·

وجهها اليه ، وهو ما يلى :

وايم الله ابرارا لأيم ... لقد جلى كتابك كل غيم
وساهم فى الحوادث من رمته ... ففاز من الوفاء بخير سهم

يا سيدى أمد الله فى أنوار تلكم الطريقة المثلى وبارك ، وجزاها جزاء من ساهم على الحقيقة فى الجلى وشارك ، وصل كتابكم الصادق الصفاء ، الصادر عمن لم يرض من الوفاء باللفاء فبأى من صدع الأيام ورأب ، وبأى فى دفع الأوهام وقرب ، وهو الدهر أبقاكم الله لا تثنى فلتاته ، ولا يبنى على عقد صفائه ، يوم لوى ولائه ، الا كدره بالنقص مفتاته ، هذا ولو حاسب الانسان نفسه لاستحقر ما استعظم . وعلم أن ما لا يرى مما وقى الله أعظم ، فأناه ، ومن جنى عليه فليستغفر الله ، فغفرا اللهم غفرا ، وحمدا على السراء والضراء وشكرا . وسيدى أعزه الله المشكورة اياديه ، المبرورة غاياته الجميلة ومباديه ، وهو سبحانه يعين على واجبكم ، ويشكر ، فى حسن الاخاء جميل مذاهبكم ، والسلام يخصكم (1) .

ورسالته هذه تنزل عن مستوى السابقة، فالتكلف بها عرض جملا منها الى الركاكة مثل « ولا يبنى على عقد صفائه يوم لوى ولائه الا كدره بالنقص مفتاته » . وهو اسم فاعل ما افتات بمعنى فات أو استبد أو حكم على ، والأول أوفق .

وابن الخطيب يشيد بالفشتالى كثيرا ويجعله فى مقدمة مشيخة المغرب فهو « مديد الباع فى الأدب شاعر مجيد ، كاتب بليغ عارف بالتحسين والتقبيح ، من ادركه أدرك علما من أعلام المشيخة » .

ومن شعره ما خاطب به أبا عنان بقوله :

أيا اماما ندى كفيه قد وكفا ... حبلى اعتصاما بحبل منكم وكفى
وكيف أصرف وجه القصد عن ملك ... ما صد عنى سنا بشر ولا صرفا

ومن الذين اتصل بهم من مكناس أبو على الحسن بن عثمان ابن عطية احد الاعلام المعروفين بالمشاركة فى العلوم والفنون ، ومن نظمه هذه الأرجوزة تظلم بها عند أبى عنان :

(1) من « نفاضة الجراب » (تحقيق الدكتورين العبادى والاهوانى) . وقد ورد بأول البيتين « ابراز » وصوابها « ابرار » وكذا « غم » التى أبدلناها « غيم » استظهارا منا أن الصواب ما أثبتناه ، لا غيره ، اذ لا معنى فى الأول ، ولا مناسبة فى الثانى.

خليفة الله أبا عنان ... لا زال فى خير وفى أمان
ملكه الله من البلاد ... من سوسها الاقصى الى بغداد
ويسر الحجاز والجهادا ... وجعل الكل له مهادا
يا أيها الخليفة المظفر ... دونك أمرى انه مفسر
عبدكم نجل عطية الحسن ... قد قيل لا يشهد الا ان أسن
وهو فى أمركم المعهود ... من جملة العشرة الشهود
نص عليه أمركم تعيينا ... وسنه قارب أربعينا
مع الذى ينتسب العبد اليه ... من طالب العلم وبحثه عليه
على « الفرائض » له ارجوزة ... أبرز فى نظامها ابريزه
ومجلس له على « الرسالة » ... فكيف يرجو حاسد زواله
حاشا أمير المومنين ذاكا ... وعدله قد بلغ السماكا
وعلمه قد طبق الآفاقا ... وحلمه قد جاوز العراقا
وجوده مشتهر فى كل حى ... قصر عن ادراكه « حاتم طي »

وهى أرجوزة خفيفة الظل كما نرى ، ذكرت له فى كتاب نفح الطيب ، كما وردت فيه ترجمته وافية .

ويلاحظ على هذه الأبيات النغمة التى كانوا يطربون بها خلفاء الموحدين ، فربما كان أبو عنان ، بعد أبيه أبى الحسن ، يحلم حلمهم كذلك . وقد كانت صلة ابيه بمماليك مصر قوية ، سجل فيها القلقشندى عديدا من الرسائل فى كتابه « صبح الاعشى » .

ومن ادباء مكناس الذين اتصلوا بابن الخطيب ، أبو جعفر الجنان المكناسى ، وصفه ابن الخطيب فى نفاضة الجراب ، بأنه ناظم ناثر وأنه انشده كثيرا من شعره ، وسجل له أبياتا من الشعر جميلة ، كما سجل له بعض الرسائل ، فمن ذلك ما صدر به رسالة ، يهنىء فيها ناقها من مرض .

البس الصحة بردا قشيبا ... وارشف النعمة ثغرا شنيبا
واقطف الآمل زهرا نضيرا ... وأعطف الاقبال غصنا رطيبا
أن يكن ساءك وعك تقضى ... تجد الاجر عظيما رحيبا
فانتعش دهرك ذا فى سرور ... يصبح الحاسد منك كئيبا

ومن شعره ما كان مكتوبا بالدور الخشبى فى الدار التى نزل بهـا ابن الخطيب ، بمكناس ، وهى هذه الأبيات :

أنظـر الـى منزل مـتى نظـرت	عينـاك يعجبـك كـل ما فيـه
ينبـىء عـن رفعـة لمالكـه	وعـن ذكـاء الحجـا لبانيـه
يناسـب الـوشى فى أسافلـه	مـا يرقـم النقـش فى أعاليـه
كأنـه روضـة مدبجـة	جـاد لهـا وابـل بمـا فيـه
فاظهـرت للعيـون زخرفهـا	واوقفتهـا علـى تجليـه
فهـو عـالى بهجـة تلـوح بـه	ورونـق للجمـال يبديـه
يشهـد للساكنـين أن لهـم	مـن جنـة الخلـد ما يحاكيـه

وقد فاتحه ابن الخطيب برسالة تحتوى على أبيات شعرية ، محركا بها — كما يقول — قريحته ، ومستثيرا ما عنده ، فراجعه بالرسالة ، التى افتتحها بالشعر هكذا :

يا خاطـب الآداب مهـلا فقـد	ردك عـن خطبتها ابن الخطيـب
هـل غيـره فى الارض كفء لهـا	وشرطهـا الكفـاء قول مصيـب
أصبـح للشرط بهـا معرسـا	فاستفت فى الفسخ فهل من مجيب

أيها السيد الذى يتنافس فى لقائهويتغالى ، ويصادم بولائـه صرف الزمان ويتعالى ، وتستنتج نتائج الشرف بمقدمات عرفانه ، وتقتنـص شوارد العلوم برواية كلامه ، فكيف بمداناة عيانه ، جلوت على من بنات فكرك عقائل نواهد ، وأقمت بها على معارفك الجمة دلائل وشواهـد ، واقتنصت بشرك بديهتك من المعانى أوابد وشوارد، وفجرت من بلاغتك وبراعتك حياضا عذبة الموارد ، ثم كلفتنى من اجراء ظالـع فى ميدان ضليعهـا ، مقابلة الشمس النيرة بسراج عند طلوعها ، فأخلدت اخلادمهيض الجناح ، وفررت فرار الأعزل عن شاكى السلاح ، وعلمت أننى ان أخذت نفـسى بالمقابلة وأدليت دلو قريحتى للمساجلة ، كنت كمن كلف الأيام مراجعة أمسها ، أو طلب ممن علته السماء محاولة لمسها ، وان رضيت من القريحة بسجيتها ، واظهرت القدر الذى كنت امتحت من ركيتها ، أصبحت مسخرة للراوين والسامعين ، ونبت عن اسمى دواوينهم كما تنبو عن الأشيب عيون العين ، ثم ان أمرك يا سيدى لا يحـل وثيق مبرمه ، ولا يحـل نسـخ

محكمه ، فامتثلت امتثال من لم يجد فى نفسه حرجا من قضائك ، ورجوت حسن تجاوزك واغضائك ، أبقاك الله قطبا لفلك المكارم والمآثر ، وفصـــا لخاتم المحامد والمفاخر .

فهذا شعـــــر ونثر ، لا مأخــــذ فيهما ، الا تمكـــن الفقــــه من ناصية الاول ، وضعف التكرار فى الثانى ، وان كان قليلا جدا .

وكما فى سابقه فان هذا تبدو فيه لمحة من المنطق فى قوله « وتستنتج نتائج الشرف بمقدمات عرفانه » فيضاف الى ما تقدم فى نثر الفشتالى .

قد كتب كلاهما عام ستين أو احدى وستين ، على قدمته الثالثة . وكانت الاولى عام تسعة وأربعين والثانية عام خمسة وخمسين وسبعمائة .

وافتتاح الرسائل بالشعر تقليد عرفـــه الاندلس (1) خصوصـــا عند شعرائه كابن دراج وابن خفاجة ، وعرفه المغرب فى عياض والجزنائى ثم الفشتالى وغيرهم . أما النثر بهذه الرسالة فنجده فى نمطه لا يختلف به عن رسائل الاندلسيين والمغاربة لذلك العهد فهو يكثر من الجمل التفسيرية، التى تؤدى معنى واحدا ، فى صور مختلفة ، مثـــل « يتنافس فى لقائــــه ويتغالى ،،، ويصادم بولائه ويتعالى ، وتستنتج النتائج وتقتنص الشوارد » وفيها من البديع جناس مثل « طالع فى ميدان ضليعها وطاوعها » « ويتغالى ويتعالى » و « ونواهـــد وشواهد « وشـــوارد » و « أمسها ولمسهـــا » و « عيون العين » و « قضائك واغضائك » . كما أن فيها من المقابلات الطباقية ، مثل « أخلدت اخلاد مهيض الجناح وفررت فرار الاعزل عـــن شاكى السلاح » . وفيها من المترادفات ، مثل « دلائل وشواهد » و « أوابد شوارد » و « بلاغتك وبراعتك « و « تجاوزك واغضائك » و « المكـــارم والمآثر والمفاخر والمحامد » . وفيه من الصور المكررة مثل « تقتنص شوارد العلوم برواية كلامه » مع « واقتنصت بشرك بديهتك من المعانى أوابـــد وشوارد » .

أما الشعر فهى أبيات فقهية شكلا وموضوعا ، ركز فيها على شرط الكفاءة فى عقد الزواج ، وكون هذا الشرط صحيحا ، ولهذا فلا محـــل لقبول الخطبة بدونها .

---

(1) كما عرف العكـــس .

والرسالة على العموم — كما رأينا — تنبىء عن باع لا بأس بـه ، وأجمل ما فيها التشبيهات وما اليها ، مثل « من بنات فكرك عقائل نواهد » وفجرت من بلاغتك ،، حياضا عذبة الموارد » و « مقابلة الشمس النيرة بسراج عند طلوعها » و « كلف الايام مراجعة أمسها أو طلب ممن علته السماء محاولة لمسها .

ومن الذين اتصل بهم من أهل فاس ، أحمد بن القاسم القباب ، القاضى الخطيب ، دعاه ابن الخطيب مستضيفا ، فلم يلب دعوته ، ولما عاتبه شعرا ، اعتذر اليه بقوله :

رسولك لم يبن لى عن طريقه	تقرب من حديقتك الانيقه
فلا بأو لدى ولا اباء	ولكن ساء فى الغرض الطريقه
وهب أنى أسأت فكم صديق	تدلل واعتدى فجفا صديقه
فلا عجب فديت لرفق حر	يسكن عند خجلته رفيقه
وانى فيك معتقد ولكن	أرى الايام حاقدة حنيقه
على ذى الود فيمن ود حتى	يفارقه وان أضحى رفيقه

فكان هذا الاعتذار باعثا لابن الخطيب على تأليف كتاب سماه « مثلى الطريقة فى ذم الوثيقة » . فهو كذلك من مؤلفاته بالمغرب .

ومن أعلام مراكش الذين اتصل بهم ابن الخطيب قاضيها ، بعد اغمات وسبتة ، أبو محمد عبد الله الهرغى الزقندرى ، وصفه بكونه سديد النظر جم المشاركة ، فى حديث ورواية وتاريخ ، وجبر وكلام وفقه ، ونظم ونثر .

ومن نظمه ، وله — كما قال — حكاية تدل على ظرفه وحسن عهده :

ولما تجاوزنا زلولا وسبتة	وطاشت حلوم لم تكن بعد طائشه
تيقنت أن لا منزلا بعد سبتة	يسر وأن لا الف من بعد « عائشة »

وفى أغمات كان ممن اجتمع به هناك أبو عبد الله محمد بن القاسم الصيرفى ، ذكره بكونه من الظرفاء النبلاء ، كتب عن أمراء مراكش واختص بنظم المولديات بها ، وقد أنشده من شعره :

من لم يفدك بنفعه أو جاهه	فلأيما استصنعته مخدوما

فلتخــدم الله الــذى مــن أمــه بضميــر صدق يلــق منه رحيمــا

وبعد : فهذه جماعة من الذين اتصلوا بابن الخطيب من المغاربة ، لا نعرف عنهم ، (اذا استثنينا أولهم) شيئا مذكورا فى غير كتب ابــن الخطيب أو من نقل عنه كابن غازى ، فخمول الذكر للمغاربة يعود الــى المغاربة أنفسهم ، ولهذا وجدناهم لا يذكر منهم الا مــن ذكره الاندلــس أو المشرق . وهو حكم نستطيع تعميمه فى جميع من سبق ذكره من رجالات المغرب ، بل حتى المتأخرين والمعاصرين ، فكم منهم من كان علما فتنوسى فضله ، بل نسى حتى اسمه ، فاندثر رسمــه .

ولاشك ان ابن الخطيب قد نشط الحركة الأدبية بالمغرب وخصوصا الاخوانيات منها ، كما نشطها غيره ، ممن ذكر أو سيذكر . بل انه كذلــك انشأ فيه كثيرا من روائع أدبه ، فى قصائده العديدة ، ورسائله المحبرة زيادة على تآليفه التى كان أغلبها مؤلفا بالمغرب .

وهناك آخرون ؛ فمــن الذين خاطبهم شعــرا ونثرا ، الوزير عماد الدولة أبو على عمر بن عبد الله ، كما ذكر ذلك فى كتابه نفاضة الجراب

وصاحب خطة العلامة الأمير الناجم الفقيه أبو سعيد بن رشيد ، ذكر نصه من المنظوم والمنثور فى الكتاب المذكور .

وعميد جبل هنتاتة عامر بن محمد بن على الهنتاتى ، بمــا هو فى النفاضــة مذكــور .

وشيخ العرب مبارك بن ابراهيم بن عطية بن مهلهل الخلطى ، كذلك بما نصه فى الكتاب .

وغير هؤلاء مذكورين بالنفاضة خاطبهم شعرا أو نثرا ، كما نجــد غير هؤلاء فى نفح الطيب ، عند ذكر شيوخ ابن الخطيب .

ونختم ذكر الذين كانوا على اتصال بابن الخطيب ، بشخصية عظيمة كانت أول من يستقبل ابن الخطيب فيقضى عندها ابن الخطيب أياما معززا مكرما فى دارها ، محتفلا به احتفالا عظيما . وهذه الشخصية هى للشريف أبى العباس السبتى الصقلى .

لقد كان بيت هذا الشريف فى سبتة ، له نباهة وشفوف عند المرينيين ،

وكان منهم القضاة والادباء والعمال ، ويهمنا منهم أبو العباس هذا ، الذى قال فيه صاحب الازهار : « امام الادب الذى لا يجاريه الرضى ولا مهيار » ولكن بالرغم من هذه التحلية العظيمة ، فاننا لا نظفر لهذا الاديب الكبير الا بأبيات شعرية ، لا تكفى أن تعطينا صورة كاملة عن ادبه ، وكل ما يمكن أن نستفيد منها ، هو قوة عارضته فى الشعر ، فلقد ذكر المقرى فى كتابيه الازهار والنفح ، أنه ساير قاضى الجماعة بحضرة غرناطة أبا البركات البلفيقى ، الشهير بابن الحاج السلمى ، زمن الشبيبة ، وأن أبا البركات التفت الى الشريف وقال :

ماذا تقول فدتك النفس فى حالى   يفنى زمانى فى حل وترحال

وارتج عليه ، فقال لابى العباس ، أجز ، فقال بديها :

كذا النفوس اللواتى العز يصحبها   لا ترتضى بمقام دون آمال

دعها تجوب القفار والفيافى الى   أن تبلغ السؤل أو تفنى بتجوال

الموت أهون من عيش لدى زمن   يعلى اللئيم ويدنى الاشرف العالى

فهذه القصة تدلنا على ما كان عليه ، من قوة فى الشعر ، وحضور بديهة فيه . وله نظم آخر نجد بعضه بالازهار كذلك مثل قوله :

وثقت بالله ربى   وحسبى الله حسبى

والله كاف وواق   ودافع كل خطب

ولست أخشى اذا ما   وثقت بالله ربى

بلغت فيها مرادى   مهنأ مع صحبى

والخمس تفقأ عينا   لكل حاسد ندب

توفى الشريف سنة ستة وسبعين وسبع مئة .

يضاف الى المغاربة ، من كان يعمل فى الحضرة المرينية ، من رجال الدولة الذين أصلهم من الاندلس وهاجروا الى المغرب والتحقوا بركاب الدولة ، مثل الكاتب الخطيب أبى القاسم عبد الله بن يوسف ابن رضوان النجارى الخزرجى فلقد كاتبه ابن الخطيب سنة احدى وستين ، برسالة استهلها ببيتين ، فراجعه هذا بأخرى كذلك .

أما ما خاطب به ملوك المغرب ، فهو كثير ، ولم نذكرهم لكونهم خارجين عن الغرض المقصود لنا فى هذا التنشيط كما لم نذكر ما ناجى به ابن الخطيب المعاهد والديار من تلك القصائد الطوال ، كقوله فى قصور الموحدين بمراكش ، وعند قبر أبى العباس السبتى بها ، أو قبر المعتمد بن عباد بأغمات ، أو قبر أبى الحسن بجبل هنتاتة .

وهى أبيات تجنح الى العامية ، كان قد أمر بها ، فنقشت على قبة له بداره ، كما نقل ذلك المقرى فى النفح .

وهكذا فقد رأينا أنه على أواسط القرن الثامن كان قد امتزج المغرب بالاندلس امتزاجا كليا ، تمثل فى أولئك الاندلسيين العاملين بالبلاط المرينى ، كابن جزى وابن زمرك وابن رضوان ، زيادة على الذين لجأوا اليه كأبى الحسن النباهى ، وجملة من النصريين بنى الاحمر ووزيرهم ابن الخطيب فكان لهذا أثره فى أدبنا كما وكيفا .

فمن قبيل الاول رأينا قصائدنا بدأت تطول ، فتقارب بعضها المائة بيت ، وتربو بعضها على ذلك ، وقد تزيد على خمسين بيتا . وهو شىء لم يسبق لنا به عهد ، آلا فيما نظمه الملزوزى فى تاريخ الدولة المرينية ، وهو اشبه بالنظم ، والا فيما قصده ابن المرحل ، وهو أندلسى المنشأ . أما الذين نشأوا بالمغرب من الشعراء ، فلم يظهر فى قصيدهم هذا الطول ، الا فى أواسط القرن الثامن . ويكفى أن نمثل لهؤلاء بثلاثة شعراء ، هم أبو عبد الله محمد الزناتى ، الكاتب المتوفى بفاس عام ثلاثة وسبعين وسبعمائة ، وأبو عبد الله محمد ابن مصادف الفاسى ، وأبو العباس احمد ابن عبد المنان المكناسى ، المتوفيان سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة فلنتصل بالكاتب الزناتى فى قصيدته الطويلة التى مدح بها المستنصر بالله أبا العباس احمد المرينى ، وسنه نحو العشرين ، فقد توفى وهو لم يسلخ ثلاثا وعشرين سنة ، وهى فى بضعة وستين ومائة بيت مطلعها هكذا :

لذكرك أحلى فى اللسان وأعذب   وقربك أشهى للفؤاد وأطيب
لمدحك خليت النسيب ومن يجد   لمدح علاء قائلا كيف ينسب
فمنذ اهتدى فكرى لمدحك لم اكن   بهند واتراب لهند اشبب

اجد بقولى فيك جدى كلما   مدحت اذا كان المغزل يلعب
واطرب حلما بامتداحك وحده   وغيرى سفاها بالتغزل يطرب
وما غلظة فى الطبع منى ألفتها   ولكنه طبع الى المجد يحدب
أميل الى العلياء ميل صبابة   وحظ الغوانى بعد منى التجنب
اذا نسبت لى خلة فهى العلى   اليهن أصبو لا سعاد وزينب
طلبت المعالى باجتهاد فنلتها   وليس ينال الشىء من ليس يطلب
اذا فاتت المرء العلى فى شبابه   فكيف له ادراكها وهو أشيب
أيا ربة الطرف الكحيل تعرضى   لغيرى فانى عن طريقك اقلب
بوصفى من مولاى خلقا وشيمة   بشعرى من وصفيك أولى وأوجب
فلولاه لم أنظم قريضا ولم يكن   لسانى عما فى ضميرى يعرب
لقد زاد حسنا وجهه وهو بارز   على وجهك المعشوق وهو محجب
فلا تطمعى أن تسلبيني فجوده   اقلبى من عينيك أسبى واسلب
حكى المزن لكن وجه مولاى باسم   ضحوك ووجه المزن جهم مقطب
أرحت فؤادى فيك من لوعة الهوى   يعذبه سرب ويعرض ربرب
فما تطبينى بالجمال خريدة   ولو انه من سحر بابل يجلب
وما الحسن الا ما أفاد الثنا ولا   لبان محلى أو بنان مخضب
كفى المرء زينا كل يوم بدوره   حسام صقيل أو سنان مصلب
وما لى فى تقويم رمح أهزه   على السيف أوسيف على الرمح مذهب
سوى اننى مهما انثنى قلت ان ذا   بسيط لدى المرأى وذاك مركب
والرأى سبق فى الوغى اذ بحده   أرى الرمح والهندى يغضى ويغضب
وكم صحف أغنت غناء صفائح   وكم قلم ان غالب الرمح يغلب
بهذى يقضى المرء كل لبانة   فما أعملت يوما وأعوز مطلب
اذا لم أنل ما أبتغى كيف ينبغى   فشأنى انى عازفا عنه أرغب
فما الناس الا زاهد واخو غنى   وآخر ملقى بين ذين مذبذب
وان بان زهدى فى الانام فاننى   الى الزهد فيما يملكون لاقرب
فلا طمع يدنى اليهم مودتى   ولا أنا من سوراتهم اتهيب
كفانى مليكى أن أوكل راضيا   كما قد وقانى خوف من يتغضب
تأدبت من قربى لخدمة بابه   وهذا وقوفى كيف لا اتأدب

لئن نلت مجدا أو حصلت على علا فانـــى من مولاى امنـــو واكسب
حلبت زمانى شطره فعرفت من امانـــى فيـــه ما أصـــر واحلـــب
ارى باطنا من حاله مثل ظاهـــر فسيـــان عندى حاضـــر ومغيب
خليلى مـــا للجود قل وجـــوده فأصبح وهو الآن عنقاء مغـــرب
لقد مات جود الناس قبل بموتهم فقام عليه الحر يبكـــى وينـــدب
وقد ذهب الانصـــاف الا بقيـــة ويوشك يوما أنهـــا سوف تذهب
لقـــد تعبت نفس تجـــود تكلفـــا ومن يرتجى منهـــا المكارم أتعب
اذا النفس لم تدر السخاء طبيعة وان راضها ذو الارب فالطبع اغلب
رايت اناسا ينسبـــون الى الوفا غلاظا وهم بالله للغـــدر انسب
فكم خفروا عهـــدا وخاسوا بذمة وحالـــوا بذا الوانهـــم وتقلبـــوا
اذا استمطرت أرضى حيا من سمائهم بدا لى بـــرق للمواعـــد خلـــب
ومـــا اشبهـــوا الا الزمان اباهم فمن ذا الاهـــى او لمن اتعتـــب
فقد قل منهم من الـــوم فيرعوى ومن كلما عاتبتـــه فهـــو معتب
تعويضت من هذا المزمان وناسه بعـــزة ملـــك للمـــلائك ينســـب

وبهذا البيت تخلص الى مدح الملك ، واستمر فى مدحه بما شغل ثمانية ومائة بيت ينوه بأوصافه الخلقية والخلقية ، ويخللها كذلك بحكم وامثال ، كما يشيد بفرسه فى عدة أبيات ، ضمن بيتا منها شطرا لامرىء القيس ، فقـــال :

« مكر مفـــر مقبل مدبر معـــا » سريع لاقصى غاية الشوط منهب

وبعد ما أطال فيه بنيف وعشرين بيتا ، اتصل بالسيف الذى يتقلده الملك ، فقـــال :

تقلدت أعلاه من الهنـــد ماضيا كعزمك لا ينبـــو له الدهر مضرب

واستمر فى وصفه حتى انتهى الى البيت العاشر ، فانتقل الى الرمح وبعد ابيات توجه الى الرجل والفرسان وافراسهم مـــن جيـــش الملك العرمرم ، اذ خاطبه بقوله :

ايا مرسل الجيش العرمرم آخذا بآفاقهـــا ما للعـــدا منه مهـــرب

بخيـــل كرام المنتمـــى أعوجيـــة   تطيـــر بأقطـــار الدنـــا وتســـرب
تخال عقودا فى انتساق نظامهـــا   تقلـــد اجيـــاد الربـــى وتلبـــب
فمن أشقر كالتبـــر يتلوه أدهـــم   أمـــام كميت صـــار يقفوه أشهب

وبعد أبيات فى هذا الوصف ، وفى التنويه بما رأب الملك به صدع الدولة فأعاد اليها شبابها بعد ما أشرفت على الهرم تعرض لنفسه بقوله :

لقد نال طرفى منك بعض نصيبه   ولكن فؤادى لم يـــزل فيك ينصب
وقد نعمت عينـــى اليك بنظـــرة   على ان قلبى بالبعـــاد معـــذب
تبعدنـــى من رتبـــة أو مكانـــة   وحبك من قلبـــى المكين المقـــرب

وهنا انكشف الحجاب الذى مزقه بعدة أبيات ذكر فيها غربته وترك أبيه وأمه ، طلبا لقربه والتملى بالنظر الى طلعته ،وهياما بحبه ،على نحو ما يفعل ابن دراج ، وبعد ما أطال فى الشكوى والعتاب وتصوير حاله بعيدا عن الركاب ، قـــال :

فقد صار حقـــى عند عداك يدعى   وأصبح ملكى تحت ظلك يغصب
أبيت وغيرى نائم مـــلء جفنـــه   كأنـــى على جمر الغضا أتقلـــب

وبعد ما استمر فى بثه لشكواه ، التفت الى قصيدته التى صار يدل بها ، فيقـــول :

ودونكهـــا بكر المعانـــى وانهـــا   اذا مـــا تقفيت القـــوافى ثيـــب

وبعد ثلاثة عشر بيتا فى وصف القصيدة بالجودة والابداع ، قال :

مدحتك لا أبغى لمدحـــك غايـــة   وان جـــل فيه ما أطيل وأطنـــب
فما جئت الا أسأل العفو منك لى   كأنـــى بتقصيـــرى وعجزى مذنب

والقصيدة تنظر فى أولها الى قصيدة الفرزدق فى زين العابدين :

طربت وما شوقا الى البيض أطرب   ولا لعبا منـــى وذو الشيب يلعب

أما طريقتها فى بث الشكوى والاتيان بالحكم والامثال ، فهى على شاكلة المتنبى ، خصوصا فيما أفتخر فيه بنفسه وعبر عن عزوفه وابائه وتحمله للاخطار فى طلب المعالى والرتب السامية .

وبعد عرضنا لهذه نتصل بالقصيدة الثانية من هذا القبيل ، وهى لابى عبد الله محمد ابن مصادف التجيبى الفاسى ، أجاب بها ابن زمرك ، على قصيدة وجه بها الى كتاب الحضرة المرينية ، وقبل أن ناتى بالقصيدة ننقل هنا ما قاله ابن الاحمر فيه . فقد وصفه ابن الاحمر بأنه فارس البراعة، وحارس اليراعة ، وشاعر افصاح وماهر انصاح ، وشعره راق كحاشيته، والبدائع تولدت عن ناشئته ، وارباب الكلام أضحوا من خدمته وحاشيته، ان وصف بين ، وان فوف زين ، وان تغزل أصبى ، وان مدح أسبى ، وان نثر أسحر الى آخر ما ذكر فيه .

اما القصيدة فمطلعها هكذا :

لمن طلل طلت به دمعها السحب ... ونمت برياه الازاهــر والتــرب
تجافى البلــى عنه فأضحت رسومه ... سطورا ولكــن لا تضمنها كتــب
عهدت بهــا الآساد تصرفها المها ... وتطلع اقمارا بها الحقب والعضب
وتعدو بها سرب الظباء حواليــا ... وتلك بهــا غفل فما فعل السرب
اظن الليالى غيرت شعب أهلهــا ... فلا آهل منهــا لديهــا ولا شعب
اعد نظرا اما الظبــاء فمثلهــا ... ولكــن فأين الحجل منهن والقلب
وكم ليلة قد نالها الخيــل ضمرا ... على رقبة منها وموعدنا الشعب
فأسفرن من تحت السجوف كأنها ... شموس ولكن الشماس لها ترب
وقد كاد أن يعشى سناها جفوننا ... ولم يثنه عنا حجــال ولا حجــب
فلما أجزن الحى أعرضن دوننــا ... وقلن لنــا ان الهوى مركب صعب
فما سلبت تلك الوجوه براقعــا ... عن الحسن الا والقلوب لها سلب
أيــا عربيــات وللعــرب ذمــة ... أحل لكن الحب أن تسلب العرب؟
الا عطفــة منكن تبقى صبابــة ... وينعم منها فى الهوى الواله الصب
ويا ربة القلب اللمــوع ترفقــى ... له بالهوى قد ضاع فى حبك القلب
وانى لاغشى الخيل تدمى نحورها ... وأرهب أن تبدو لى الخمر والنقب
صلى مغرما بالطيف منك ومن له ... بطيف ولم تطبق على جفنه الهدب
وورقاء فى الاوراق تدعو هديلهــا ... طوال الليالى والنحيب لها صحب
بكت غير أن الدمع لم يجر جفنها ... وأبكــى وجفنى لا يجف له غرب

وما شاقني الا تألق بارق ... اضاء بوادى القبط اذ بعد الحب
فذكرني من ساكن الغور مبسما ... تجول به الصهباء والخصر العذب
واني لظمآن اليه على النوى ... ومن لى بأن يقضى الى به شرب
ولى بين هاتيك القباب عقيلة ... ممنعة من دونها السمر والقضب
هلالية ذاتا وبعدا ونسبة ... فسيان عندى البعد منها او القرب
تحف بها آساد حرب بواسل ... تقوم على ساق اذا ركبوا الحرب
اذا طاعنوا أو ضاربوا فسيوفهم ... وخرصانهم ليست تقل ولا تنبوا

فأسلوب الاقدمين واضح بقوة فيه ويذكرنا بأساليبهم ، وعلى راسهم امرؤ القيس فى قوله :

فلما اجزنا ساحة الحي وانتحى ... بها بطن خبت ذى قفاف عقنقل

ولم ينكر هذا شاعرنا ، اذ وجدناه يقول :

أيا عربيات وللعرب ذمة ... احل لهن الحب أن تسلب العرب؟

الى آخر الابيات التى سلف ذكرها ، بعد هذا البيت ، ولكن الشاعر مع هذا لم ينس التأنق بالصنعة البديعية ، خصوصا منها اللفظية التى كانت قد استولت على الادب فى الاندلس والمغرب ، بل حتى فى الشرق لذلك العهد ، فوجدناه يردد القلب بمعنى السوار ليقابله مع القلب من الانسان ، طلبا للجناس الذى افتتح به القصيدة فى قوله « لمن طلل طلت » ، ثم خلل بشعب وشعب ، وكرر الشعب بعد فوقع فى الايطاء ، ثم الشموس والشماس ، وسلبت وسلب ، وللعرب والعرب ، وان كان مقتصدا فى هذا الجناس . وبعد تلك الابيات يقول :

حمى ريقها لحظ الجفون وانما ... حمى موردا عذبا لها صارم عضب
ومن عجب ان الجوانح اجدبت ... لهيبا وفوق الخد من ادمعى خصب
وقد انبتت شوك القتاد مضاجعى ... واسهرنى الا يلم بها جنب
ولا عجب أن حل فى القلب شخصها ... نزيلا فان البدر منزله القلب
اثرت لها حمر الدموع سوابغا ... وقد قصرت من قبل عن شأوها الشهب
وجدت بها حبا رسوم عراصها ... فألبسها من حليها النور والعشب

كقطعــة شعــر للرئيس محمــد   أتتنا ومن الفاظها اللؤلؤ الرطب

وبهذا البيت اتصل بالقصيدة التى بعث بها محمد بن يوسف ابن زمرك الصريحى الغرناطى ، فأطنب فى وصفها بكونها كما يرق النسيم لطافة ، وبأن قوافيها كما نظم عقد الدر ، بل هى كالشهب فى لمعانها ، وانها ساحرة ادارت عليهم سلافا فأسكرتهم ببيانها ولولا المشيب لصبا ، وانها فى نسجها كمطارف صنعاء ، دونها الرياض بالحزن طيبة الثرى يتخللها نسيم الصبا ، وتغازلها عين الغزالة بضيائها عند الضحى ، وتسحب الامطار فيها ذيولها ، وتهب عليها النسمات سحرا ، ان هذه الرياض ، كما قال :

فما روضة بالحزن طيبــة الثرى   تجول بها خيل النسيم فما تكبو
تغازلها عين الغزالــة ضحــوة   ويسحب فيها ذيله الوابل السكب
وتوقظها انفــاس دارين سحــرة   فينبت فى ادواحهــا الحب والحب
تراح بهتان الشآبيب مــا همــى   مع السحب الا قيل أيهما السحب
ترقرق دمــع المــزن فى جنباتهــا   فأخصب من أرجائها النجد والسهب
بأحسن من شعر أتى منه طارقا   ولا عجب فى الليل أن تطلع الشهب

وهنا قلد الاعشى فهذا هدف بوصفه الى محبوبته ، وشاعرنا هدف الى وصف الشعر الوارد عليهم من ابن زمرد ، يقول الاعشى :

ما روضة من رياض الحزن معشبة   خضراء جاد عليها مسبل هطــل
يضاحك الشمس منها كوكب شرق   مــؤزر بعميــم النبــت مكتهــل
يوما بأطيب منهــا نشر رائحــة   ولا بأحسن منها اذ دنــا الاصل

ثم يقــول شاعرنــا :

تاقيته بالسهل والرحب قــارئــا   وقــل لنا فى حقه السهل والرحب
وان اخذت منه الكرى قلت منشدا   « الا أيها النوام ويحكم هبوا »

وهذه الشطرة الاخيرة ضمنها شعره من قول جميل :

الا أيها النــوام ويحكم هبــوا   اسائلكم هل يقتل الرجــل الحب

وقد قال المفضل لهارون الرشيد ، يا أمير المومنين ، أتعرف بيتا ، أوله أعرابى فى شملة هاب من نومته .. وآخره مدنى رقيق ، فقال الرشيد : لا أعرفه ، فقال المفضل هو بيت جميل (هذا) :

أما شاعرنا ابن مصادف ، فقد تنكب هذا النشوز بين المقامين ، وعقب على البيت الذى ضمنه الشطر بآخر ينسجم معه :

فقد لاح من غرناطة لذوى النهى — سنا ليس يخبو لاقتباس اذا يخبو
وان أبـا عبـد الالـه محمـدا — لبحر من الآداب مـورده عذب

وهكذا استمر فى التنويه بشأن ابن زمرك ، وما عليه من قـدم راسخة فى الشعر والكتابة :

ولو طلعت فى الشرق أنجم فكره — لتاه به زهوا على شرقه الغرب

وبهذا يبلغ فيدعى أن ابن زمرك المغربى الاندلسى ، لو طلع أدبه فى الشرق ، لكان المغرب الذى ينتمى اليه ، يتيه عـلى الشرق زهوا بـه ويبدو أن الملك المرينى ، كان قد خاطب فيما قبل كاتب دولتهم سابقا ، محمدا ابن زمرك بقصيدة شعرية ، والى هذا يشير شاعرنا :

وقد قلت مولانا حبـاك بتحفـة — وليس له فى الحسن شبه ولا ضرب
عقيلة شعر من عقائلـه التـى — يقصر عنها «حاتم» الجود أو كعب
فبشراك قد نلت التى ليس فوقها — لذى مفخر فخر وحسبك ذا حسب
وما الشعر مما يستزيد به علا — وكسبا وأشتات المعالى له كسب
مليك اذا ناواه غـاو مضلـل — يسير له من قبل عسكره الرعب

وبعد ما يستمر فى الاشادة بخصال هذا الملك ، وما يتوفر عليه من قدرة بالغة ، وسياسة رشيدة عادلة ، يقول له :

وان كنت قد خاطبت تخطب ودنا — فياحبذا منك المخاطب والخطـب
وان بنيات الحجى أنت كفؤهـا — وكافلها الكـافى وسيدهـا الغلب

لقد جارى الشاعر زميله ابن زمرك فى طول القصيدة الذى تحدى به ، ولا شك أن قصيدتنا أخذت من صاحبها وقتا طويلا ليرد بها على

ذلك التحدى وان كان ينكر هذا لذاك فيقول :

وما كان ذاك المطل منـــا تعمدا	فتحسبه ذنبا أما يغفر الذنب ؟
فظن بنا خيرا فما الضن شأننــــا	فأشعارنا فى كل ناحيـــة نهـــب
وان شئت اتحفناك منـــه بكل ما	تقـــر به عيـــن ويصبو له قلب
فقد طلعت فى الارض شرقا ومغربا	وسارت بها منا السفائن والنجب
تحملها الركبـــان زاد مســـافـــر	فلم يخل منها لا حضيض ولا لصب
فدونك منه كـــل عذراء لا يـــرى	يولدها يوما «زهير» ولا «كعب»

وهكذا نرى هذا التجاوب الادبى الذى كان على أشده بين أدباء المغرب وأدباء الاندلس ، يشارك فيه حتى الملوك كتابهم وعلماءهم .

وبعد قصيدة ابن مصادف نكون قد انتهينا الى القصيدة الاخيرة لاحمد ابن عبد المنان المكناسى ، وهى عبارة عن مقصورة ، فى مدح أبى عنـــان ووصف مصارعة جرت بمحضره ، بين ثور وأسد ، انتهت بقتله ، وقد شهد ابن الخطيب هذه المصارعة وذكرها بالاحاطة واشار الى انها غلب فيها الثور الاسد ، فأصابه بجروح ، ثم خرجت جماعة من الرجال مارسوا مصارعته ، فقتل بعضهم ، وأخيرا تمكنوا من قتله ، فيما وصفه بتفصيل عنها . أما ابن عبد المنان هذا فكان من كتاب الديوان المرينى وربما كان كاتبا لابى عنان والمؤكد أنه كان كاتب أبى العباس بن أبى سالـــم ، وكان على حظ من الادب ، جعل تلميذه ابن جابر الغسانى ، يصفه بقوله « رافع راية الشعر والادب فى عصره ، القدوة الاحفل ، المتفنن الاكمل كاتب الخلافة العلية ، المخصوص لديها بالمزايا السنية » .

وقد حفظت لهذا الاديب اشعار ، أحتفل ببعضها ، مثل قصيدته المولدية التى افتتحها بقوله :

هل العقيق وما ضمت أجارعـــه كما عهدنـــاه أم اقوت مرابعـــه

ومثل القصيدة الفائقة التى سنوردها . ولكن الشاعر له ، الـــى جانب ذلك اشعار — ربما قالها على الارتجال — تنزل الى مستوى متواضع. ويصف ابن الاحمر ، فى كتابه ، « نثير فرائد الجمان » هذه المصارعة

التى تناولتها القصيدة فيما يلى :

دخول المخاتل فى الاكرة المعدة للاسد ، وهى اكرة مستدارة من خشب ، يحركها رجل فى وسطها ، يطعن الاسد بحديد ، فيضربها الاسد طامعا فى المخاتل ، فتدور به وهو لا يقدر على المخاتل ، بمنع الاكرة ، ويصف فيها (الشاعر) شبكة صيد الاسد فى الفلاة ، نصبت لاخذه بالقصر ، ووصف النهر والدولاب الكبير ، والروض المسمى بالمصاره (فى القصيدة) :

الف الجوى مـذ بان سكان اللوى   صب يهيج غرامه نفس الصبـا

واستمر فى هذا المطلع الغزلى التقليدى ، الذى ملأ اثنى عشـر بيتا ، تخلص بعدها الى ممدوحه بقوله :

فأجبتهـا وأبيك لا اسلـو ولا   حل الفؤاد هوى سوى هذا الهوى
حتـى يرى فقرا بساحـة بلـدة   وبها الخليفة فارس مغنـى الورى

ويستغرق مدحه نحو عشرين بيتا ، ينتقل منها الى ذكـر الاسـد بهـذا التخلص :

ذلت لبطشتـه الاسـود وانهـا   لتذل اذعـانا لبطشته الطـلا
وضبارم رحب اللبـان تقلـه   صهب متيـن خلقها عبل الشوا
يفتـر عن ناب كأطـراف القنـا   أيضا وينضو مخلبـا حـد الشبا
فتكت بـه فى القصر سمر رماحه   بأكف اسد دوخت اسـد الشرى
أمسى صريعا والدمـاء سلافـه   اتراه سكرا مال من تلك الطـلا
وثنـى على زأراته كشحا وقـد   كانت يرددها فـرادى أو ثنـى
لكـن السنـة القواضب أظهـرت   ما أضمرت جنباه من سر الحشا
وقد رماه قبل مصرعـه الردى   من معضلات مكابديـه بما رمـى
ومخاتـل فى جوف دائـرة طوت   اضلاعها منه على شهـم فتـى
يحكى بها رألا ببيضـة سبسب   لم تنفرج عنه فأنفذهـا كـوى
يمشى الهوينـى وسطها فتقلـه   عدوا وما ان تشتكى الـم الوجى
حسب الغضنفر مرتقاها كعبـة   فدنا يطيل بها الطواف وقد سعى
ولربمـا القـى عليهـا لامسـا   بأكفه وسمـا وقبـل اذ سمـا

لكنه خبثت سرائره فلم ... يحمد على الالمام منه بها الجزا
عجبا له ولجأش طفل لم يهب ... أسد الشرى وقد استشاط وترددا
هذا ولم يبصر هناك بملجأ ... واق وقد تركوه منفردا سدى
قد كان طل دم له لما رنا ... أسد العرين له غضوبا وارتمى
لو لم تقم بالثار منه أساود ... كانت هناك كامنات لاترى
منهن فاغرة له أفواهها ... بأكف كوكبة ومنها ما التوى
لم ترخ شد وثاقه حتى ثوى ... تابوت مقبور وقد ظن الثوا

بعد هذا يتصل بالثور ، فيقول :

ومذرب الروقين أصفر فاقع ... راق النواظر نضرة لما بدا
ما زال يدعو للنزال « أسامة » ... ولقد أشار بظلفه لما دعا
ولقد أراه مكان مصرعه وقد ... أدمى بساح القصر ينكت فى الثرى
ولقد أطال وقوفه مستقبلا ... حذر الهزبر مبارزا حتى انبرى
وغدا له والظن يقضى أن يرى ... وقد اعتلاه فكان عكسا ما قضى
حالت عليه صدمة من « حارث » ... تنسيك صدمة «حارث» يوم الوغى
أعجب بها من صدمة قد عفرت ... لبد الهزبر وأوهنت منه القوى
لا تأح روق الثور أن أبصرته ... عن جانب الليث الطعين وقد نبا
ما كل دون كلاه لكن ساعة ... بقيت له ولكل عمر منتهى
فدعته فى دعة الى أمثالها ... واتعذرن الليث يا ملك الهدى
أعدى فريسته عليه قولك ابـ ... ـق لذا وقولك للغضنفر لالعا
عاجلت ذا هلكا فلم يعجز وقد ... أبقيت ذا منا فجاء به المنا
ان الاله قضى بأن يجرى القضا ... طوعا لما شاء المطيع المرتضى
وعلاكم مما « حارث » بمقاوم ... لابيه لولا أن أردت به الردى
ولقد رأت منه العيون عجيبة ... راقت وقد أبلى النواظر وانهى

بعد هذا اتصل بروض المصارة ، الواقع فيما يعرف بدار الربيبغ بعد ، فقال :

فأبحه جنات المصارة خالدا ... فيها فبالجنات يجزى ذو العلا

أحسن بهــا من روضة غناء قد	غنى الحمام بها طروبا أو شدا
حاكت لها الانواء مطرف سندس	أرج وشاه يد الربيع بمــا وشى
وبجانــب البيضاء منهــا مرتقــى	جبــارة الارجــاء ساميــة الــذرا
كرحى الصياقل ما سمت لتدريها	رجل ولا نسبت لامهــاء المــدى
أترى حسام النهر جلــل متنــه	صدأ فمــا تنفك تجلــوه جــلا
فلك مضى فى الروض ما حكمت به	ادواره والقطب منه وما اقتضى
نقضــى برفــع المــاء الا انــــه	قــد خفض الادواح عيشا والربى

ثم عاد الملك متخلصا بقوله :

حسن بديع فى حمى ملك لــــه	حسن الزمــان وقام فى ابهى حلا

واستمر فى مدحه بعشرين بيتا ، بعد ما كان فى مطلع القصيدة قد مدحه ببضعة عشر بيتا ، وأخيرا نوه بمقصورته هذه فقال :

واليكهــا دررا فانــى منتـــق	مــا راق منها للنظــام وما غلا
مقصورة بخيــام فكــرى اعرضت	عمن سواك وأممتــك على حيــا
حسناء يهــوى كل عضو لــو غدا	أذنــا وقد تليت تصيخ لمــن تــلا
تثنــى عليك عــلا بأطيب نكهة	مما به أثنى الرياض على الحيا

وختمهــــا بالدعـــــاء :

لا زالت والاقــدار جاريــة بمــا	تهواه ما كر الصباح على الدجى
وبلغت ما ترجوه من أمــل على	عجــل ودام لك السعادة والبقــا

فهذه القصيدة الثالثة من القصائد التى تمثل انتطور الذى حصل فى الكم لذلك العهد .

فاذا نظرنا الى ابن عبد المنــان فى عملــه هــذا فاننــا نجــده بالرغم من توفقه فى الوصف ، تنقصه الحبكة أحيانا ، ويبدو الضعف على اسلوبه ، بمثل تكرر كلمات فيه . فمن الكلمات نجد « قد » واردة فى قصيدته نحو ثلاثين مرة ، وقد يزدحم بها السياق ، نحو :

ولقــد أشار بلفظــه لمــا دعــا

ولقد أراه مكــان مصرعــه وقد　　أدمى بساح القصر ينكت فى الثرى

ولقد أطــال وقوفــه مستقبــلا　　وقد اعتلاه فكان عكسا ما قضى

ترددت الكلمة فى أربعة أبيات متتابعة ، وقبلها جاءت فى ثلاثة أبيات متتابعــة هكــذا :

ولقــد كتمتهم واكفــات مدامعــى

قسما لمــا راعوا بوشك نــواهم　　روحى وقد عبثوا بشكوى من شكا

ألا وقــد ندروا دمــاء حرمــت

كما تكرر ذكر الاسد بمترادفاته العديدة .

ويلاحظ على القصيدة استعمالات قرآنية كثيرة ، مثل « ما ضل من أثنى عليه ومن غوى » من قوله تعالى « ما ضل صاحبكم وما غوى » « وأممتك على حياء » من قوله « فجاءته احداهما تمشى على استحياء » و « مقصورة بخيام فكرى » من قوله « حور مقصورات فى الخيام »

« ومذرب الروقيــن أصفر فاقع　　راق النواظر نضرة لما بــدا »

ومن قوله تعالى « بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين » .

ومن الاقتباسات البعيدة :

هيهــات لا يجدى عــدوك جــده　　يأبــى وحقك ذاك جدك والقضا

الله أولئــك السعــادة فليفــض　　كمدا حسودكها ويأبى مــن أبــى

من قوله تعالى «يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويابى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » ويتصل بهذا قوله « فبالجنات يجزى ذو البلا » من نحو قوله « أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون » وان كان « ذو البلاء » مما ينبو عنه الذوق هنا .

وقد استغل مناسك الحج ، فى وصف حركات الاسد وما تخيل فيه من هواجس واخلاق حيث جعل الاسد يؤدى مناسك الحج فقال :

حسب الغضنفر مرتقاهــا كعبــة　　فدنا يطيل بها الطواف وقد سعى

ولربمـــا التـــى عليهـــا لامســـا   بأكفـــه وسمـــا وقبـــل اذ سما
لكنـــه خبثـــت ســـرائـــره فلـــم   يحمـــد على الالمام منه بها الجزأ

قد رأينا فى رسائل القاضى عياض ما استغل فيه هذه المناسك وان كان استغلال ابن عبد المنان فى مهارة ولباقة دونهما استعمال القاضى عياض فى رسالته مخاطبا بذلك الفتح بن خاقان ·

وقصيدته على براعتها فيها بعض الكلمات والعبارات التى تنكرها لغة الشعر ، مثـــل « أيضا وكـــان عكسا ما تضى » و « خصصـــت وعم » و « دماء حرمت ظلما » و « هذا ولم يبصر » ·

وعلى الجملة فشتان ما بين هذه الابيات والتى أجاب بها أبا العباس المرينى ، وقد اصطحبه الى مكناس من فاس فنزل فى مارستانها ، وكتب اليه السلطان بأبيات أجاب عنها بتلك وهى :

لمـــا بدا لـــى فى حمى مكناســـة   مثـــوى الذين مضوا من الاتراب
ايقنت انـــى لست ذا عقل بهـــا   اتعبت نفسى فى هـــوى وتصابى
فتركت دارى لم أعرج نحوهـــا   ورأيت ماريستانهـــا أولـــى بـــى

ويقـــول فى ابيات أخرى :

بالعقـــل قـــد فضلنـــا ربنـــا   وسخـــر الفلك لنـــا والريـــاح
فالحوت والطيـــر متـــاع لنـــا   ومـــا علينـــا فيهمـــا مـــن جناح
وان غدونـــا عرضـــة للفنـــا   فعـــن فنانـــا عطفـــة للنجـــاح
فانـــه يفضـــى الـــى دعـــــوة   لـــدار خلـــد ليس عنهـــا بـــراح

أما القصيدة السالفة ، فانه فى تصويره بها ، مدين لابى تمام فـــى قصيدة ، قالها فى المعتصم وقد هجم عليه أسد ، من القفص الذى كان به وحطم قضبانه بأضلعه ، كما أنه مدين لابن دريد فى بعض أبيـــات مـــن مقصورته ، مثل قوله :

سامـــى التليـــل فى دعيس مفعم   رحب اللبان فى أمينـــات العجـــى
لو اعتسفت الارض فوق متنـــه   يشكو الوجى ماخفت أن يشكو الوجى

حتـــى اذا قابلهـــا استعبـــر لا	يملك دمع العين من حيث جـــرى
ثمت طـــاف وانثنـــى مستلمـــا	ثمت جـــاء المروتيـــن فسعـــى
ثـــم أتـــى التعريف يقرو مخبتا	مواقفا بيـــن الال فالـــنـــقـــا
واستأنف السبـــع وسبعا بعدها	والسعى ما بين العقاب والصوى
وراح للتوديع فيمـــن راح قـــد	أحرز أجـــرا وقـــى هجر اللغا

وأما الكيف فيها فيتجلى فى هذه القدرة على الوصف الذى قلما أجاد فيه شعراؤنا ، باستثناء ابن زنباع (أو ابن بياع) (1) فى قصيدته الربيعية التـــى تقدم ذكرها .

وقد كان المرينيون ، وعلى رأسهم أبو عنان هذا ، يحرصون علـــى أن يصور شعراؤهم ما يتراءى لهم ، من بديع المبانى ، التى أقاموها بسلا ومكناس وفاس وتازا ، فكان هذا الملك يحمل شعراءه على وصف مـــا يبدو له من أشياء ، كما نجد لذلك مثالا فى شعر ابن رضوان فقد كلفـــه أبو عنان أن يصف صيدا من غدير ، فقال :

ولـــرب يـــوم فى حمـــاك شهدته	والسرح ناشرة عليـــك ظلالهـــا
حيث الغديـــر يـــريك من صفحاته	درعا تجيـــد به الرياح صقالهـــا
والمنشـــآت بـــه تدير حبـــائلا	للصيـــد فى حيل تديـــر حبالهـــا
وتريك اذ يلقى به اليم الـــذى	أخفت جوانحـــه وغاب خلالهـــا
فحسبتهـــا زردا لـــو أن عواليـــا	تركت به عنـــد الطعان نصالهـــا

وقـــال فيـــه أيضا :

ابصرت فى يوم الغديـــر عجائبا	جـــاءت بآيات العجائب مبصـــرة
سمكا لدى شبك فقل ليل بـــدت	فيـــه الزواهر للنواظر نيـــرة
فكأن ذا زرد تضاعف نسجـــه	وكأن تلـــك أسنـــة متكتـــرة

ومن نظمه فى هذا قصيدة فى بضعة وثلاثين بيتا ، كتبت فى طرة قبـــة رياض الغزلان ، عن أمر الخلافة المستعينية ، مطلعها :

---

(1) كما تقدمت الاشارة الى ذلك وان كان أليوسى فى زهر الاكم يذكره بابن زنباع مرارا .

هذا محل المنـــى بالامن معمـــور   مـــن حله فهو بالآمـــال محبور

كما كتب على قلم فضة بيتين ، وعلى سكين كذلك ، وثلاثة أبيات فى مركب ، وغير هذا مما نجده فى نفح الطيب ، كما نجد لابن جـــزى وابن زمرك وابن خلدون ، قصائد كتب بعضها على بعض المبانى والزوايا ، وأخرى فى غير ذلك ، كوصف الزرافة التى أهديت لابى عنان .

ومما نعجب له أن شعر ابن عبد المنان ، كان على هذا المستوى ، والدولة فى شفوفها ، ثم كان له شعر ينزل عن هذا المستوى ، والـــى الحضيض ، لما نزلت الدولة أواخر القرن الثامن الى الحضيض كذلك .

وكما ظهر فى العهد الموحدى اهتمام خاص بالتصوف والزهد ، خصوصا أواخر القرن السادس وأوائل السابع (1) وكان من المؤلفين فى المتصوفة ، الذين يضمهم اطار جغرافى ، يحيط بمنطقة مراكش ، عموما ، صاحب كتاب التشوف ، كان أيضا فى العهد المرينى ، وفى أواخر القرن السابع وأوائل الثامن من اهتم بهؤلاء المتصوفة والزهاد والصلحاء ، رجل يقابل صاحب التشوف فى بقعته الجغرافية الجنوبية ، فألف فى صلحاء الريـــف بالشمال ، وهو يعنى بذلك امتدادا جغرافيا ، يحده من الغرب ، مدينـــة سبتة ، ومن الشرق مدينة تلمسان ، كما قال فى كتابه ويأتى فى مقدمته . لكننا باستقراء ما ذكر فى هذا الكتاب ، وجدنا هذه المنطقة ، لا تتعـــدى مفهوم الريف فى هذا العهد . فهؤلاء الرجال يدورون حول قبائل وفصائل ريفية معروفة فى هذا المحيط ، مثل بنى ورياغل ، وبقوية ، ومسطاسة ، وبنى يطفت ، وبطوية ، وبنى توزين ، ومتيوة ، بالاضافة الى ترغـــة ، الغمارية ، ومدن النكور والمزمة وباديس .

هذا هو الأعم ، ولكننا كما رأينا فى التشوف ، من خرج عن ذلـــك النطاق ، وجدنا آخرين ، من بنى مسارة ومكناسة وطنجة ومراكش والقصر الكبير وفاس . بل حتى من الأندلس ، الذى نجد منه مثل الوحاسنـــى

---

(1) تقدم من ذلك ما انتهى اليه الاغماتى فى شعره ونثره ، وطلبه أن يؤلف له فى أخبار الزهاد ، كما تقدم وعرض ما كان من أبى الربيع فى شعره الزاهد الذى عقد له بابا خاصا من ديوانه ، وما انتهى اليه ميمون الخطابى ، وآخرون آنذاك .

(اليحاسنى) وابى طاهر ابن الصلاح والحسن ابن الخراز وأحمد بن الخضر (جد المؤلف) ٠

وبالجملة يعد من هذا الريف من كان منـــه أصلا ومن نزل بـــــه ، من المغاربة وغيرهم ، فدخل بذلك بعض الطنجيين الخارجين عن نطاقه ، كما دخل بعض السبتيين ، ان كان مقصوده فى التحديد خروج الغاية ، والا فان سبتة تكون داخلة ولا تاويل فى دخولها ٠

نعم انه ان أدخلها فى هذا النطاق ، لوجب ذكر العشرات من رجالها ، سواء المتقدمين والمعاصرين أو المقاربين ، لعصر المؤلف ، الذى كان نفسه من أصل اندلسى ، فهو من خزرج الاندلس ، الذين كان منهم لذلك العهد وما يليه بنو الاحمر ملوك غرناطة بلده ٠

والمؤلف هو أبو محمد عبد الحق بن اسماعيل بن احمد بن محمد بن الخضر ٠٠٠٠ بن قيس بن سعد ٠٠٠٠ بن عبادة ،،، الغرناطى . ترجم لـــه صاحب سلوة الانفاس ، ثم ترجم كتابه وله المستشرق « كولان » ٠

ويبدو أن المؤلف كان على حظ من الانتاج الأدبى فهو يأتى بنماذج من شعره عقب كل ترجمة من تراجمه ، وهى ست وأربعون ترجمة ، كما انه فى تحليته النثرية ، كان على حظ ما من النثر الفنى ، وأن كان ذلك فيه بعض التكرار أو ما يشبهه ، كما سنرى ٠

أما كتابة من حيث التصميم ، فقد مهد له بمقدمة ، ثم قسمه الـــى ثلاثة اقسام ، فصل الى فصول الاول والثالث منها ٠

وهكذا فالقسم الاول ، الذى خصصه للمقامات الصوفية والكرامات الولية ، يضم فصولا ، الاول فى الولاية والولى ، والثانى فى الفقر والفقير ، والثالث فى التصوف ، والرابع فى اثبات كرامات الأولياء ٠

والقسم الثانى ، جعله فى اثبات حياة الخضر وتعرف طرق من أحواله ٠

والقسم الثالث ، وهو الاهم بالذات ، جعله يتضمن التعريـــــف بالمشايخ الجلة من صلحاء الرايف ، وضمنه سبعة وأربعين فصلا ، كانت خمسة وأربعون فيها موزعة على خمس وأربعين ترجمة ، بحيث كانـــت

كل ترجمة يضمها اطار فصل ، أما الترجمة التى تكمل العدد المذكور من تلك التراجم ، فقد امتازت عن غيرها بكونها عقد لها فصلان ، وهى الترجمة الثامنة التى تعنى أباعثمان الحاج سعيد المسطاسى البادسى العابد السائح المجاهد فى سبيل الله ، والصديق لجد المؤلف أحمد بن محمد بن الخضر الخزرجى الغرناطى ، كما يذكر ذلك المؤلف ·

وعلى هذا فان الكتاب اتخذ فيه منهج شبيه بمنهج ابن الزيات (1) ، بأقسامه وفصوله · وكما يتخلل كتاب التشوف أشعار ، فكذلك هذا ، تتخلل فصوله أشعار · الا أن الغالب فى ذاك أشعار للمترجمين وغيرهم ، أما هذا فالغالب فيه أشعار المؤلف نفسه ، بالاضافة الى أخرى قليلة بعضها للقدامى كالعباس بن مرداس وآخرين لم يذكروا ، وفيها استشهاد لغوى ، كما أن غير هذه للمعرى ولنجم بنى اسرائيل (معاصر ابن الفارض وابن سبعين) ، والسبتى ·

ولنتصل بنماذج من نثر المؤلف ونظمه ، فمن الاول نأتى بهذه الفقرات من مقدمته :

« الحمد لله المنعم على عباده المحققين ، بعوارف معارف اليقين ، جاعلهم فى جميع أحوالهم من الصادقين ، الفائزين بآثار المصدقين وايثار المتصدقين ، والجامع شمل المفترقين ، والرضى عن أصحابه المرفقين ، المنفقين المشفقين ، النجباء المعرقين (2) التاععة بلاغتهم فهاهة المتفيهقين (3) الثرثارين المتمشدقين ، الرافعة كراماتهم شكوك المتزندقين ·

وبعد فان علماء المتقدمين رضى الله عنهم قد اعتنوا بما ظهر لسالف هذه الامة من الكرامات ، ومهدوا القواعد التى قامت عليها أصول المقامات ، وفسروا ما غمض من اشاراتهم ، وكشفوا عن خفى عباراتهم ، ونقلوا ما صح لديهم من كراماتهم ، كالامام الاوحد أبى القاسم القشيرى والعلامة الاعرف أبى طالب المكى ، والحافظ المحافظ أبى نعيم الاصفهانى ، والواعظ

---

(1) فابن الزيات جعل كتابه فى سبعة ابواب ، فى صفة الاولياء ، فى حفظ قلوبهم فى محبتهم ، فى زيارتهم ، فى حسن الثناء ، فى اثبات أحوالهم ، فى اثبات كراماتهم ، ويشتمل على جملة فصول)

(2) فى الاصل من مخطوطنا « المعرفين » فأصلحناه بما رأينا ، مستأنسين بباقى السجعات ·

(3) فى الاصل « المتفقهين » فأصلحناه معتمدين على الحديث المشهور فى المتمشدقين المتفيهقين ·

الفصيح ابى الفرح الجوزى ، رضى الله عنهم وارضاهم ، لما اختصهم به وارتضاهم . وكلهم انما ذكروا أهل المشرق المشرق ، غير معرجين على اهل المَغْرِب المُغْرِب .

ثم ان الأديب المتفنن أبا الحسن يوسف ابن الزيات (1) أتى فى كتابه المسوم « بالتشوف الى رجال التصوف » بآيات ، وذكر أن الحامل له على تأليف ذلك الكتاب ما أهمله من تقدم من المصنفين والكتاب ، من ذكر صلحاء المغرب الاقصى ، الذى تتبع ذكر محاسنهم وتقصى ، وأن لا يظن (2) ظان أن صقع المغرب من الاولياء شاغر ..... فذكر فيه جملة من صلحاء المغرب بأدب بارع ولسان مغرب وبالغ فى ذكر المصامدة ، مظهرا لكل شىء محاسنه ومحامده ، ولم يعرج فى تلك الاحياء ، على ذكر أحد من الاحياء ، وغفل فيما أثره من الحسن والاحسان ، من الريف الكائن بين مدينتى سبتة وتلمسان . ولعل ذلك لبعده عن مكانه ، وعدم اتصاله بأحد من سكانه (3) ...

وقد كان استقر بالريف المذكور ، فى سائر الازمنة كل مشهور مذكور ، لم يقصر فى جده عن الاكابر المشتهرة .... فرايت تتميم صلته (4) وتنظيم فصيلته (5) ، بذكر من كان ببلاد الريف ، من ولى يجب به التعريف ، حتى يعلم انه كان بريفنا المهمل ، من احسن فى الطاعة وأجمل ، ولو أن ابن الزيات انتشر ، أو عاينه فى المحشر ، لانشد ، وقال نصيحا لمن استرشده قول المعرى :

وعلى أن أقضى صلاتى بعد ما فاتت اذا لم آتها فى وقتها

فالملاحظ على هذا الأسلوب الحرص على الازدواج ، بعد السجع ، المتكلف ، من نحو « آثار المصدقين وايثار المتصدقين » و « السابقين المسابقين « و « فرق الفريقين » و « المرفقين المنفقين » و « المشرق

---

(1) سقطت من الاصل الذى بيدنا

(2) بل انه تعمد أن ذكر من كان بحضرة مراكش من الصالحين ، ومن قدمها من أكابر الفضلاء ؛ كما قال بالمقدمة ، مضيفا « الى ذلك من كان من أعمالها ، وما اتصل بها من أهل هذه العدوة الدنيا و ،،،، من قدم مراكش وما اتصل بها وان كان من غيرها « اذ كان مماته بها ، و ،،، من هو من أهل هذه العدوة وان كان مماته بغيرها » .

(3) بالاصل « ضلته » .

(4) بالاصل «فيصلته » ولعل الصواب ما أثبتناه .

(5) كذا بالاصل .

المشرق » و « المغرب المغرب » و « الحسن والاحسان » و « بالريف المذكور .... كل مشهور مذكور » .

زيادة على شبيه التكرار بنحو « الرافعة كراماتهم ... لسالف هذه الامة من الكرامات » ... ونقلوا ما صح لديهم من كراماتهم » و « كل مشهور مذكور ، لم يقصر عن الاكابر المشتهرة » .

وعلى هذه الوتيرة ، نجد باقى المقدمة ، التى قال فيها أيضا :

« وربما قد كان لاحدهم شيخ بالمشرق فيذكر من أجله ، أو رأى فى رحلته اليه كرامة آذنت بانعام سجله ، والبداءة فى ذلك بمقدمات تزيل الشكوك المبهمات ، بذكر الكرامات ، وبعض المقامات ، وحياة الخضر اذ ذاك من المهمات ، ويتلو ذلك ما يتيسر من ذكر كل ولى بين زماننا هذا وزمان الشيخ العارف أبى مدين (1) ، فيتحصل المقصود ، من طالع كوكب السعد المقصود ، فى ثلاثة أقسام ، لثغرها البسام ، عن ثنايا الحسن ابتسام ، القسم الاول .... القسم الثانى ،،، القسم الثالث .... (2)

وقد رسم ابن الزيات فى كتابه .... أبياتا من الشعر لغيره ، على وجه التمثيل والمحاضرة ، فاقتضبت (3) أبياتا عقب كل شيخ ، تناسب (4) أحواله كل المناسبة ، وتطابق حالته المرضية ومكاسبه ، وجعلتها لزومية الروى (5) جارية على الصراط السوى ...

اذن فتلك القطع العديدة التى تصل عدد التراجم كلها من شعره ، وقد أفصح فى بعضها عن الارتجال والاقتضاب . مع التزامه فيها ما التزمه المعرى ، فى لزومياته . وقد كان للمعرى أثر عظيم فى الاندلس ، وفى بعض البلاد الشمالية الساحلية ، التى كانت شديدة الاتصال بالاندلس ، بل

---

(1) شعيب الاشبلى الاصل والملقب بالغوث دفين العباد بتلمسان . وهذا التحديد الزمنى مهم ، ويفهم منه تأثير طريقة هذا المتصوف فى أولئك الصلحاء المذكورين بالكتاب .

(2) تقدم تمام هذه الاقسام الثلاثة بنصها .

(3) بالاصل « فاقتضيت »

(4) بالاصل « يناسب »

(5) على غرار ما تقدم له فى اسجاعه ،،،،

كانت تفد عليها منذ القديـــم مهاجرته ، الذيـــن كان منهم أجداد المؤلـــف وآباؤه (1)

اذن فمن الحق أن ينظر فى هذه المقطوعات ، فمن مقطوعة قالهـــا فى مزاحم أبى داود البطيوى ، نجد قوله :

فى الجد أبدى السعى ناصر سنة ... فيهـــا تتابـــع دائمـــا أعمالـــه
فى العالم العلـــوى راية فخـــره ... نشـــرت فعـــم الخافقـــين كمالـــه
رفض الوجـــود فعمه من وجـــده ... بشـــر تـــلألأ حسنـــه وجمالـــه
نصبـــت لنا أسمـــاؤه وصفاتـــه ... شركـــا فصيد به المحب وما لـــه

وفى أخرى قالها فى مركاب البلندى ابن يصلايتين من بطوية ، وهو تلميذ أبى داود ، قوله :

الف التطـــور والتصور وهـــو فى ... طـــور المعارف واحـــد متوحـــــد
خـــرق العوائـــد للولى مقـــــرر ... عنـــد اللبيب وقد أباه الملحـــــد

ومن قوله فى اسماعيل بن سيد الناس البطيوى أبى داود :

بدر بدا والليـــل ساج فاهتـــدى ... فسناه فى البيداء سارى الغيهـــب
اهدى الهدى لمن اقتدى فجرى على ... ما راق من سنـــن قويم المذهـــب

وفى قطعة ختم بها ترجمة محمد بن الدوناس ، من تلاميذ أبى داود أيضا ، يقول :

لقد هجروا الاوطان يرجون وصله ... فماتوا بقفـــر لا يحس بهم خلـــق
شمائلهم تسقى شمول مواهـــب ... ووجه رضاهـــم فى تصرفهم طلـــق
لقد تاهت الدنيـــا بحسن جمالهـــم ... وطار بهم ذكر وطاب لهم خلـــــق

ويقول من أخرى فى ابراهيم بن عيسى (من بنى ورتاد النكورى) بن أبى داود المذكور :

---

(1) واستمر هذا الاتجاه منهم ، حتى آخر هجراتهم بعد ضياع الفردوس منهم ، فنزل قريبا من مليلية آخر ملوكهم أبو عبد الله الصغير ، ثم استقروا أخيرا بهذا الساحـــل ، كما فى كتاب « نبذة العصر » .

جـد الفتى فى السعى طالب غاية فأتاه ما يرجوه طوع عنانه
والتى تلاوة محكم فتفجرت حكم العلوم بصدره وجنانه
ان جاءه أحد يروم قتاله قام الدعاء له مقام سنانه
كسى المهابة والجلالة فانثنى والأسد لاجئة الى أكنانه

ويقول من قطعة فى الحاج حسون البقيوى :

اذا وضح النهار فهل تريد عليه لطالب نورا مبينا
غنينا عن مطالعة المعانى لعرفان به قدما حبينا
وما زالت مساعى الخير قدما تخصص بالمعالى الراغبينا

ويقول من اخرى فى ترجمة أبى القاسم ابن الصيان الفاسى :

الأنس بالله العظيم وذكره مما يزيد أولى التقى ايمانا
من كان نور الحق أيده غدا ولهان من شغف به هيمانا
سر الحقيقة لا يفوز بنيله غير امرىء مستنزل كتمانا
لا يحرز الفضل المبين سوى الذى ملك العلوم مطهرا جثمانا

ثم قال من اخرى فى ترجمة الحاج سعيد المسطاسى :

زهدوا يريدون النجاة واصبحوا وطعامهم فى الارض نبت يابس
مالوا عن الشهوات فى الدنيا فما لهم سوى التوفيق شىء حابس
فجنانهم من كل سهو سالم ولسانهم من كل عيب نابس

ويقول من ابيات فى ترجمة على بن محمد المراكشى الذى أقام ببادس بعد رجوعه من المشرق وكان على مذهب الملامتية (1) :

شرف الرجال بهمة تسمو بهم فانهض بعزم للمحل الارفع
واصعد معارج كل عبد قانت وموفق ومكرم ومرفع
كسب التقى نعم الشفيع وانه لحمى التخلص وهو خير مشفع
نال الذى طلب الفضائل قصده مستثمرا ما شاء غير مدفع

وفى ترجمة محمد اليستثنى البطيوى يقول :

(1) انظر فى هذا المذهب ما كتبه أحد أساتيذنا فى الفلسفة (منهم ابراهيم مدكور ، وتوفيق الطويل ، ومصطفى حلمى) المرحوم أبو العلا عفيفى .

علـــم اليقـــين أنا لهم ما أملـــوا   فجـــروا بـــه عين اليقين وحقـــه
سلبوا فغابوا عن وجود نفوسهـــم   فوجودهم محـــو يـــلازم محقـــه
لم يعرفوا هجرا ولا وصـــلا ولا   معنـــى يبـــين قربـــه أو سحقـــه
فكأنمـــا أنفاسهـــم ونفوسهـــم   شيء تداولـــت الايـــادى سحقـــه
وكأنمــــا أسرارهـــم بقلوبهـــم   در مصـــون لا يفـــارق حقـــه

وفى ترجمة ابى طاهر بن الصلاح المالقى (1) نزيل الريف يقول من قطعة:

يا من يشاهـــد فى الوجود عجائبـــا   هلا حثثـــت الـــى الكرام نجائبـــا
وشهدتم فيما اختفى من حالهـــم   يبـــدون سرا كـــان عنـــا غائبـــا
فهـــم اذا ما مـــال حائـــط كنزهم   جعلوا له صدق اليقين رحائبا (2)
ان شئت فـــوزا بالنجاح فزرهـــم   ما آب عنهـــم مـــن رآهم خائبـــا

وفى ترجمة عمران امصول البقيوى ، ورد من قطعة قوله :

ان المكـــارم لا تـــزال عتيـــــدة   لمجاهـــد سلـــك الطريق موفقـــا
خفقت لـــه رايات كـــل فضيلـــة   وسواه حاد عن الطريق فاخفقـــا

ويقول من اخرى فى ترجمة أبى محمد المسارى :

من كـــان لله العظيـــم مطيعـــا   أضحى بـــه نـــور الرشاد سطيعا
وأتتـــه وحش البيد مـــن غاباتهـــا   تبغـــى رضاه فريـــدة وقطيعـــــا

وفى ترجمة أبى عبد الله الفرد يقول من قطعة :

من سره طيب الحياة فلا يـــــزل   يقـــرى ويغـــرى دائمـــا ويجـــود
وصف الولـــى تلطـــف وتعطـــف   وتوحـــــد وتهجـــــد وسجـــــود

ومن قطعة فى أبى يعقوب ابن الشفاف القصرى ، يقول :

---

(1) يفهم ذلك من سؤال أحدهم له : ما بال خبز مالقة وتينها ؟ ،،، فأحضر خبز مالقة وتينها ،،، وقد تقدم فى التعرض لابن عبد الملك أنه ذيل بيتى المالقى :

مالقـــة حييـــــت ياتينهـــــا   فالفلـــك مـــن أجلـــك ياتينهـــا
نهـــى طبيبـــى عنـــك فى علـــة   ما لطبيبـــى عـــن حياتـــى نهـــى

(2) يشير الى قصة صاحب موسى الذين يعتقدون أنه الخضر الذى خصه المؤلف بالقسم الثانى من كتابه باعتبار أنه أول المتصوفين أصحاب الباطن من حقائق الكون وعجائـــــب « الوجـــود » .

القـــت اليـــه المكرمـــات زمامهـــا ورعـــى بحـــق الله ثـــم ذمامهـــا
فأنالـــه منـــــه المـــــراد وزاده نعمـــا تولـــى الله منـــه تمامهـــا

وفى أحمد بن الناهض الفاسى السبتى ، يقول من قطعة :

أخلاقـــه مخلوقـــة مـــن شاكـــر وطباعـــه (1) مطبوعة من صابر
وعلومـــــه معلومـــة وصلاتـــــه موصولـــة بدفاتـــــر ومحابـــــر
شهـــدت لـــه آياتـــه واياتـــــه بالصدق فى ماضى الزمان وغابـــر

ويقول من أرجوزة فى ترجمة عبد الملك الوحانسى (2) الاندلسى :

شمس العلـــوم يالها من شمـــس تبـــدو فتعلو ثـــم ليـــس تمـــس
يا رائمـــــا شبها لهـــا قياســـا هيهات ليس اليوم مثل الأمـــس
للحـــــق سر باهـــــر يــــــراه من كان خلوا من محاق الطمـــس

ومن قطعة فى يوسف القصير البادسى ، يقول :

مـــن حل عـــزم عقـــدة الاصرار عـــن قلبـــه ناجـــاه بالاســـــرار
وكســـاه أنـــوار المهابة والتقـــى وأحلـــه فى زمـــــرة الابـــــرار

ويقول من قطعة فى ترجمة ابراهيم ابن صالح من وجوه المزمة :

أهل الحقيقة ان نظرت وجدتهـــم متسربلـــين بكـــل فضـــل باهـــر
قهـــروا نفوسهـــم ففازوا بالمنـــى من جـــود رب ذى جـــلال قاهـــر
وتجوهـــروا بلطائـــف فتكللـــــت تيجانهـــم بزبرجـــد وجواهـــــــر

وفى الحسن ابن الخراز المالقى نزيل بادس ، يقول من قطعة :

ظهرت له الآيـــات فى فلواتـــــــه مستأنســـا باللـــه فى خلواتـــــه
فاعجب لمن أضحى بقفر عاطشـــا فـــراى زلال المـــــاء فى لهواتـــه

ومن قطعة فى ترجمة عبد الله الطويل الفاسى ، يقول :

أنـــا ما أقـــوم بشكر ما أوليتنـــى مـــن نعمة قامـــت بحفظ مآربـــى

---

(1) بالايل « وطبيعته » ولا يستقيم بها الوزن .

(2) أو اليحانسى نسبة الى OHANES كما قال تلميذى الدكتور « فرناندو دى لاكرانجا » الذى حقق كتابه « تحفة المغترب ببلاد المغرب » ونشر ضمن منشورات المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد سنة 1974 .

شكـــرا لانعمـــك الجسيمة انهـــا غوث الطريد (1) وأمن خوف الهارب

ويقول فى ترجمة أبى يعلى المتيوى ، من قطعة :

كنـــا نؤمـــل زوره من صبحـــه ليـــلا فأنعـــم بالمـــزار نهـــارا
طـــارت بـــه أشواقـــه متعاليـــا فأتى وقد ركـــب السحـــاب جهارا

ويقول من قطعة فى ترجمة اسحاق بن مطهر الورياغلى :

من كـــان ذا فلك يـــدور بحكمـــة فلـــه بأفـــق سمائنـــا فلكـــان
ما السر فى مغنـــى ولكن ان تـــرد معنى فـــان الســـر فى السكـــان

ومن قطعة فى ترجمة موسى بن عيسى المطالسى يقول :

راموا بـــه كيدا فأبطـــل كيدهـــم صدق أراه السر حصنـــا مانعـــا
سقيت (2) مغارسه فأثمرت المنى اذ كان منها الغصن غصنا يا نعـــا
ما كان ذا بغى ولا (3) كيـــد ولا والـــى صنيعا بالريـــاء مصانعـــا

ويقول من قطعة فى على بن ماخوخ التوزينى البطيوى :

أبـــدى له نعـــت الجمال جـــلالا فـــرأى به قتـــل النفوس حـــلالا
لحظ الحبيـــب بقلبه فى غيبـــه فأناله (4) مـــا لا يطاق جـــلالا
حسنت خلائقـــه لحسن حبيبـــه فزكـــت شمائلـــه حـــلا وخـــلالا
وكســـاه فى خلواتـــه من نـــوره فسرى بليـــل لا يخـــاف ضـــلالا
رفـــض الوجـــود وأهله فهـــم اذا ما عاينـــوه عنـــوا له اجـــلالا

ويقول فى سليمان بن ستهم التوزينى من قطعة :

جعل التغـــرب للتقـــرب وصلـــة لما تناهـــى فى التدانـــى قربـــه
ألـــف التذلل دهـــره متستـــرا فجزاه بالحسنـــى الجميلة ربـــه

ويقول من قطعة فى يحيى بن يحيى البقويى :

---

(1) بالاصل كلمة غامضة ، ويمكن أن تكون « الطريد » كما أثبتنا أو الصريخ » .
(2) بالاصل « سقت » .
(3) سقطت الواو من الاصـــل .
(4) بالاصل « ما ناله » ولعل الصواب ما أثبتنا .

جعل النجـوم زواهـرا بجبينـه ومن الهـواء لا خمصيـه نعـالا
تلقاه فى كـل المواطـن مخلصـا لـله فيمـا يرتـضى افعــالا

ومن قطعة أخرى فى احمد بن سوسان الورجينى يقول :

طرح التصنـع والرياء فلم يـدع للنفـس شيئـا يستديم دهانهـا
واعتز بالحظ الجزيل من التقـى يبـدى لزاهـى نفسـه ايهانهـا

ويقول من قطعة فى ترجمة يحيى بن مخلوف اليفرسنى البقيوى :

وقف المحقـق وقفة فبدلـت لـه صـور المعارف فى جمال بـارع
نـادى وقـد طارت به أشواقـه يا نفس بادر للسمو وسارع (1)

ويقول فى ترجمة ابى محمد بكار البقيوى من قطعة :

واذا استقرأخـو النعيـم بقبـة قـام الفضـاء له مقـام قبابـه
فهناك يظفـر بالوصـال وطيبـه وينـال ما يرجـوه من أحبابـه

ويقول فى يحيى ابن الحاج اليطفتى من قطعة :

علـم الكـلام شعـاره ولباسـه والرشد فى ظلم الهوى مقباسـه
نور الهداية والهدى حبس علـى مـن زاره يا حبـذا أحباسـه

ويقول من قطعة فى أحمد بن الخضر جد المؤلف :

طالـت اقامتـه ببـاب سؤالـه يدعـو ويرغـب أن يرد جوابـه
رؤيـاه خاتـم رسلـه ورفيقـه فعلـت له مـن سندس أثوابـه

ويقول من أخرى فى عبدون بن يخلفت البقيوى :

من صدقـه ظهرت لـه الآيـات وجـرى فلـم تلحق لـه غايـات
حسن الصفات عن النجابة معرب ينبى عن الغـر الجياد شيـات

وفى ترجمة أبى عبد الله البرانسى الترغى ، يقول من ارجوزة :

هامت به الاشيـاء حتى النحـل لو مازج الشرى لكـاد يحـل

---

(1) كذا أتى هذا الامر للمذكر ، وكان حقه التأنيث « ارجعى الى ربك راضية مرضية » .

ولــو سرى والليــل نقس كحــل عــاد وذاك النقــس منه سحــل

ويقول من قطعة فى والده اسماعيل بن أحمد :

كتــاب الله فى الدنيــا جمــــال وفى الأخرى شفيــع فى الخــلاص
فحاملـــــه لـــــه منــــه دروع اذا خانــت مضاعفــة الــدلاص

ويقول من قطعة فى ترجمة ابى على عمر الطنجى :

حفظ الالـــه يخــص عبدا أخلصـــا قــد صار ظــل مراده متقلصـــا
أعظــم بـــه وبقـــدره وبشانـــه من قانـــت قصد الامانة مخلصـــا

ويقول فى أبى عمران من صلحاء كبدانه هذين البيتين مطلع قطعة :

العلــم قائــده ونعــم القائـــــد وخواطــر الأسرار منـــه رائـــــد
ظهــرت لــــه فى المكرمــات دلائل وبــدت له عنــد الانــام فوائــد

ومن قطعة فى سليمان بن ابى بكر الجعونى من بقوية وأصحاب والد المؤلف ، يقول :

تسديده فى الحكــم أوجب رعيـــه فرأى بضجعته المغيـــب حـــاضرا
وكذلك التقوى تربه (1) بادهـــــا غصـــن الكرامة ذا أزاهر نـــاضرا

وفى بوشعبان يحيى الاسود ، يقول من قطعة :

« الليل خلوته ونور النسك فـــى أسراره مثــل الصباح المسفــر »
« خلق وخلق جمعا من شخصـــه فى طينة المسك الفتيق الاذفـــرى »

ويقول من قطعة فى أبى عقيل من ذرية عيسى بن أبى داود السالف الذكـــر :

جذلان يلقـــى كــل طالب حاجــة مستبــشرا بلقائـــــه متبسمـــــا
طابــت لــــه أوقاتـــه فتجمعــت جمعا وصارت للمواســم موسمـــا

ويقول من اخرى فى يوسف ابن الغماز :

(1) فى الاصل كلمة غامضة ، والابيات فى قصة بأنه رأى فى المنام رجلا بيده وثيقة شهادة زور ، ولما استيقظ أتاه رجل بها شاهدا .

أوصى بـارث مقامـه ومقالـه — لذوى الرياضة عندما أوصى لهـا
كانـت ذوات المكرمـات لفقـده — قطعـا فألـف محسنا أوصالهـا

ويقول فى ابراهيم البطال من كبدانة هذين البيتين من قطعة :

حسن التوكل فى القفار أنالـه — حـالا بهـا قد سره ما نالـه
جعل الاله له سبيلا (1) فى الفـلا — سببا فحقق فى الخـلاص منالـه

ومن قطعة أخرى وردت فى ترجمة أحمد بن يحيى البادسى ، قوله :

ان الطريق المرتضى لـذوى التقى — فيـه الهـدى وقف عـلى أفراده
رفضوا نعيما فى الوجود تنزهـا — وتزهـدوا فى غيده وخـراده (2)

ويقول من قطعة فى ترجمة محمد الشريف الحسنى الهبطى البادسى :

سعد الذى فهـم المعانى موضحـا — منهـا دليـل المقتضى والمقتضـى
قـد سره مـن حالـة فى حالـه — مـا نالـه ممـا أحب وارتضـى

ويقول فى قطعة واردة فى ترجمة يحيى بن حسون البادسى :

رقـت فراقـت فى زجاجة قلبـه — بسنا (3) ينافى البرق حالة خطفه
لما تلطـف فى السؤال تواضعـا — أعطاه ما قـد شاءه من لطفـه

ويقول من قطعة فى ترجمة أبى العباس ابن الغماز أخى يوسف السالف الذكـر :

علم الالـه الصدق من أحوالـه — فأجابـه عنـد انتهـاء سؤالـه
وأمده بالغيـث يجـرى سيبـه — فى سيب قفـر خيف من أهوالـه

وبالاعتماد على هذه النماذج نثريها ونظمها فان مستواه فى النثـر متواضع ، وفى النظـم لابأس بـه وقـد وفـق الـى حـد ما فيمـا أخذ به نفسه فى لزومه ما لا يلزم ، تقليدا للمعرى ، الذى كان الاهتمام به زائدا ، منذ اهتمام القاضى عياض ، فيما تمثل به أو التحق بتقليـده .

---

(1) فى الاصل « الله السبل » .
(2) فى الاصل « غيره وخداده » ولعل الصواب ما أثبتناه والخرد البكر واللؤلؤ لم تثقب وجمعها على خراد قياسى .
(3) فى الاصل « سنا » ولا يستقيم الوزن بها هكذا .

وقد ظهر لهذا العهد ثلاثة كتب طريفة لها خطرها العلمى والأدبى بالنسبة للمغرب ، الذى لم يكن له عهد بمثلها ، وهى لمؤلفين اثنان منهم كان من أقصى الشمال ، والآخر من أقصى الجنوب ، نعنى بهم أبا عبد الله محمد بن عمر المعروف بابن الدراج الأنصارى السبتى ، وأبا عبد الله الحميرى السبتى وأبا محمد القاسم السجلماسى ، الاول فى كتابه الامتاع والانتفاع ، بمسألة سماع السماع ، والثانى فى كتابه الروض المعطار فى خبر الاقطار، والثالث فى كتابه المنزع البديع فى تجنيس أساليب البديع وسنتناول هؤلاء بحسب التدرج الزمنى : ابن الدراج ، السجلماسى ، الحميرى .

لقد عاش ابن الدراج الى الهزيع الأخير من القرن السابع ، وذكر فى اختصار الاخبار (1) بالشيخ الفقيه القاضى المحدث الكاتب الاديب الابرع أبى عبد الله ...

ومع هذا فاننا لم نعرف عنه الآن الا ما أتى من لدن تلاميذه ، الذين حفظوا له فضله عليهم وأشادوا به ونوهوا بذكره وذكر بعضهم فى الاحاطة التى ذكر فيها بالدراج ، فلعل ابن سقطت منها ؟ وكتابه هذا أتت طرافته، مما يتخلله من معلومات حضارية ، قلما نظفر بها فى غيره ، مثل ذكره لآلات الطرب التى وصلت الى 32 آلة ، هى ، بعد القانون ، الدف والغربال والمصافق ، والكبر والاصف والمزهر ، والعود والرباب والكران ، والصنج والكيثار والمعزف ، والعزف والمزمار ، والناى والقصابة والبوق والطبل والكوس والكوبة والعيد والطنبور والبربط ، والقضيب والشاهين والسفاقس والشيزان والكتارات والعرطبة والفارة والشبابة .

وصار يفسر كل واحدة منها ، فقال فى الغربال ، انه الدف ، واصله الذى يغربل بل الدقيق ، على التشبيه ، قاله الهروى فى الغريبين .... وقال فى المصافق ، سئل عنها شيخنا الفقيه الحافظ والزاهد الورع العالم أبو الحسن المتيوى ، فلم يعرفها ، ولعلها العيدان ، وذكرها ابن حبيب فى الواضحة ، وقال فى الكبر ، انه الطبل دو وجه واحد ، وهو الاصف ،

---

(1) للانصارى السبتى ، أعدنا نشره بتحقيقنا فى الستينيات .

ذكره الزبيدى فى مختصره للعين ، وكنا سمعنا فقيها فى درسه يبين كيفية التكبير ، نطقا بها فى الصلاة ، ويحترز من نطقها « الكبر » لان هذا معناه الطبل بالفارسية ، ولا علم لنا بفارسته ، وقال فى الكران ، انه العود الذى يضرب بالاوتار ، ناقلا عن الحربى فى الغريب له ، قال ، وسمى كرانا ببضعة فى الصدر تسمى الكران ، لان ضاربه يضعه على صدره ، فسمى بكرانه ، وقال فى المعزف ، انه ضرب من الطنابير ، وقال فى العزف ، انه واحد المعازف وهى الملاهى وقال فى القصابة ، انها بضم القاف المزمار ، وقال فى الكوبة ، انها الطبل ، نقلا عن أبى حامد (لعله الغزالى) ، يضيق فى وسطه ويتسع فى طرفيه وفى هذه من الفارسية مثل الصنج ، والناى، والكوس والبربط ، والشاهين ، والكنارات . ومن اليونانية مثل الكيثار ، الذى هو فى الاصل يونانى ، دخل العربية ، التى تنطق كافه قافا ، وان كان فى كتابه جاء بالكاف ، كما هو بالاسبانية ، التى عرفته الى السبتيين ، لا محالة، كما عرفته لنا نحن « كتارا » بتشديد الراء ، وهو كذلك بأصله الاصيل ، وقلبت كافه قافا ، فى الآرامية ، التى ربما سلمته الى العربية ، بادىء ذى بدء ، كذلك فتذكر فيها ، كما تذكر الطنبور الفارسى .

أما الذى لم يكن للعربية عهد به ، ولعل المغرب والاندلس عامة ، اخترعوه ، فمثل ، الصفارة ، والقصابة ، وان كان هذا تعريبا للناى. وقد ساق فيها كثيرا من الاشعار التى يهمنا منها ما كان للمغاربة من اندلسيين وغيرهم ، سنذكر بعضها . وعلى العموم ، فان الكتاب فيه كثيرمن النقول عن السابقين شرقا وغربا ، ومن الأخيرين مثل الطرطوشى الاندلسى والقاضى عياض ، حيث نقل عنهما فى حقيقة الغناء اللغوية فقال : « ذهب الاستاذ أبو بكر الطرطوشى والقاضى أبو الفضل عياض ، ومن نحا نحوهما الى ان حقيقة الغناء عند العرب رفع الصوت وموالاته خاصة .. قال الاستاذ أبو بكر ، رضى الله عنه ، ثم اقترن به عرف الاستعمال ، فصار المفهوم من هذه اللفظة التلحين والتطريب .

اذن فلفظة الغناء لها مفهومان ، لغوى وعرفى .

وفى مروياته من الحديث ، ذكر من شيوخه فى ذلك أبا القاسم العزفى فقال « فمنهم السيد الامجد العالم الاوحد ، الذى نشأت فى دولته وايالته،

واصطفانى لحمل سره وكتابته ، وأعاننى على قراءة العلم بجسيم نعمته، وعظيم افادته ، الشيخ الفقيه الارفع الاسمى ، الصدر الكبير ، العلم البحر ، بأو القاسم ، ابن الشيخ الفقيه الامام ، العالم العامل ، الاتقى الاروع ، الاخشى الاخشع المقدس المرحوم ، أبى العباس ، أحمد ابـــن الشيخ الفقيه ، القاضى ، الاعدل الاطهر ، الانزه الافضل ، المرحوم أبى عبد الرحمن اللخمى ، ثم العزفى ، قدس الله روحه ، وبرد ضريحه ، وأنشقه عرف الرضوان وهب له ريحه ، قال حدثنى أبى رضى اللـــه عنه ، وحدثنى أيضا الشيخ الفقيه العالم العامل ، الاستـــاذ المقرىء النحوى ، اللغوى الفرضى ، أبو الحسين بن أبى الربيع ، وغيره ، عن الامام العالم العامل ، أبى العباس العزفى ، رضى الله عنه ، قال : حدثنى أبى ، قراءة عليه ، نضر الله وجهه ، والفقيه العالم العامل ، المحدث الزاهد ، أبو محمد عبد الله بن على ، بن عبيد الله الحجرى ، المروى ، رضى الله عنه ، قراءة عليه ، وسماعا ، والفقيه القاضـــى الاعدل ، الراوية الاديب الافضل ، أبو عبد الله ، محمد بـــن سعيـــد الانصارى ، قراءة عليه ، وهو أبعدهما مدى ، وأعلاهما سندا ،،،

حرصنا على هذه السلسلة ، لنرى فيها اقتصارا على السبتيين فى التلقين ، سواء منهم الاصليون ، والمهاجرون كابن أبى الربيع ، الذى كان من شيوخ ابن رشيد ، كما تقدم ذكره عن رحلته ، أما ابن عبيد فكان استاذ جيله ، ونادرا ما خلت ترجمة السبتيين من ذكره .

وبعد هذه نجد فى الموضوع أندلسيين ، فيهم أحمد الخولانى وأبو ذر المروى ، وعبد الرحمن ابن عتاب ، وابن عبد البر ، وأبو على الحسن الجيانى ، والقاضى ابن سراج ، ومغاربة فيهم أبو محمد الاصيلى ، وحاتم الطرابلسى ، وان عدا من الاندلسيين ، وفيهم القاضى عياض ، والقابسى التونسى الاصل ، وغير هؤلاء يطول ذكرهم ، ونستفيد من عدهم ، مدى ما كانت عليه المدرسة الاندلسية والسبتية ، من علو كعب فى الرواية ، واتقان سندها ، المتصل والمنقطع على السواء .

وضمن الاقوال الخمسة ، التى ذكرها فى الترنم بالقـــرآن قال أبو

عمر بن عبد البر ، أنشدنا حكم بن منذر بن سعيد لنفسه ، فى قصيدة له :

تكاد الهضاب الصم ترجف خشعا — اذا سمعت آيات خالقها تتلى
فما وعت الآداب أحلى ترنما — من الخاشع التالى اذ راعت الظلما
ولا خرق الاسماع ترجيع نغمة — ألذ سماعا منه فى الاذن اذ تتلى
ويبلى الحديث المستعاد فيجتوى — وهذا على طول التلاوة لا يبلى

وهكذا نجد النقول عن الاندلسيين والمغاربة ، السبتيين تسود الكتاب ، كما ينقل عن الافارقة والصقليين ، مثل قول ابن حمديس ، فى آلات الطرب ، اذ يقول :

وعدنا الى هالة أطلعت — على قضب البان أثمارها
وقد سكنت حركات الاسى — قيان تحرك أوتارها
فهذى تعانق عودا لها — وهذى تقبل مزمارها
وراقصة لقطت رجلها — حساب يد نقرت طارها

مستشهدا بهذا على كون الطار هو الدف ، ولكننا لا نقف عند الاستشهاد ، بل تبهرنا هذه اللوحة الفنية ، لهذه القيان التى تعزف وترقص فى براعة باهرة ، وفى المجلس حسناء بتلك الصورة الجميلة التى وصفها ، وبتلك السحنة الفاتنة المثيرة التى أبدع تركيبها ولا شك أن ابن الدراج كان له من الحس المرهف ، ما جعله يستحلى هذا المشهد ، الذى تظاهر فيه بالاقتصار على ذكر « الطار » ،،، وكذلك نجده فى تعرضه للمزهر ، ينشد لابى بكر يحيى بن هذيل الاندلسى (1) :

صنعت كأجنحة الحمائم خفة — كادت تطير مع الرياح الخفق
وهفت على أيدى القيان كأنها — رخم ترفرف فى الهواء وتلتقى
وتكلمت تحت القضيب كأنما — نغماتها من حبه المتشوق
فتسكر الماشى بها فترى له — خيلاء جبار وخفة أولق
فتؤخر الاقدام بعد تقدم — رقص الحباب على الغدير المالمغق

---

(1) لابن هذيل هذا كثير من الاشعار ، أكثرها فى الوصف ، ذكرت بكتاب التشبيهات من أشعار أهل الاندلس للكتانى وسبقت الاشارة اليه .

وكـــذا قوله فى مثل ذلك :

خاقت لمسلاة القلوب ولـــن تـــرى اسلـــى لاربـــاب الهوى من مزهر
مـــن كـــل حنان أجش كأنـــــه صـــدر تذكـــر تحت ليـــل مقمـــر

وانشـــد لـــه فى العـــود :

رقت معانيـــه برقـــة أربـــع صارت عليـــه قلائدا وعقودا

ثم انشد له فى الرباب :

يخالف العود فى تصـــرفـــه وهـــو على خلقه وان صغـــرا
وانمـــا يحتـــوى علـــى نغـــم مـــن حكم القوس كلما خطرا
كأنـــه فى يـــدى محـــركـــه ينشر قلبـــى به ومـــا شعرا

وقد ساق أشعارا اخرى فى العود والكيثار ، وأهمها أبيات لابـــن عبد ربه ، أول أولاها :

ورب صـــوت تصوغه غصب نيطت بساق من فوقها قـــدم

وأول آخـــرهـــا :

يا مجلسا أينعت منـــه أزاهـــره ينسيك أولـــه فى الحسن آخره (1)

وابن الدراج رجل فقيه ، من رجال الحديث فى الدرجة الاولـــى ، شأن السبتيين ، منـــذ القاضى عياض الى ابن رشيد ، والادب عند هؤلاء فاكهة من فواكه الروح التى تجنح فى الفينة بعد الاخرى ، الى التخفف من أعباء الحياة ، وضلعهم جميعا من هذا آلادب ، على اختلاف فى النسب والحظوظ ، فالقاضى عياض ، كابن بياع ، كان لهما الحظ الاوفى من ذلك ، وابن الدراج وابن رشيد ، كان لهما دون ذلك . ويبقى بين أوائك وهؤلاء ، جماعة كانوا اندلسيين الاصل ، مثل ابن المرحل ، أو اندلسيين الرحلة والاتصال مثل العزفيين على العموم .

---

(1) أنظرها كلها فيما جمعناه من شعره ونشر سنة 1978 ضمن منشورات دار المغـــرب للتأليف والترجمة والنشر بالدار البيضاء .

لهذا وجدنا ابن الدراج ، فى تعداده لاسماء هذه الادوات يعتمد على الفقهاء ، ورجال الشريعة ، شرقا وغربا ، أكثر من اعتماده على غيرهم ، وكان فى هؤلاء بالضرورة رجال المعاجم اللغوية ، كصاحب الصحاح،وصاحب اختصار العين بالاضافة الى رجال الحديث . يقول فى هذا الصدد : هذا ما حضر فى حفظى الآن ، مما يدور على السنة علماء الشريعة ، ويتردد ذكره فى كتبهم الشريفة الرفعية ، من ذلك .

من هذا المنعطف ، نتصل بأثر ابن دراج الاديب ، وهى فيما عدا النثر منها ، الذى نتصيده من هذا الكتاب ، ابيات قليلة من النظم ، أطوله قصيدة فى اجازة ابن رشيد ، وأقصره بيتان ، سنورد ذلك كله فيما سنذكر بعد ، ولنتصل باللون الاول وهو النثر يقول فى المقدمة ، بعد الحمدلة ونشهد أن لا اله الا الله ، وحده لا شريك له ، ولا شبيه ولا مثال ، شهادة من مات وهو يشهد بها ، مستيقنا بها قلبه ، فكان ممن حباه ربه ، بحسن العاقبة والمآل ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله ، الذى اخرجنا به الى الهدى من ظلام الضلال ، المبعوث ليتمم مكارم الاخلاق ، ومحاسن الخلال، أرسله بالسمحة الحنيفية ، لا بالتبتل والرهبانية ، أكرم الارسال للارسال، وأمر بامتثال ما جاء به قولا وفعالا ، فقال جل تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، فلتقف مع الائتمار له والامتثال ، فالغنى السعيد من وفق لموافقة سننه واتباعه ، والشقى البعيد من أوبق بمفارقة سننه بابتداعه .

وبعد ما أطال كثيرا فى هذه التصلية وتقليبها على أوجهها العديدة ، وهى لا تخلو من جمال فى صورها ، ونفحات عطرية من نسماتها ، ويقول فى الحامل على تاليف هذه الرسالة :

أما بعد ، فان الله لما ملأ البسيطة أمنا ويمنا ، وكسا الارض رواء باهرا وحسنا ، وارسل رسل رياح الافراح ، بوسائل رسائل الروح للارواح ، فتلقتها مصافحة باليمنى ، وأبدى من السير الحسان التى للمقام العلى الامجد السلطان المأمل آليعقوبى ، رافع راية الاحسان ما يجزيه عليه بالحسنى ، وأدر من سحائب المواهب لاحياء ما صوح من نبات

اللبانات فأصبح كأمس الذاهب مزنا ، وجدد فى دولته السعيدة الحميدة من رسم الجهاد ، والقيام بنصر دين رب العباد ، ما أورث الكفرة ذلا وحزنا، وحوز المومنين عزا تأكد الحمد عليه ، فالحمد لله على ما نلنا من الخيـــر الذى لديه وحزنا ، أطرد السرور اطرادا ، وآض الدهر مواسم واعيادا، وامتدت آمال الآمال ، وامتلات الايدى بالمال ، ونشط الناس لاتخاذ الاهل وكسب الولد ، وقالوا هذا وقت الغنيمة ، للنعم العميمة ، فى كل صقع وبلد ، فكثرت لذلك الولائم والاعراس ، واستجمت الناس فيها بشىء من اللهو الذى ليس به فى الشريعة باس ، ولم يزل الامر على ذلك مستمر الحال مطرد القياس ، كما جرت به عادة من سلف وخلف من الناس ، الى أن ظهر قبلنا ناس ، يدعون أنهم يقراون القرآن ويفقهون العلم ويسترعون، بمذموم تعمقهم المنوى عند الحرب لحماة الشريعة ، ويدعون السلم ، حتى أوقعهم ذلك فى انكار ما سألنى عنه بعض الطلبة من أولى الجد والاجتهاد الجارين على سبيل الخير ومنهج الرشاد ، من عطاء الاجرة على السماع

وهكذا نجد هذا الاسلوب على نصيب من الجمال ، الذى لم يجحف به هذه التطرية ، لتحسينه ، بالصبغة المتعمدة ، لخفتها . ومن ناحية أخرى ، فقد أحسن المؤلف ، فى تعليل الموقف ، بما سن الله على المسلمين من نصر وظفر على أعدائهم ، فشاع الفرح بين قبيلهم ودبيرهم ، فكانت الافراح والاعراس تكثر وتتواكب فى كل آن ومكان ، اطمئنانا الى سلامة الحال ، بانجاب الولد واتخاذ البلد ، بفضل هذا الملك الذى ورث السؤدد من الآباء الصيد ، والاجداد الصناديد ، فكان منه هذا المزج اللبق ، وهذا المدح غير الملق ، فى غاية ما تطلبه دهاقين الكتابة ، وأشادت به العصورالغابرة، منذ الدولة العباسية ، وفى عصر مامونها بصفة خاصة ، كما هو معلوم ثم قال : فألفت هذا المجموع قصدا لافادة القارىء والسامع ، واظهارا للحق بحسام دليله القاطع ، وانتصارا لمن تقدم من الاشياخ الجلة العلماء العاملين اعلام الملة ، فى ترك رد ما اذن الشرع فيه من ذلك وانكاره ، وحضوره على مرور الازمنة واحضاره ، واخذهم بالرخصة الواردة ، فى هذا المعنى الذى عذبت موارده ، فان الله يحب أن توتى رخصه ، كمايحب أن تجنب شدائده ...

وبهذا نراه لا يحيد عن هذه الزينة ، حتى فى عرض هذه المشكلة ، عرضا فقهيا ، لانماطها وملابساتها ، وما يعتورها من أحكام الى ان قال :

ولولا فضل الله ورحمته فى اختصاص السيد الاسعد الارفع ، الاوحد الفقيه المحدث الراوية الامجد المشاور العلم العالم الذى أحيا الله به مـا درس المعالى من المعالم ، ومن نقله من نوافل الفضل والمكارم ، مزيدا على ما حوله من مزية سعده فى الافاضل والاكارم ما قصر منهم مبالغ فى جده ، عن بلوغ حده ، فيما غنمه من مغانم المقاسم ، المقدس المرحوم أبى القاسم ابن الشيخ الفقيه العالم العامل الارفع الاورع القدوة الاسوة ، فقيه المشايخ من حملة السنة ، المقدس المرحوم ، ابى العباس اللخمى ، ثم العزفى ، جاد غيث الرحمة ثراه ، وأجزل من نزل الرضوان قواه ، وتلقته الملائكة ببشراه ، اياى بتنبيهه واعانته على طلب العلم الذى فاز من حظى به بجنات نعيمه ، ثم انعامه سبحانه على اذ اعتمدت عليه ناصرا وايا ، بأن جعلنى من خاصة مقام مولانا أمير المسلمين ، ايده الله فرفعنى مكانا عليا ، فبشراى بترفيعه وتكريمه ، واستذررت من أياديه ما يعجز العلماء — وان بالغوا — عن وصف سنيه وكرمه ، فحصلت السعـادة التامة لى بتوصلى الى رتبة الاختصاص ، بمقام من اختصه الله بمزية استخلاص فى أرضه وتقديمه ،،، ولهذا رأيت أن يكون من شرف هـذا التاليف ، تطريزه باسمه العلى المنيف ، ورفعه لخزانة محله الشريف ...

فهذا أيضا من ثمرات التشجيع المرينى للعلماء والادباء ، وتقدم من ذلك ذكر غيره من التواليف ، الى جانب الاشعار ،،، ثم تعرض لتسمية الكتاب وتبوبـه فقـال :

وسميته بكتاب الامتاع ، والانتفاع ، فى مسألة سماع الاسماع ، لاستئثاره بالكفاية والغناء ، فى أحكام الغناء ، والرد على من نغص المسلمين بتحريم ما أبيح لهم منه فى مظان المسرة والهناء ، أو فى حال اجتماع أرباب التهمم بالسماع ، ليتبعوا أحسنه أحسن الاتباع ، وأولى الاعتناء ، وجعلت الكلام على ذلك فى ثلاثة أبواب :

الباب الاول فى حقيقة الغناء وشرح آلاته .

الثانى فى حكم الآلات المتخذة للتحريك على موازنة نغماته .

الثالث فى حكم الاجرة على ذلك كله ، على اختلاف أنواعه وصفاته .

وهكذا نجد هذا المؤلف الطريف فى بابه ، الذى لم نظفر بنظيره فيما مضى ، ولم نر من عالجه معالجة فنية ، الا فيما ياتى بأواخر عهد السعديين وأوائل عهد العلويين على ما ياتى ، وان كان هذا على قواعد الموسيقى لا على قوائم الشريعة التى هدف اليها المؤلف .

أما نظمه فأطوله فى اجازته تلميذه ابن رشيد ، وهى على فنها ، قد سبق بمثيلها ، فيما تأتاه ابن المرحل ، بعقد الصداق والزواج المتقدم ذكره ، فكان موفقا الى حد ، وان كان عياض تناول الموضوع ، فكان مفتنا فيه ماهرا ساحرا .

وهذه تلك المنظومة ، نأتى بها على طولها ، تسجيلا لها ، على تشابهها فى تكلفها ، مخاطبا طالبها :

حسن در نظمتموه استجازه	قد أحل استرقاقنا واستجازه
وبه عدتم امتنانا علينا	بصلات وعائد واجازه (1)
وسألتم بفضلكم أن تجازوا	فلتجازوا بمثلها من اجازه
ان ترووا تروا لنا أرض جدب	من سما علمكم ترجت اجازه
وعلينا جواب ذاك وجوبا	اذ حكمتم له بحكم الاجازه
وابتداتم به سراوة نفس	فليكن منكم السماح اجازه
واعرفونى أخا اعتراف بضعف	يعترى شعره ويخشى ارتجازه
وقوافى اجازتى بالتزام	هى فيما أرى كذاة الاجازه
فلك الفضل يا أبا الفضل حقا	حزت فيه حقيقة لا مجازه
تاج تيجان وأصل الامد الاقـ	صى الذى لم يصل مجارمجازه
ابن نور الدين العلى علـ	ـن علا مرقب العلا واجازه
قد أجزنا رعيا لكم ما روينا	وأخذنا عن الشيوخ مجازه
واختصصنا فيه بنظم ونثر	مطلقا ذا اطالة أو وجازه

---

(1) متنفلا الاصطلاح النحوى ، كما استغله من قبله فى « عائد الصلة » .

وعلى شرط من أباح لنا(1) الاط	ـلاق فيها ترخصا واجـازه
قـال هذا وخطـه بيميـن	لاميـن يرمى لقصدى اجازه
راجيا فضل ربه فيـه جازا	ه عليـه بفضله واجـازه
مغربى بسبتـة قصد المشـ	ـرق ينتاب شامـه وحجازه
كلمـا شد للترحـل عـزما	منه حلت يد الخطوب حجازه
المسمـى محمـدا وأبـوه	عمر (2) ابن الدراج نال احتجازه
وبتاريـخ ستـة وثمـانيـ	ـن وست من المئين مجـازه
بعد عشرين ليلة قد خلت من	رجب فيه كان كتب الاجـازه
ولمولاى حمد عبـد لمـولى	نال منه على الصراط اجازه
وصلاة علـى رسول أتـانا	بكتـاب منه ارى اعجـازه
وسلام عليكـم مـن محـب	حل نهج الوداد فيكـم وجازه

فعلى شدة أعجابنا بتكلف صاحبها هذا المتشابه او لزوم ما لا يلزم ، كما قال ، فان المتشابه على هذا النمط ، قد فتن به الشعراء عندنا والادباء عموما ، وفى مقدمتهم عياض ، وفى مؤخرتهم البادسى المتقدم . والناظم نفسه يعترف بقصوره فى الشعر ، كما قال :

واعرفونى اخا اعترافا بضعف	يعترى شعره ويخشى ارتجازه

وبمفهوم هذا فانه لم يكن بالضعيف فى نثـره ، الـذى وردت اليه الاشارة فى قولـه :

واختصصنا فيه بنظم ونثـر	مطاقا ذا اطالة او وجـازه

ومع هذا فانه يدل بقوله فى البيت :

فى قريب من الزمان ويسـر	لا بعسر يحتاج فيه احتجازه

ومهما يكن فلا يبخس حق ابن الدراج فى هذا الصنيع ، على تكلفه ، فمن تكلف واضطلع بما تكلفه ، لا يلام على ذلك ، بل يحمد غنته وتجشمه أما الابيات الاخرى ، فهى قطعة يقول فيها ، مستعملا اساليب المتصوفة الهائمين ، وكان التصوف بهذا السبيل قد أطل على المغرب بشدة ، كما

(1) بالاصل « الانـا » ولا يبـدو لـه معنـى .
(2) كذا بالاصل ، ولعله عمرو .

قد أطل من قبل على الاندلس ، وانتهى فى كليهما الى الشطحات التى صورها أو اشار اليها ابن الخطيب وذكرها هو فيما بعد . كما يذكر المريد بذلك المصطلح الصوفى ، ولم يكن غريبا عن الاندلس ، ألتى أطاح فيهاالمريدون بالمرابطين ، أما الشرق ففى القديم عرف كل ذلك ، كما ذكر المقدسى وهذه تلك الابيـــات :

الا كل عقل لا تخامره الخمر	فمعناه من معنى اشارتهم قفر
تجمعت الاسرار فيها بأسرها	فلاح لاهل الصدق من أمرهاأمر
رحيق اذا ما فض عنها ختامها	يعجزمسكا عنعطارتهاالعطر(1)
وان سكبت أكواسها فكأنهـــا	يواقت فى أجوافه صانها الدر
أضاءت كمشكاة غدت فىزجاجة	تلالا اشراقا كما يشرق النهر
فلا نور الا من صفاء روائهـــا	ولا نور الا من نثير لها نشر
ومن عجب تمثيلها لاولى النهى	بما دونها فى ذلكم أودع السر
تقص بأسرار الاشارة انهـــا	تبين لاقوام هم السادة الغر
اذا ذكروا طابالسماعبذكرهم	وهل منسماعليس فيهلهمذكر
هنيئا مريئا يا ندامى بشربها	ففى شربها نفع به يذهبالضر
فليس صلاح للمريد بدونهـــا	ولا رشد ان لم يستفزهمالسكر
خلعت عذارى فى لذاذةشربها	فلا خير فى اللذاتمندونهاستر
سمحت لنفسى كى أفوزبنيلها	ومن خطبالحسناء لميغلهاالمهر

القصيدة فى روحها وفى قافيتها ووزنها ، منبثقة عن قصيدة ابى نواس:

الا فاسقنى خمرا وقل لى هىالخمر ولا تسقنى سرا اذا أمكن الجهر

وقد قلد هذه الخمرية كثير من المتصوفة ، بل حولوا خمريات أبى نواس الى خمرياتهم الروحية الالهية الوجدانية . أما الشطرة الاخيـــرة فهى من قصيدة أبى فراس « أراك عصى الدمع شيمتك الصبر » وقـــد صار ذلك المصراع مثلا سائرا قال أبو فراس :

تهـــون علينا فى المعالى نفوسنـــا ومن خطب الحسناء لم يغلها المهر

(1) بالاصل المطبوع « قد يعجز عن عطارتها العطر » وهو لا يستقيم ، ولعل الصواب ما أثبتناه باجتهادنا ، على ما فيه من كلفة ظاهرة .

كما أخذ معنى المصراع الاول من أول هذا البيت :

أما البيتان المشار اليهما ، فهما :

ذكـــر الحبيب لديهـــم فترنحـــوا   فرحا وحـــق لهم أن يفـــرحـــوا
لا تنكـــروا شطح المحب لذكـــره   بالذكر يهتـــز المحـــب ويشطـــح

وهناك أبيات وردت فى أعقاب نثر له حيث يقول وهو يتكلم على معانى القوم ، ألتى يعبرون عنها بكلام له ظاهر وباطن .

وما من لفظ الا ويمكن تنزيله على معان بطريق الاستعارة ، فالذى يغلب على قلبه حب الله سبحانه ، يتذكر بسواد الصدغ مثلا ، ظلمـــة الكفر ، وبنضارة الخد نور الايمان ، وبذكر الوصال لقاء الله ، وبذكر لفراق الحجاب عن الله ، فى زمرة المريدين ، وبذكر الرفيق المشوش لروح الوصال عوائق الدنيا وآفاتها المشوشة له . وأما ذوو الانس بالله سبحانه فيبدلون الالفاظ الدالة ، على معانى الخير الغالبة على نفوسهم بما يمن الله به عليها من حسن الفهم ويمنح ، وترى علـــى ظواهرهـــم مشرقات أنوار اسرار بواطنهم وتلمح ، وتنطق أحوالهم بمثل قول الشاعر « وكل اناء بالذى فيه يرشح » (1) .

ما أحقهم بالثناء وأولى ، اذ لا يرون الا المولى ، فهل راشد سواهم أو مرشد ، وكلهم بلسان حاله ومقاله ينشد :

كـــل مكـــان به أراكـــا   والله لا أشتكـــى نـــواكا
وكيف أشكو وكـــل شىء   تـــراه عينـــى فأنت ذاكا
جوارحى كلهـــا عيـــون   فحيث وجهتهـــا تراكـــا

وقد رأينا أنه ذكر الاستعارة ألتى يمكن تسليطها على المدلولات ، وهو قد تناول غيرها من فنون البلاغة خصوصا البديع منها مـــرات عديدة لكن مواقف ابـــن الـــدراج مـــن فنون البلاغة ، كانت مواقف استعراض جزئى ، ولم تكن مواقف اختيار وتفحص ، كما كانت لعياض مثلا ولا لابن سبع من السبتيين فيما سلف (2) .

(1) الكلمات الواردة بين هلالين منا استظهارا ، كما أننا استبدلنا « تنطق » بتدق كذلك .
(2) حقق هذا الكتاب ، وبذل فى ذلك جهده ، ونشره تلميذنا الاستاذ الدكتور محمـــد بـــن شقـــرون .

أما الذى تناول فنون البلاغة عامة فى هذا العصر ، فهو أبو محمد القاسم السجلماسى صاحب « المنزع البديع فى تجنيس أساليب البديع ».

كان السجلماسى هذا معاصرا ، لابن الدراج ، وأدرك القرن الثامن، كما كان معاصرا لحازم القرطجنى الاندلسى ، زميله بالتاليف فى هذه الفنون ، وان اختلف عنه من ناحية التطبيق ، فجنح كتاب الاول مجنح النقد والتطبيق غالبا ، وجنح القرطجنى نحو التأسيس غالبا ، وكلاهما منظم مفصل مبوب ، على اختلاف كذلك فى مداخل تلك الابواب وتلقيبها .

والشىء الذى اتفقا فيه ولم يفترقا ، هو المنهج العقلى الارسطى فى تناول البلاغة ، منهجا أغرق البلاغة فى بحر من التفكير الفلسفى فأتعبها وأتعب القارئين لها ، والمتتبعين لخطواتها وتحركاتها ، والمتملين فى معارضها التى ينقلب منها البصر وهو حسير . حقيقة ان الشرق سبق الغرب بتعقيد قضية البلاغة الطليقة بطبعها لكن الشرق ، وفيه فلاسفته ،لم يحكم العقد ولم يشدد القبض ، بمثل ما فعل الزميلان السجلماسى وحازم القرطجنى، ولنترك هذا فى منهجه ، الذى كنا أخطأنا القصد فيه (1) ولنتوجه الى السجلماسى ومنزعه .

لقد كان عصره بالمغرب ، عصرا انتهى الى العقليات فى شتى مناحيها، فبهر ابن البناء العددى العالم بكتابه ، كما بهرت الهندسة العالم باختراعاتها ، التى ما زال بعضها حتى الآن لغزا معتاصا حله ، وجاء ابن خلدون بما لم تستطعه الاوائل ، فهو فى الواقع ثمرة من ثمرات العهد المرينى ، وان كان من غير مغربنا الذى نعنى ، وفى حدوده الضيقة التى حددنا وبالحقبة التى ذكرنا .

والنتيجة ان السجلماسى وكتابه ، كان ثمرة بيئته ومظهر عصره ، ولا يلزم أن تكون الثمرات عديدة والاشخاص متعددة ، كل ما يمكن ان يقال ، ان ملابسات الزمان والمكان ، كانت تقضى بأن يتجلى السجلماسى بكتابه ، ولو حسر العيون وكلت فى لحاقه الظنون .

(1) أنظر دراستنا فى تاريخ البلاغة ، حيث جعلناها مقدمة فى تعليقنا على كتاب دلائل الاعجاز ، لعبد القاهر الجرجانى ، ونشرنا ذلك كله سنة 1951 .

والكتاب لا نفهم منه انه قاصر على فنون البديع بالمعنى المتعارف الآن، كما لا نفهم من كلمة « التجنيس » الاصطلاحى فى البديع ، بـل تعنـى تجنيسهـا فى التصنيـف فهو من المعانـى ، مثـل الحذف والذكـر ، وفيه من البيان التشبيه والاستعارة وباقى المجاز وغير ذلك كالكنايـة والتمثيل ، وفيه من البديع ، كل ما عرف فيه شرقا وغربا ، وحتى مـا اخترع منه من فنون ، اختص بها المغرب العربى ، وفيه الاندلس ، كما نص على ذلك ابن خلدون فى المقدمة .

كان اعتماد السجلماسى على الامهات وأمهات الامهات ، فى كل مـا ذكر ، بالاضافة الى بحوث البلاغة من سيبويه بعد الخليل ثـم المبـرد والاخفش وأبو على وابن جنى بعد ثعلب ، والثعالبى والاصفهـانـى ، وغير هؤلاء كثير يطول بهم الذكر .

وفى البلاغة كان أرسطو فى المقدمة ، تلاه ذكر السفسطائيين ثـم الجاحظ وقدامة والرمانى والامدى والفارابى وابن سينا وابن رشيـق وغير هؤلاء من البلاغيين والنقاد والمناطقة ، بل تناول حتى الاشياء العلمية المتعلقة بالطب والتشريح والوظائف والتكوين العضوى والصيدلة والهندسة والمتواليات الرياضية والنسبية والتعادلية .

وقد قلنا ان المنطق هيمن على الكتاب ، لانه تدخل فى تخطيطه ، من حيث التقسيمات ، حسب الاجناس المختلفة ، العليا ، والمتوسطـة ، والدنيا ، ثم الانواع ، والفروق فيما بينها ، وداخل هذا النطاق ، نجـد التفصيل فى دلالة الالفاظ على مدلولها ، من حيث المطابقـة والتضمـن والالتزام ، والتمثيل لكل بناء على الاقتضاء العقلى ، غالبا ، كما نجد فى ذلك القول فى نسبة الالفاظ الى المعانى ، وتنويعها الى تواطىء وتشاكك وتخالف واشتراك وترادف . ثم التعرض للمعرفات من حيث الحد والرسم . وهكذا فالاطار العام هو المنطق الارسطى يتلوه الاصول الفقهى ، وفيه من الاول الكثير ،وقد يعتمد على الذوق ويحكم سلطان النفس فى القضية،فالقول كان فى بعض معارضه ، جميلا ، لانه ذو الطلاوة والبهجة والماء والعذوبة الجزل المقطع ، الغريب المنزع ، اللذيذ المسموع ، لما بين أجزائه مـن

الارتباط ، ولما للنفس الناطقة من الالتذاذ ، بادراك النسب والوصل بين الاشياء ، ثم بابراز ما فى القوة من ذلك ، الى الفعل ، وبالشعور به ... قال هذا عند التعرض للاكتفاء بالمقابل ، ولكن الاعتماد على الحاسة الجمالية فيه ، لا يخصه وحده بل يكرره فى غير هذا . ومن تطبيقاته الدوقية ، ما قرره فى البسملة ، من كونها تتضمن التعليم ، لافتتاح الامر على جهة التبرك .. والتعظيم لله ،، ولانه ادب من آداب الدين ، وشعار الاسلام ، وانه اقرار بالعبودية ، واعتراف بالنعمة التى هى اجل نعمته ، وانه ملجأ الخائف ، ومعتمد المستنجح ،،، قال هذا عند التمثيل للتضمين . الذى هو من بحوث المنطق ، ولكن التطبيق كان متكئا على الذوق والروح .

وفى كتاب «البيان والتبيين» خاصة ، نجده يقول : اثر قوله ، والصور الجزئية والمواد الشخصية اكثر من أن يأتى عليها الاحصاء ولا سيما فى هذا النوع (البيان) فانه مادة البدائع ، وموضوع النكت الروائع ، وذلك ان هيولى سائر اساليب البديع ، وجزئيات البلاغة ، وسائرها صور له ، فنسبة البيان اليها هى نسبة المادة الى الصورة ، وقد رام أبو عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ استيفاء ذلك بكتابه « البيان والتبيين » وهو كتاب حلى به على كاهل الدهر ، ثوبا لا يلحقه الاخلاق ، ولا يتاح لاسرى مننه ، بافادة الاطلاق ، وذلك غرض لا يسعه الدهر ، ولا يحيط به العمر ، ونسبته نسبة الانفاس ، التى لا تعد ، والخطرات التى لا تحد .

وفيما يتصل بالطب والعلاج والادوية للحيوان والتكوين العضوى ، المستغل فى هذا ، نجد قوله مثلا : عند تعرضه لحسن الرصف : « وأجزاء القول المركب هذا النحو من التركيب ، هى اما الالفاظ المفردة الدالة على المعانى المفردة ، وهى ثلاثة أجناس ، التى منها يتركب القول ، واليها ينحل ، وهى الاسم والكلمة والاداة ، وهى التى يتركب منها تركيبا أوليا ، واما الالفاظ المركبة تركيب تقييد واشتراط، المنزلة فى القوة والدلالة منزلة اللفظ المفرد ، فان ما كان من الالفاظ مركبا هذا النحو من التركيب يقع جزءا من القول التام ، ويتركب القول منها تركيبا ثانيا ، فالقسم الاول وهو الالفاظ المفردة ، والثانى وهو الالفاظ

المركبة باشتراط مقول عليهما البسائط الاول والثوانــي فى الجملــة »
يستمر فى التعقيد بعد التبسيط ، ثم يقول : ولطريق التركيب هو أن ينظر فى الشىء المنظور فيه أولا ، فيفحص على ابسط ما منه تركب ، ثم ثانيا عما تركب منه ، وهلم جرا ، الى أن يكمل الشىء المنظور ويحل موجودا على ترتيب ونظام مثال ذلك ، بدن الحيوان ، فان أبسط ما منه تركب « الاسطقسات » ثم تركبت من الاسطقســات الاخلاط ، ثم تركبت مــن الاخلاط الاعضاء المتشابهة الاجزاء ثم المتشابهة الاجزاء تركبت منها الاعضاء الآلية ، فتركب منها جملة البدن ، فالاسطقسات ، يقال فيها بسائط أول ، اذ كانت أبسط ما منه تركب البدن وأول ، والآلية يقال فيها بسائط ثوان، من قبل أنها أقل تركيبا من جملة البدن وثانية فى الاسطقسات ، والاجزاء المتوسطة بينهما يقال فيها أول وثوان بالقياس والاضافة .

وعند تعرضه للمكافــاة يقول : وخليــق أيضا أن يلحق الشــك فى تسمية هذا النوع ، لحوقه فى تسمية النوع الثانى ، من الجنس الخامس المدعو الرصف بالتحليل ، وذلك أنه كان فى قول جوهره بأنه وضع جزئين متنافرين فى القول ، واسم التكافؤ المنقول اليه هو موضوع بمعنى ما يدل عليه بالمداناة والمماثلة والمساواة ، فالتقابل بين المعنى الجمهورى المعنى المنقول عنه الاسم ، والمعنى الصناعى المنقول اليه آلاسم قائم ،،، وذلك أننا انما نعنى بالمكافأة وتكافؤ الجزئين المقاومة فى أمر ما من الامور ، والمداناة فى منصب ما من المناصب ، والتدافع فى حال من الاحــوال ، والمغالبة ، وهذا انما يكون حيث يوجد المعنيان متضادين ، وبالجملــة متقابلين ، وذلك كما تنزل مثلا فى صناعة أخرى أن « السقمونيا » مكافئة للصفراء ، وشحم الحنظل مكافىء للبلغم ، خاصة أو قوة ، فهما ماخوذان بهذه النسبة ضدين ، من قبل أن شفاء الضد — كما قيل — فى الضد ، فهما متكافئان بحسب ذلك ، علــى جهة المغالبــة والمقاومــة · فهــذه المعلومات كانت لازمة ، عند فلاسفة الاسلام ، اذ كانت الفلسفة تضــم كل العلوم ، حتى الهندسة ، التى وجدنا لها صدى عند النقاد الاول من مثل الامدى ، الذى قال — كما ذكر المؤلف — لما سمع قول العباس بن الاحنــف :

وصالكم هجر وحبكم قلى وعطفكم صد وسلمكم حرب
وانتم بحمد الله فيكم فظاظة وكل ذلول من مراكبكم صعب

هذا والله أحسن من تقسيات أقليدس .

فالامدى على اتباعه فى البلاغة والنقد ، المدرسة الادبية الطليقة ، كان على اطلاع بقضايا الفلسفة لذلك العهد ، مما جعل الدارسين يقولون ان البلاغة ما تنولت الا فى الاروقة الفلسفة ألتى هيمنت عليها الثقافة اليونانية ، منذ الجاحظ ، الذى كان على ذلك الاطلاع.

واذ يستشير اللغويين والنحاة ، فانه لا يطبق من ذلك الا ما كان عليه الاعتماد البلاغى ولهذا نجده ينقل عن ثعلب ، تفسيره للخرم ، لتعرض هذا الى الاخترام ، فيقول : حكى أحمد بن يحيى ، خرمت البيت اذا قصرت بوتد منه عن سائر أوتاده وأنه منقول ثم قال : وبحسب هذين الوضعين الجمهوريين (القطع والقصر) بين ،،،، ولنرسمه تقريبا ، بحذف قيد القول ، المدعو مفعولا به ، والمحل مقتض له .

وكذلك ينقل عن الخليل ، فى تعريف الايجاز ، فيقول : قال صاحب العين ، أوجزت فى الامر اختصرت ، وأمر وجيز ثم قال : وهو منقول الى هذا الجنس من علم البيان ، على سبيل نقل الاسم من المعنى الجمهورى ، الى المعنى الناشىء فى الصناعة الحادث فيها ، وسبيل القول العناية فى ذلك ، بأن يكون المعنى المنقول اليه ، ملاقيا للمعنى المنقول منه.

وبهذا فهو فى الاول يسلم لاهل اللغة قولتهم فيها ، ويبنى على ذلك ، ويذيله بما يراه ، على ارتباط بأصله الاصيل ، ويعتمد على غير اللغويين ، فى أمور تتعلق بألقاب هذه الفنون ، كما فعل فى الانتهاك ، الذى نقل فيه عن ابن جنى انه واقع فى القرآن ، فى ألف موضع منه ،ثم عقب عليه بقوله : وان الاستقراء لعمرى يبرز أكثر من ذلك كله ،،، قال وهو جنس متوسط تحته نوعان ، أحدهما ما يقع فى تركيب الاضافة ، والثانى ما يقع فى تركيب الصفة (يعنى ما يجرى فى حذفه مجرى الفضلة) .

ومـن وقفاتـه المهمـة ، وقفتـه عنـد التشبيـه المعكـوس ، فقال : مدققا فى هذه التسمية : ويوجد الامر الذى يؤم تخييله فى الشىء وتشبيه الشىء به ، فيجعل فى الحمل فقط ، جزءا اول من القول لنوع من قصد الغلو والمبالغة فى الوصف ، مثل ان نقول « الشمس فلانة » ومن صوره قوله :

كـأن سبيئـة مـن بيـت راس يكـون مزاجهـا عسـل ومـاء
علـى أنيابهـا أو طعـم غـض مـن التفـاح هصـره اجتنـاء

فان الغرض تشبيه ريق هذه الموصوفة بالسبيئة ، وتخييل السبيئة فيه فعكس الامر غلوا ومبالغة ، فى الحمل فقط ، اعنى ان هذا الغرض باق قائم بنفس الشاعر ،،، دون قلب المعنى فى نفسه ، وقوله :

فى طلعة الشمس شىء من محاسنها وفى القضيـب نصيـب من تثيهـا

والشريطة فى عكس التشبيه ، هى أن يكون الجزء الاخير من القول التشبيهى ، وهو المحمول ، هو المشبه والموصوف ، والجزء الاول وهو الموضوع هو المشبه به ، والصفة لقلب الامر وعكس التشبيه فى الحمل فقط ، لغرض المبالغة ، فى التخييل ، دون خروج الامر فىنفسه الـى الانعكاس والقلب ، ولذلك لم يكن قوله :

« ورمل كاوراك العذارى قطعته » (البيت) من هذا النوع ،لخروج الامر فى نفسه الى الانعكاس ، بحسب القصد ، لانه انما قصد تشبيه الرمل باوراك العذارى ، فهو تشبيه غير معكوس ، على ما عليه كل تشبيه ،وكان قول من أولع بوضعه فى عكس التشبيه غلطا .

وهذه نظرة دقيقة من المؤلف وان كان الجرجانى قد أمعن فى النوع الاول ، بما يفهم منه ، ما وضحه فيه السجلماسى « لئن لقيته ليلقينك منـه الاسـد » .

ومن مواقفه الهامة ، وقفته عند البيان ، فقال انه ليس دائما فى حيز الحسن ، بل ان منه ما يستقبح ، ومثل لهذا المستقبح بقول السوادى، حينما سئل عن اتانه « احبلها وتولد لى » .

منه المضاف ، نظروا الى ناحية لم ينظر اليها أهل البلاغة ، والا فان الجهة منفكة ، الذين قالوا بالمجاز ، نزلوا المضاف اليه منزلة المضاف ، ولا تقدير ، فى « فاسال القرية » كأن السوال توجه الى القرية ، وآية المجاز كون القرية لا تسأل ، بل يسأل أهلها ، وكذلك يقال فى نحو « بنى الامير المدينة » فأسند اليه البناء بسبب أمره وبعمل رجاله ، أما ان اضمرنا المضاف ، ناوين وجوده ، فلا مجاز ، لان مانوى وجوده ، صار كأنــه موجود ، فالاضافة اليه بالحقيقة وهو اعتبار يمكن تطبيقه على كل محذوف فى العربية ، فضلة كان أم عمدة ، اسما كان أم فعلا أم حرفا ، نجد هذا يشتهر اشتهارا يجعل ذكره محظورا ، كما هو فى باب المبتدا والخبر ، حيث قيل بوجوب الحذف فى خبر المبتدا المصدر بلولا ، مثلا ، وفى باب نعم وبيس ، حيث يرفعان فاعلا مضمرا يفسره مميز ، وفى باب النعت ، حيث يقطع عن منعوته ، باضمار مبتدا أو ناصب ، لن يظهرا ، وفى باب التحذير والاغراء ، حيث يكون التحذير بما استقاره وجب ، وكذلك الاغراء ، وحذف الحرف نجده مستكنا فى الاضافة نفسها ، حيث الثانى اجرر وأنو من أو فى ،،، فذكر الحرف لا يجوز ، والا ارتفعت الاضافة بذكره ، وكذلك فى العدد المضاف الى جمع فخمسة رجال ، كان الاصل فيها خمسة من رجال ، وعليه يصدق « وأنو من » أساسا . وكــذلك المنادى ، فهو منصوب أو فى محل نصب ، بفعل واجب الحذف ، وهكذا يقال فى كل حذف ، انه يجوز أولا بتقدير ، فاذا اشتهر ، استغنى عنه ، كما فى اصغى واصاخ وحل وظهر وصبر ، بحذف المفعول ، ونزل بالمكان بحذف المتعلق (عن) وأقام بالمكان ، بحذف المفعول (خيمته) مثل اذنه فى أصغى واصاخ ، والمكان فى ظهر ، والنفس فى صبر ، مما تعدى نطاق البحث البلاغى ، ودخل فى نطاق التطور اللغوى ، فصار من بحوث فقهه ، فلا دخل للمجاز فيه ، لدرجة ان انكر وجوده مطلقا ، كما قال الشيخ الطيب « وبعضهم وجوده قد أنكرا » **فكان هؤلاء يواجهون من أنكــر الحقيقة أو غلب عليها المجاز** « وبعضهم كونه غالبا يرى » .

كما تعرض للتصور والتصديق ، وناقش قضية المقــولات التــى

حصرها ارسطو فى عشر ، وسلمها كل فلاسفة الاسلام ، ولكنه لم يسلم بعددها ، وانفرد بذلك عن مناطقتنا أو فلاسفتنا . كما انفرد عن فلاسفة اوربا ، الفيلسوف الالمانى « كنت » فجعلها اثنى عشرة .
وتناول المناطقة منا فى أقسام الحجة ، قضية الخطابة والشعر والبرهان ، واعتبر ذلك تناولا نهائيا ، لكن السجلماسى ، قال فى التخييل ينبغى ان يكون موضوعها (الصناعة الشعرية) ومحل نظرها ، ولما كان ذلك كذلك، وجب فى علم البيان ، من قبل عموم نظره للخطابة والشعر ، اذ كان نظره فى العبارة البلاغية ، اعطاء القوانين العامة ، للخطابة والشعر ، من حيث العبارة البلاغية فقط ، اذ لا يلتفت فيه الى ما يخص صناعة منهما الا بعد القول فيما يعم منهما . أكثر من صنف واحد ، أذ كان ذلك هو التعليم المنتظم ، لكن السبب فى ذكر أصحاب علم البيان ، ومتأدبى العرب هذا الجنس مختلطا ، هو انهم لم يكونوا تميزت لهم الاقاويل الشعرية ، من الاقاويل الخطبية ، فلم يتبين لهم ما يخص صناعة منهما ، بل كانت مختلطة عندهم ، والسبب الاول فى ذلك هو التباس كلياتها بموادها ، وعسر انتزاعها منها ، وغور الفحص فيها ، بخلاف ما عليه الامر فى الصناعة النظرية .

وليس يمكننا بعد التنبيه على ذلك ، تنكب ما عليه الامر فى الصناعة، فجدير أن نقول فى ذلك بحسب غرضنا فى هذا القول . فنقول : ان القول المخيل هو القول المركب من نسبة ، أو نسب الشىء الى الشىء ، دون اغتراقهما ، تركيبا تذعن له النفس ، فتنبسط عن أمر وتنقبض عن أمور ، من غير روية وفكر ...

والمؤلف وان استفاد من جهابذة اللغة والنحو ، فانه يبعد عن ساحة البلاغة ، الاعتبارات النحوية ، كما نجد فى قوله :

القول هو حذف القيد المسمى مفعولا به ، وساغ حذفه لانه فضلة ، يستقل القول دونها ، على ما تقرر فى فن النحو ،،، (بعده يقول) فاذا حذف والمعنى عليه قاطع به ، حيث المحل مقتض لتقديره ، فكأنه مصرح به .. وحكمه من جهة اللفظ مجال به على فن النحو فلا نطيل به .

وهذا الحذف يتناوله ، بنسب هندسية ومتوالية رياضية ، فيقول :

الاضافة منقسمة الى اضافة معادلة والى غير معادلة ، فما كان فى المعادلة ، فهو الذى يدل الكلام عليه ، عنده دلالة الاخبار ، كدلالة محدث على محدث وذلك أن اضافتهما معادلة ، لانها مساوية لرجوع كل واحد ، منهما على صاحبه ، بالتكافؤ من غير خروج عن معقوله ، من حيث الاضافة ، وما كان فى غير المعادلة فهو الذى يدل عنده دلالة القياس ، كدلالة حادث على محدث ، ولا نظرلنا معه فيما ذكر ، لانه لا مشاحة فى الاسم ، بعد تقدير معقولية مسماه .

وغالبا ما يستحسن قول ابى على الفارسى ، ففى التضمين ، جاء أن ابن خالويه ، سئل فى مجلس سيف الدولة ، عن قوله سبحانه : حتى اذا جاءوها فتحت أبوابها (فى النار بغير واو وفى الجنة) وفتحت أبوابها ، بالواو ، فقال : هذه واو الثمانية ، لان العرب لا تعطف الثمانية الا بالواو، فنظر سيف الدولة الى أبى على ، وقال : أحق هذا ؟ فقال أبو على لا أقول كما قال ، قال سيف الدولة : فكيف تقول ؟ فقال : أقول فى قوله تعالى فتحت ، بغير واو ، انما ذلك لانها مغلقة ، فكان مجيئهم شرطا فى فتحها ،،، وأما قوله وفتحت (فى الجنة) بالواو ، فهذه واو الحال ، كأنه قال : جاءوها وهى مفتحة ،،، قال السجلماسى ، وهذا قول فى غاية الحسن ، صادر عن تحقيق مثل أبى على ، ويشهد له أمران ، أحدهما العادة المطردة شاهدة فى اهانة المعذبين بالسجـون من اغلاقها ، حتـى يردوا عليها ، واكرام المنعمين ، باعداد فتح الابواب لهم مبادرة واهتماما، والثانى ، النظير من قوله تعالى : جنات عدن مفتحة لهم الابواب ، وقوله : فلما اسلما وتله للجبين ،،، يريد أن الواو هنا للحال وكما انه اعتمد عليه ، عند قول الشاعر « وانى من قوم بهـم يتقـى العـدا ورأب الثأى ... » قال ابو على « رأب الثأى » لا يستقيم أن يحمل على « يتقى » فاذا لم يستقم ذلك ، أضمرت له خبرا ، وجعلته مبتدأ ، ولا يستقيم ان تضمر بهم ،،، واعتمد عليه فيما أورد من شواهد ، على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه ، فقال — بعد ايراده هو كذلك — :

ولا نطيل بهـا الوصف لايراد ابى على منها جزئيات كثيرة فى كتـاب « الابيات المشكلة الاعراب » المعمولة على نظم « كتـاب الايضـاح » وفى التضمين الذى اعتبر من عيوب القافية ، قال : وذهب أبو الحسـن الاخفش ، سعيد بن مسعدة ، فيما حكى عنه أبو على الفارسى ، فى كتاب التذكرة ، الى انه ليس بعيب ، واحتج بما ورد منه لفحول الشعراء ، وهو كثير جدا .

وهكذا نجده ، يستحسن أو يعتمد ، أو يستند فيما نقل ، على هذا الباقعة النادر المثال فى الدراسات العربية المختلفة ، ومسالة التضمين، سبق له فيما قبل هذا النقل ، أن أورد ما قاله الاخفش ، ولا شك أنه يسانده فى هذا الراى ، وهو على صواب فى ذلك . ومن الذين ذكر قبـل استعمالهم له ، حسان ، وكشاجم ، وغيرهما ، وقال ان استعمالـه خارج عـن الحصر .

ومـن القواعـد الاصولية التـى استخدمهـا فى تطريقـه النقدى النكرة فى سياق النفى تعم ، قال فى قوله تعالى « فانه يتوب الى الله متابا » اى متابا اى متاب ،،، لان النكرة فيه ، فى سيـاق النفـى ، فهـى مستغرقـة (1) .

أما الاعتماد على سيبويه ، فى الكتاب ، فقد تردد فى عدة قضايا ، مثل قوله فى مناط الحذف تقول ليت شعرى ، فتكتفى عن الخبر ، قال سيبويه ، هذا باب ما يحسن السكوت عليه ، من هذه الاحرف الخمسة ، لاضمارك ما يكون مستقرا لها ، وموضوعا لها ، لو اظهرته ثم قال ، وذلك قولك : ان مالا ، وان ولدا ، وان عددا ، وأدخل للاعشى « ان محلا وان مرتحلا » البيت ، اى ان لنا ...

---

(1) وهو قانون معمول به مثل النكرة اذا اضيفت الـى المعرفة تعم ، ولا فرق بـين الافراد والجمع فى هذا ، فنحو قول الشاعر :

ان الشباب الـذى مجد عواقبـه بـه نلـذ ولا لـذات للشيـب

لا مفهـوم لجميـع اللذة فيـه ، للقاعـدة السالفـة ، فالنفـى للجنـس ، لا للعـدد .

كما ذكره عند البيت :

فلو كنت ضبيا عرفت مكانتي ولكن زنجيا عظيم المشافر

بأنه روى برفع زنجى ونصبه ، فالنصب على الاكتفاء بالاسم من الخبر ، والرفع على الاكتفاء بالخبر من الاسم ، والتقدير « ولكنك زنجى » .

وكذلك قال بعد ، وقوم يزعمون ان سيبويه يزعم أن قوله عز وجل ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء « من نوع الحذف المقابلى ، وذلك انه قال فى باب ترجمته : هذا باب استعمال الفعل فى اللفظ ، لا فى المعنى ، لاتساعهم فى الكلام والايجاز والاختصار : ومثله فى الاتساع « ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء » فلم يشبهوا بالناعق ، وانما شبهوا بالمنعوق به . وانما المعنى ، ومثلهم ومثل الذين كفروا ، كمثل الناعق والمنعوق به ، الذى لا يسمع ، ولكنه جاز على سعة الكلام والايجاز ، لعلم المخاطب بالمعنى ، ثم قال وليس فيه ما يقطع ان الآية فى هذا النوع ، الا فى احد اجزاء القول ، فانه اكتفى من الاول بالثالث ، فقط للنسبة بينهما ...

ويقول فى الحذف ، فمتى حذف الموصوف ، مع عموم الصفة وابهامها لم يسغ ، وهو ممنوع ، وأرسطو يصرح بمنعه فى كتاب الخطابة . وهو عنده أحد الاصناف الاربعة ، المدعوة بالاسماء الباردة ، ثم قال : وسيبويه أيضا قد صرح به ، فى أخريات باب ترجمته « هذا باب مجارى أواخر الكلم من العربية » (1) .

وكثيرا ما يعتمد على أرسطو ، ويصرح بذلك فى عدة قضايا ، منها قوله فى الاكتفاء : وجزئيات هذا النوع كثيرة ، وقد الم بها النظار فى

---

(1) فان الاعتماد فى سياق القول ، على مجرد الصفة ، كما يقول ، وذلك لان الصفة قيد فى صاحبها ، والقاعدة الاصولية ، ان الكلام اذا قيد بقيد فروح الكلام هو ذلك القيد، نحو « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون » وقد يتحقق هذا أحيانا فى الاحوال ان اعتمد عليها الكلام ، مثل « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » أما اذا لم يكن الحال عمدة الكلام ، فلا نحو « لا تقتلوا أولادكم خشية املاق » فالمصدر هنا واقع حالا ، وليس قيدا ، لهذا النهى عن قتل الاولاد ، بل هو تصوير للحامل على ذلك فى الواقع الجاهلى وقد تتعرض الصفة نفسها الى شىء من هذا ، مثل « أمس الدابر لا يعود » .

اوضاعهم ، واستعمله فصحاء العلماء فى تصانيفهم ، علما منهم بشرفه فى جنس الايجاز ، واحرازه مع الايجاز المعنى ، وأدائه له ، وابنائـــه عنه . فمن ذلك قول أرسطو فى صدر كتاب المقولات من كتاب الثمانيـــة المتفقة أسماؤها : يقال انها التى الاسم فقط عام لها ، فأما قول الجوهر الذى بحسب الاسم فمخالف .

ومن ذلك ايضا قوله : حل ابو نصر بعض شكول مقولة الجوهر ، من كتاب أرسطوطاليس . ذكر السجلماسى هذا عند تعرضه للرصـــف بتقسيمات منطقية فلسفية أنستنا كونه من فنون البديع العربى ، فحشـــر فيه ما كان من شرائط يتوفر عليها فيلسوف الاسلام .

لقد أطال فى محاسن الحذف ، ومثالبه ، وانتهى فى هذا الى أن قال :

فلا تقدم على الحذف تعجرفا ، من غير وجود الشريطة المعتبرة ، ولا تحجم عنه جمودا ، مع وجودها ، فذلك هو المهيع فى هذا الجنس بأسره ، والقانون الكفيل بالصواب ، وبدفع كل ما يرد من شبهة .

وبعد ما ردد القول فى المشترك والمشكك والتضمين واللزوم ، قال يتشكك بعض الناس من ان هاهنا دلالة أخرى وهى دلالة الاعم علـــى الاخص ، وأنها خارجة عن دلالة التضمين ، وهذا فيه نظر لان الحيوان وصف أعم ، لا يجب باثباته اثبات الانسان الذى هو أخص ، ودلالة التضمين هى دلالة الوصف الاخص على الاعم الجوهرى الذى هو جزء ماهية الاخص ، ويجب باثباته اثبات الاعم ، فلذلك هى دلالة خارجة عن دلالة التضمين ، وكذلك هى خارجة عن دلالة المطابقة ، ولا خفاء به ، وفى هذا نظر ، وان فرضنا صحته فقد حويناه بالقول والى الوجه الثانى والثالث من الدلالة ، ــ دلالـــة التضمين واللـــزوم ــ ترتقـــى جميع جزئيات هذا النوع ،،، فهو جنس متوسط تحته نوعان ، بحسب هذين الفصلين ، فالنوع الاول ينقسم الى صنفين ، أحدهما دلالة الكل على الجزء ، والثانى دلالة المعنى الاخص على المعنى الاعم ،،، والنوع الثانى ينقسم الى أربعة أصناف ، الاول أن يلزم وجود كل واحد من المتلازمين وجود الآخر ، وذلك لانعكاسهما فى الحمل ، ولذلك يتلازمان فى الدلالة اللفظية ، تلازمهما فى الوجود ، وذلك من طرف واحد . والصنف

الثانى أن يكون المتقدم يلزم عن وجود المتأخر ، ولا ينعكس ، فلذلك يلزم فى الدلالة لزومه فى الوجود ، وذلك من طرف واحد مثال وجود النار عن وجود الدخان ، والصنف الثالث لزوم المتأخر عن لزوم المتقدم ، ولا يلزم المتقدم عن وجود المتأخر ، فيلزم ايضا بحسب ذلك فى الدلالة لزومه فى الوجود ، مثاله ان النار يتبعها اللمعان والضوء ، وليس يلزم عن وجود اللمعان والضوء ، وجود النار ، لانه قد يوجد لغير النار ، والصنف الرابع تعطيه القسمة ، وهو أن لا يلزم وجود منهما صاحبه ، وهذا لا يلزم دلالة كما لا يلزم وجودا فلا تترتب فيه دلالة لفظية ، كما لا يترتب فيه وجود لزومى ·

وبنحو هذا نجده يلجأ الى التقسيم العقلى ، فيقبل منه ما يصح قبوله ، ويرفض ما يجب رفضه وهو الصنيع الذى كان متبعا لهم فى كل علم ، تفترض الافتراضات ، فيوخذ بعضها ويطرح بعضها الآخر · عملية رياضية اخضعوها حتى للفقه وأحكام الشريعة ، فتشعثت ·

ومن آرائه أعتراضه على من قال ، بانعكاس الضد الى ضده ، وقرر ذلك نحو قول المعرى « وقد تدمع العينان من شدة الضحك » فقال : وبهذا المعنى علل بعضهم ، وهو عندى غير مرتضى ، من قبل أن انعكاس الضد الى ضده ، وبالجملة انعكاس المقابل الى مقابله أمر غير معقول ، فاننا لم نر الحرارة ، مهما تناهت ، انعكست الى البرودة ، والبرودة مهما تناهت ، انعكست الى الحرارة ، فان الضدين هما الامران اللذان البعد بينهما فى الوجود غاية البعد ، وكل واحد منهما فى الطرف الاقصى من الآخر فى التباين ، واذ ذلك كذلك فمن البين بنفسه ان انعكاس الضد الى ضده غير ممكن ولا معقول ، فينبغى اذن أن يكون قولهم « فاذا زاد احدهما على حده انعكس الى ضده » ناقص العبارة ، وتمامه أن يقال انعكاسا وضعيا ، لا ذاتيا ، لغرض ما من اغراض الناطق ، فى واحد واحد من هذا الجنس المتوسط فى الاتساع ·

وكذلك نجده ازاء من قال ان القضية الشعرية أنما توخذ من حيث الامتناع ، قال هو : وهو قول مرغوب عنه ، مرذول عند محققى الاوائل ، وقد صرح بترذيله ، أبو على ابن سينا رحمه الله ، فى صدر كتاب القياس من كتابه ، ونحن قد قلنا فى ذلك الجنس الثانى ، وليس بنا حاجة ، حيننا هذا ، الى تحقيق ذلك ، من قبل انه كيفما كان الامر ، فليس بضار لنا فى هذا الغرض الخاص · من طلب الارجح من الرأيين هاهنا ، واذ ذاك كذلك ، فمن البين بنفسه أن الراى الاول ، آثر وأدخل فى الامر الصناعى ، اخذنا القول الشعرى مخيلا أو ممنعا ···

ومن الوقفات الخاصة ، التى هى من مطالب الاصول ، كما نجد فى مقدمة جمع الجوامع ، قوله :

والتفسير بالجملة ليس يقع ابدا الا جواب سؤال ، أما بالقوة واما بالفعل ، ولما كان السؤال طلبا ، وكانت المطالب متعددة ، وكانت أمهاتها بنظر ثلاثة ، وبنظر آخر ستة ، أما الثلاثة فمطلب « ما » ومطلب « هل » ومطلب « لم » وأما الستة ، فان مطلب « ما » قسمان ، أحدهما الذى بحسب الاسم ، اى الذى يطلب به مدلول الاسم ، فقط ، كقولنا : ما الخلاء ، وما العنقاء ؟ والثانى يطلب به حقيقة الذات ، كقولنا ما الحركة ، وما المكان ؟ ومطلب « هل » قسمان ، أحدهما بسيط ، وهو مطلب هل الشىء موجود على الاطلاق ، أو ليس موجودا على الاطلاق والآخر مركب ، وهو هل الشىء موجودا كذا ، أو ليس موجودا كذا ، فيكون الموجود رابطة ، لا محمولا ، كقولنا : هل العلم موجود محدثا ·

ومطلب « لم » قسمان ، أحدهما الذى بحسب القول ، وهو الذى يطلب به الحد الاوسط ، الذى هو علة التصديق ، فى قياس ينتج مطلوبا ، والثانى الذى بحسب الامر فى نفسه ، وهو الذى يطلب به الحد الاوسط ، الذى هو علة لوجود الشىء فى نفسه ، على ما هو عليه وجوده مطلقا أو بحال ما ···

هذه الوقفة منه ، اختلط فيها المنطق ، وهو الاكثر ، بالاصول ،

والموضوع هنا اللغة من حيث هى عموما ، لا من حيث بلاغتها خاصة (1) فالبحث فى هذه الادوات وجدنا بادرته ، عند سيبويه ، ثم أمعن فيها علم الاصول ، وقد غزاه المنطق غزوا تاما ، فصرنا نجد من مباحث علم المعانى ما يتعلق بالطلب ، عامة ، وما يتعلق بهذا الطلب من الاستفهام مثلا ، وبتقسيم أدواته بحسب مدخولها من التصور والتصديق وما يختص بأحدهما أو يتراوح على هذا وذاك ، كالهمزة ، وصلة البلاغة بالاصول أو صلة الاصول بها ، معقولة ، كما أن تداخل المسائل فيما بينها ملموس فى هذا ، وفى مباحث أخرى ، وحتى المجاز الذى هو أخص الخصائص بالبيان ، نجد بحثه فى الاصول ، ذلك أن هذه تستمد من القرآن نبعها الاول ، وحيث إن القرآن ، معجزته الكبرى البيان ، اذن فلا مناص للاصول من طرق بابه ، ثم الدخول من أوسعها لقصده ...

ومن اعتماد المؤلف على النحاة ، ما نجده فى مسألة العدل ، الذى جعله أول انواع المبالغة ، فقال فى ابنية المبالغة بها :

هى على ما أحصاها أحد متأخرى النحاة ، ترجع الى أحد وعشرين بناء ، ليس يشذ عنها الا القليل ، فبها ثلاثة أبدية مختصة بالنداء وهى : مفعلان ، وفعال ، وفعل ، كقولهم ، ياملامان ، ويامخبثان ، ويالكاع . ويالكع وياخبث (2) .

وفعلان ، نحو رحمان وغضبان ، وفعلان نحو النزوان والغليان ، ومفعال ، نحو معطار ، ومذكار ، ومفعيل ، نحو فرس محضير ، ورجل

---

(1) كنا ندرس فى محاضرات « الماجستير » الاصوليين واللغة ، على أستاذنا المرحوم أمين الحولى ، فوجدنا هؤلاء مرتبطين أشد الارتباط بالمباحث اللغوية ، ومنذ أن كانوا ، الى عهد السبكى ، الذى وجدناه يزاحم مباحثها الصرف ، بما استوعبه من مائة كتاب ، حفزه اليها حثيثا ، صاحب التلخيص القزوينى ، الذى حشر الاقوال العقلية ، ومن أناس كان لهم شأن عظيم ، واختفى بعضهم من وجود التراجم ، مثل النقشوانى ، الذى ذكر مرتين به ، رصحبنى البحث عن ترجمته ، ما يربو على أربعين سنة ، لم أحل فيها بطائل .

(2) الغالب انه قصد بمتأخرى النحاة ابن مالك ، الذى ذكر فى خلاصته من الاسماء اللازمة للندا ، فعل ، وفعلان ، وفعلان ، وفعال ، بينما ذكر جل الابنية الاتية فى الخلاصة كذلك ، وفى لامية الافعال ، والملاحظ أنه أدخل فى لقب العدل ، هذه الاوزان ، مع أنه اختص بما منع التنوين مما لا ينصرف ، مع الوصف أساسا ، كمثنى وثلاث وربع واحد ، وكذلك مع العلم فى نحو عمر ، وسحر وفعال وفعل

مئشير ، للكثير الحضر والاشر ، وفعيـل نحو سكير ، وشريب للكثيـر السكر والشرب ، وفعال نحو كرام وحسان ، للكثير الكرم والحسن ، وفعال نحو طوال وخفاف ، للكثير الطول والخفة ، ومفعل ، نحو مدعس للكثير المداعسة ، ومفعل ، نحو مكسر ، ومقتل ، للذى يكثر ذلك منه، ومفعل نحو مكرم ومحمد للذى يكرم ويحمد كثيرا ، ومفعلل ، نحو مصرصر للذى يكثر تصويته ، ومفعوعل ، نحو مخشوشن ومعشوشب ، للذى تكثر خشونته وعشبه ، وفعيل ، نحو سريط للذى يسترط كل شىء ، أى يبتلعه ، فهذه ستة عشر بناء ، ومنها الامثلة الخمسة ، وهى من مشهور اجزاء صناعة العربية ...

ومن وقفاته المهمة ما نجدها ازاء الاستعارة ، حيث يقول : وانما تحسن الاستعارة .. على وجه من وجوه المناسبة ، وطرف من أطراف المقاربة ، ولهذا قال الصاحب فى قوله :

وقد ذقت حلواء البنين على الصبا (البيت) .

ما زلنا نتعجـب من قول أبى تمـام : لا تسقنى مـاء المـلام (البيت) فقد خف علينا بحلواء البنين ، قال : فلذلك ينبغى أن يجعل القانون فيها الكفيل بملاك أمرها ، تحليل تركيبها وفك نوع نظامها ، الى نوع تركيب التشبيه ، فمهما استقام القول وصح المعنى ، فالاستعارة جارية على القانون البلاغى ، ومهما لم يستقم المعنى ولم يصح وفسد النظم ، خرج المتكلم الى فساد التعسف وقبح التكلف ، وكان فى عداد من شغف وأولع بحمل شعره على الاكراه فى التعمل لتنقيح المبانى ، دون تصحيح المعانى ، فلذلك لا ترى أبرد من قوله :

فافتك بسيف الدمع مهجة ناظـر   قد مات فى بحر السهاد منامـه

ومن ذلك حكمه على المجاز بأنه عمود علم البيان واساليب البديع ، من قبل انه موضوع الصناعة الشعريـة ... أطنبنا فى صوره الخاصـة . ومثله الجزئية ، من قبل ان المثال ، مثبت للقاعدة الكلية والقانون ، وفاعل بوجه ما لتصوره ، وجماع القول فى هذا الجنس وملاك أمره هو اعطاء التخييل وموضوع الصناعة ، حقه بالالمام بالتخييل فى أربعة أنواع ، التى

هى التشبيه والاستعارة والتمثيل والمجاز ، بالامور الشريفة ، فانه مما يعطى الشعر شرفا ، ويكسبه تخييلا واقعا ، ونباهة استفزاز ، وروحانى اطناب ، وبحسب الالمـــام بهذا القانون تتفـــاوت نهايات الاقدام فى الشرف والخسة ...

ومنها تعليل التنويه ، لما فى ابهام الشىء من التهويل والاكبار لـــه والتفخيم لشأنه ، لطموح النفس فيه كل مطمح ، وذهابها فى شأنه كل مذهب ، والسبب فى ذلك ولوع النفس بتصور المعانى ، وعنايتها بتحصيلها وتفهمها، فمتى ورد عليها اللفظ خدمة المعانى اشرأبت ونزعت الى تصور المعنـــى المدلول عليه اللفظ ...

بعد هذا ، وكان أحق بأن يكون قبله ، ناتى بمقدمة الكتاب ، التى نستشف منها أسلوبه وقصده وطريقه بالتاليف أذ كانت المقدمات ، مداخل الى موضوعها ، شكلا ومضمونا ، وهذه المقدمة .

الحمد لله الممتن علينا بشرف النطق ، المسجل لنا من حسن بيانـــه باحراز خصل السبق الناهج بهذه الصنعة البلاغية ، والملكة البيانية ، الى الوقوف على لطائف معانى تنزيله أنهج الطرق ، الميسر بها على خواص عباده أنموذجا من معرفة وجه اعجاز نظمه كافة الخلق (1) الفاتق

---

(1) يفهم من هذا انه يعطى الاهمية للنظم فى الاعجاز ، وهو ما قال به الواسطى قبل عبد القاهر ، فألف كتابا باسم « اعجاز القرآن » فى نظمه ، ثم جاء عبد القاهر ، بعده بنحو قرنين ، فزكى هذه القضية ، وألف كتابه ، فجمع فيه مجموعة من مباحثه ، سابقة ، وسماه ، كما نعلم « دلائل الاعجاز » ركز فيه على النظم والنظم وحده ، وذلك ما نجده فى مقدمتنا « تاريخ البلاغة » وفى كتابه صراحة غير ما مرة ، على أنه لم تعزب عنه الالفاظ المفردة ، فمنحها حقا ، جعله مكتسبا بالطبيعة ، وواجبا بالنحيزة ، كما نبهنا على ذلك فى موضعه ، من تعاليقنا عليه .

واذ كان حازم معاصرا للمؤلف ، وزميلا له فى نوع التاليف ، فمن المناسب ، أن ننظر فى المخطط الذى وضعه له ، ونقف عند العريض منه ، ولا ندخل الى تقاسيمـــه التفصيلية ، وهكذا ، نجده فى كتابه مناهج البلغاء وسراج الادباء ، يضعه فى أقسام أربعة ذات مناهج أربعة :

الاول (لا يوجد بالمطبوع) القسم الثانى يبحث فى المعانى وما تعرف به أحوالها من حيث تكون ملائمة للنفوس أو منافرة لها ، وفيه مناهج أربعة :

الاول فى الابانة عن ماهيات المعانى ، وأنحاء وجودها ومواقعها ، والتعريف بضروب هيئاتها ، وجهات التصرف فيها ، وما تعتبر به وتحته اضاءات غالبها تتضمن تنويرات، وهو نظام متبع فى كلها ، ثم أحوالها فى جميع ذلك ، من حيث تكون ملائمة للنفوس أو منافرة لها . =

ببديع بديع مباهج مناهج سحرها الالسنة أبدع الفتق ، والصلاة على سيدنا محمد رسوله الصادع ، فى أفصح جوامع الكلم ، بالحق ، ونبيه الداعى من أبلغ أصيل منطق العرب الى الصدق ، وعلى آله وصحبه وسلـــم كثيـــرا .

وبعد فقصدنا فى هذا الكتاب الملقب بكتاب « المنزع البديع فى تجنيس أساليب البديع » احصاء قوانين أساليب النظوم التى تشتمل عليها الصناعة الموضوعة لعلم البيان وأساليب البديع ، وتجنيسها فى التصنيف ، وترتيب أجزاء الصناعة فى التاليف ، على جهة الجنس والنوع ، وتمهيد الاصل من

= المنهج الثانى فى الابانة عن طرق اجتلاب المعانى ، وكيفية التئامها وبناء بعضها على بعض ، وما تعتبر به أحوالها ، فى جميع ذلك ، ومن حيث تكون ملائمة للنفوس أو منافرة لها ، والمنهج الثالث فى الابانة عما به تتقوم صناعة الشعر والخطابة مـــن التخييل والاقناع والتعريف بأنحاء النظر فى كلتا الصناعتين ، من جهة ما به تقومت، وما به تعتبر أحوال المعانى فى جميع ذلك ، من حيث تكون ملائمة للنفـــوس أو منافرة لها ، والمنهج الرابع فى الابانة عن الاحوال التى تعرض للمعانى فى جميع مواقفها من الكلام ، فتوجد بها ملائمة للنفوس أو منافرة لها .

القتسم الثالث فى النظم وما تعرف به أحواله ، من حيث يكون ملائما للنفوس أو منافرا لها من قوانين البلاغة ، ويحتوى كذلك على مناهج الاول ، فى الابانة عن قواعد الصناعة النظمية والمأخذ التى هى مداخل اليها ، وما تعتبر به أحوال الصنمة، فى جميع ذلك ، من أنماط الاوزان فى التناسب والتنبيه على كيفيات مبانى الكلام ، وعلى القوافى وما يليق بكل وزن منها من الاغراض ، والاشارة الى طرف من أحوال القوافى ، وكيفية بناء الكلام عليها ، وما تعتبر به أحوال النظم ، فى جميع ذلك من حيث يكون ، ملائما للنفوس أو منافرا لها ، والثالث فى الابانة عما يجب اعتماده فى الفصول من جهة ، اشتمالها على أوصاف الجهات التى هى مسانح اقتناص المعانى ، ومعاضدة التخييل فيها بالاقناع ، على الوصف الذى يليق بذلك ويحسن به موقعه من النفوس ، والرابع فى الابانة عن كيفية العمل فى أحكام مبانى القصائد، وتحسين هيئاتها وما تجب وما تعتبر به أحوال النظم ، فى جميع ذلك ، من حيث يكون منافرا للنفوس أو منافرا لها .

القسم الرابع فى الطرق الشعرية ، وما تنقسم اليه وما ينحى بها نحوه ، مـــن الاساليب والتعريف ، بمأخذ الشعراء فى جميع ذلك ، وما تعتبر به أحوال الكـــلام المخيل المقفى الموزون ، فى جميع ذلك ، من حيث تكون ملائمة للنفوس أو منافرة لها، من القوانين البلاغية ، وفيه مناهج ، الاول فى الابانة عن طرق الشعر ، من حيث ينقسم الى جد وهزل وما تعتبر به أحوالهما فى كل ذلك ، من حيث تكون ملائمة للنوس أو منافرة لها ، والثانى فى الابانة عن طرق الشعر ، من حيث تنقسم الى فنون الاغراض ، وما تعتبر به أحوال الشعر فى جميع ذلك من حيث تكون ملائمة للنفوس أو منافرة لها ، والثالث فى الابانة عن الاساليب الشعرية ، وانحاء الاعتمادات فيها ، وما يجب أو تعتبر به أحوالها ، فى جميع ذلك من حيث تكون ملائمة للنفوس أو منافية لها ، والرابع فى الابانة على المنازع الشعرية وانحائها وطرق المفاضلــــة بين الشعراء فى ذلك واعتباره من أنحاء التصاريف فى هذه الصناعة ، وما تعتبر به أحوال الكلام وأحوال القافية فى جميع ذلك .

ذلك للفرع ، وتحرير تلك القوانين الكلية ، وتجريدها من المواد الجزئية ، بقدر الطاقة ، وجهد الاستطاعة ، والله تعالى ولى التسديد ، والكفيل بالتأييــد ،،،

وانطلاقا من هذا قال :

ان هذه الصناعة الملقبة بعلم البيان ، وصنعة البلاغــة والبديــع ، مشتملة على عشرة أجناس عالية ، وهى : الايجاز ، والتخيل ، والاشارة والمبالغة ، والوصف ، والمظاهرة ، والتوضيح والاتساع ، والانثناء ، والتكــريــر .

وبهــذا نكف عن الخوض فى هذا الكتاب ، وأقول الخوض لانــه فى الواقع محتاج الى الامعان ، والى أطالة حبل الكلام ، فى الاستقاء من قليبــه العميــق (1) .

ونتصل بالمؤلف الحميرى السبتى . واذا كان الادريسى يمثل الجغرافيين من المغاربة فى العهــد المرابطى والموحــدى ، وعبد الواحــد المراكشى وصاحب كتاب الاستبصار المراكشى (2) العهد الموحدى خالصا ، فان الانصارى الحميرى الصنهاجى ، يمثلهم فى العهد المرينى ، وهو من سبتة مثل الادريسى ، الا انه يختلف عنه فى ثقافته الواسعة ، ويقل عنه فى موسوعيته الجغرافية العالمية .

ذكرت له ترجمته ، من ابن الخطيب ، فى الاحاطة ، وابن حجر فى الدرر الكامنة ، نقلا عن الاول ، كما ذكر بالتنويه فى كتاب اختصار الاخبار عما كان بثغر سبتة من سنى الآثر ، للانصارى ، وبلغة الامنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة فى الدولة المرينية من مدرس وأستــاذ وطبيب للحضرمى (3) .

---

(1) كان كتابنا هذا موضوع الرسالة التى تقدم بها تلميذنا الاستاذ المحاضر علال الغازى ، لنيل دبلوم الدراسات العليا فى الادب ، مركب به الصعب ، الذى يجب أن يركب فى مثل هذه الدراسات الجامعية .

(2) استظهرنا كونه من مراكش ، استنادا أو استيناسا بكتابه .

(3) نشرناه لاول مرة ، فى الستينيات ، بعد ما أعدنا نشر كتاب اختصار الاخبار .

وصفه ابن الخطيب بالاستاذ الحافظ ، وانه كان من صدور الحفاظ لم يستظهر أحد فى زمانه من اللغة ما استظهره ، قائما على كتاب سيبويه يسرده بلفظه ، ويستظهر كتاب التاج للجوهرى ، وغيره ، مشاركا فى الاصول ، آخذا فى العلوم العقلية ، مع الملازمة للسنة ، وفاته بأحواز تازى .

وحلاه الانصارى بالشيخ اللغوى الحافظ الانبل ، المتفنن فى المعارف ، أوحد زمانه فى ذلك ، وأمام عصره ...

وأوفى ما لدينا من ترجماته ، ترجمة الحضرمى ، فى كتابه بلغة الامنية الذى نشرناه منذ عشرين سنة ، ويبدو انه لم يطلع على ما فى الاحاطة ، بل انه استقى ترجمته ، من معاصرين وكتاب ابن خميس كما سنرى فيها ، وهى هكذا :

أبو عبد الله بن عبد المنعم الصنهاجى ، سبتى ، حافظ للغات العرب، ومتفنن يقول الشعر ، واتفق له انه توجه الى حاضرة فاس ، فى وفد أهل سبتة ، فى أيام السلطان أبى الحسن ، وكان قد تقرر لديه حفظه ، فذكر ذلك لبعض كتبته ، فأراد الكاتب أن يغض منه ، فقال له : نصركم الله ، ان الرجل يحفظ لغة حوشية ، وان شئت أن تعرفها عنده ، فاخترع له اسما ، وسله عن معناه ، فقال له السلطان: وما يكون الاسم ؟ فقال : يامولاى ، سلة عن التمركل ، ففعل (1) ، فقال له مجيبا : هو التلفع فى الكساء ، واستشهد له عليه بشواهد للعرب ، فعرف السلطان مكانته ، من الحفظ ، وقام الدليل عنده على ذلك ، رحمه الله ، وحدثنى عنه الشيخ الحسيب العدل ، أبو عبد الله الزيات ، رحمة الله عليه ، انه كان يقرىء الطلبة فى المجلس الواحد ، دولا من علوم شتى ، قال ، وآخر ذلك دولة فى الطب ، قال : فكنت أرى بعض الطلبة ، ممن طال به المجلس ، خارجا من المسجد ، ويدخل اليه أصحاب العلل والزمنى ، شيوخا وكهولا ، لحضور دولته الطبية ، وذكره ابن خميس (2) قال : وكان له قيام على الاصول والنحو ، وسوى ذلك ، قال : وكان يحكم قراءة سيبويه أتم احكام

(1) سبق فى التاريخ حدوث هذه القصة لصاعد ، من ابن أبى عامر .
(2) فى كتابه الاعلام .

ويستظهر شواهده كلها ، ويطرح ما عداه ، من مصنفات فنه ، قال : وكان يقدم صحاح الجوهرى ، على سواها من كتب اللغة ، ويستظهر شواهده أيضا ، ويقدم جواهر ابن شاش ، فى الفقه ، على غيرها من كتبـــه ، وأنسيت ما قاله فى اختياره ، من كتب الاصول ، قال : ويذكر عنه انه أكل البلاذر ، فى صغره ، وتلقيت أنا ممن اثق بحديثه ، من جلة أصحابنا الطلبة ، أنه أخذ البلاذر ، ونقعه فى الماء ، مع القمح ، حتى سرى فعله اليه ، وأطعم ذلك الحب دجاجة ثم انه ذبحها وطبخ لحمها ، ووقف فى صهريج مملوء ماء ، عريانا وأكل اللحم وشرب المرق ، على تلك الحالة، قال وأن جسده ليشتعل من شدة حرارته ، قال : فكان دابه بعد ذلك السؤال ، عن مقتضيات الالفاظ ، والبحث عن معانيها وتاويلها ، قال : فبقى على ذلك مدة ، ثم اعتدل مزاجه ، وتنبل عقله ، واشتد حفظه (1) قال ابن خميس ، ويذكر عنه أنه كان يلعب الشطرنج ، فى حال صغره ، ظاهرا ، ويغالب فيه الاقوياء من قبله ، وكان موضع اقرائه بالمسجد الذى بازاء زقاق أبى الفضل ، على المر الاعظم ، وتوفى رحمة الله عليه بسبتة (2) فى أحد شهور عام خمسين وسبعمائة ، وقد ذكرناه فى الكواكب .

وكتابه الروض المعطار على عادة المغاربة ، بعد البكرى ، يعد كتاب تراجم وأدب بنصوصه ويستفيد منه التاريخ بذكر احداثه . زيادة على كونه وصفا جغرافيا ، لبلاد المغرب العربى والاندلس ، والعالم المعــروف للعربية . وان كان يخالف الادريسى ، فلان هذا الف كتابه لامير نصرانـــى نرمندى ولم يؤلف لامير عربى حتى يكتسى ذلك اللون المعروف لنا .

وقد تناوله مرتبا على حروف المعجم ، وبذلك خالف السابقين الذين لم يلتزموا هذا النظام ، بدقة ، الا البكرى فى « معجم ما استعجم » . فبدأ بآمد ،التـــى ذكر فيها مـــن التاريخ انـــه فى سنة ست وثمانـــــين

---

(1) تناول البلاذر للتقوى على الحفظ ، كان معروفا للطلبة ، وحدثنى بعضهم ، بالشراقات بلده من الاخماس ، أنه تناوله ، فكان يسمع ما يحكم به عليه ، بالاختلال العقلى. ثم عاد الى صوابه ، فكان من طلبتى بالمعهد العالى ، ثم تولى التدريس بمدينة مكناس ردحا من الزمان ، ولكنه استقال ، رتوجه للتجارة ، فهو الان على خير ما يكـون التجار ، من التوفق والاثراء ، وداره بالشرافات أعظم دورها .

(2) يخالف هذا ما ذكر لابن الخطيب .

ومائتين ، نزل المعتضد عليها بعد وفاة أحمد بن عيسى ، وقد تحصن بها ولده محمد ، فبث جيوشه حولها وحاصرها ، وساق فى ضمن ذلك قصة عجيبة ، واشعارا رائقة .

وفى أزمور ، ذكر أن محمد بن عقيل بن عطية ، حكى انه كانت بينه وبين محمد بن حماد صحبة ، ثم اجتاز عليه بمقربة من آزمور قاضيا عليها وانه انكر منه ، فكتب اليه بأبيات أحد عشر ، يقول فيها :

ألا أيها القاضى الذى خلت عهده ... تحول الليالى وهو ليس يحول
أجدك هل أيقنت انى طالب ... جداك فلم يمكن لديك قبول
وهل خلتنى آتيك أشفع شافعا ... وذلك شىء ما اليه سبيل

وفى أبيورد ، ذكر من أهلها ، ترجمة لمحمد بن احمد الاموى أبى المظفر ، وساق أبياتا من شعره ، منها قطعة خفيفة ، يقول فيها :

بابى ريم تعرض لى ... عن رضى فى طيه غضب
فأرانى صبح وجنته ... بظلام الصدغ ينتقب

وكذلك فعل فى الابلة ، فساق قصصا وأحداثا ، ثم أبياتا ، لعلى بن سعيد فى فخر الدين ابن الدامغانى ، وقد حل نهر الابلة ، أولها :

ما بين نهر الابله ... وبين معقل حله
قد حلها كل جود ... وامها كل مله

كما أنشد فخر الدين أبياتا أخرى .

وفى أبيض المدائن ، ذكر فيه شعرا للبحترى ، من قصيدته السينية المعروفة .

وفى الابلق الفرد ، ياتى بقصص جاهلى ، وبشعر للاعشى فى قصة السموال حول دروع امرىء القيس ووفائه وتضحيته فى سبيلها .

وهكذا فى اباغ والاثيل ، واجا ، واجنادين ، واجياد ، والاحساء ، والاحقاف ، والاخوان ، وأذرعات ، وأذربيجان ، وارم ذات العماد ، وأرجان ، والبيرة ، التى ذكر ضمن رجالها أبا اسحاق بن مسعود ، صاحب القصيدة الزهدية التى أولها :

تفـت فـؤادك الايــام فتــا وتنحت جسمك الساعات نحتــا

كما ذكر له أبياتا أخرى ، منها هذا البيت من قطعة :

مــا أميــل النفس الى الباطــل وأهــون الدنيــا علــى العاقــل

وكذلك أمج ، وأنقره ، والانبار ، وانيشه ، التى ذكر فيها استشهاد الكلاعى وما رثى به ، من ابن الابار وأبى المطرف ، واندرس ، واصطخر ، وأغمات ، وافراغه ، واسكر ، واستجه ، التى ذكر فى احداثها شعــرا لابن عبد ربه ، أوله :

الا انــه فتــح يقــر لــه الفتح فأولــه سعــد وآخــره نجــح

وكذلك أشير ، وأواراه ، وأوال ، والايوان ، الذى ساق فيه كذلك أبياتا من سينية البحترى ، والايكة ، وبازبدى ، وباخرزة ، وباجة ، الاندلس (البرتغالية) والباب والابواب ، وبجاية ، وبلاد البحرين ، وبدر ، وبردى ، وبرطايل ، وبزقطة ، وفحص البلوط ، وبلــخ ، والبلقــاء ، وبلنسية ، التى قال فيها ابن خفاجة ، لما عــاث فيهــا النصــارى ، ابيــاتا أولهــا :

عــاثت بساحتك العــدا يــادار ومحــا محاسنك البلــى والنــار

كمــا قال ابن خلصة البلنسى من أخرى :

وروضــة زرتهــا للانس مبتغيــا فأوحشتنــى لذكرى سادة هلكوا

وبعد هذه الحادثة ، قال أدباء وحبروا رسائل منهم ابن عميــرة المذكور ، وابن الابار كذلك ، وما قال فيها أبو عبد الله ابن عياش وعلى بن حريق وكذلك نجد فى « بلرم ، قاعدة صقلية ، وبليونش ، وبــم ، والبصرة ، والبصرة المغربية ، وبعلبك ، وبغداد ، وبست ، وبونة ، وبويرة ، وبوصير ، وبيانة ، وبينون ، وبيسان ، والبيضاء ، وتاجرا . وتاهرت ، وتادلى ، وتبالة ، وتبت ، وتثليث ، وتدمر ، وتطيلة . وتكريت . وتلعفر ، وتلمسان ، وتنس ، وتعشار ، وتهامة ، وتوح ، وتونس .

وتيماء ، وثبير ، والثرثار وثنية البيضاء ، وثنيـــة العقاب ، والثويـــة ، وجامدة ، والجاثليق ، والجحة ، وجرجرايا ، وجرف مواز ، وجرجان ، وجزيرة العرب ، وجلق ، وجمع ، وجمة ، وجنداسابور ، وجند ،والجعفرية وجفر الأملاك ، وجو ، وجواثى ، والجوزجان ، والجوسق ، والجولان ، وجبيان ، وجيرون ، وجى ، والحجون ، وحجر ، والحرة ، والحربيـــة وحزوى ، وحلوان ، وحلب ، وحمص (اشبيلية) ، وحماة ، والحميمة ، وحمة مطماطة ، وفى احداثها ساق قصيدة الجراوى ، التى يقول فيها :

رأى الشقاء ابن اسحاق أحق به   مـــن السعادة والمجدود مجـــدود

وحصن ثوبة ، والحضر ، والحساء ، وحوران ، والحيرة ، وخانقين، والخابور ، والخالصة ، وخبت ، وخرم ، وخرشنة ، وخطرنية ، والخلد، وخناصرة ، والخندمة ، وخوى ، وخوار ، وخوارزم ، والخـــورنق ، والخيف ، ودارك ودارين ، ودابق ، ودارقطن ، ودجلة ، ودارابجرد ، ودرن ، ودلوك ، ودمقلة ، ودمشق ، ودولاب ، ودير القائم الاقصى ، ودير حنظلة (بالجزيرة) ودير حنظلة « بالحيرة » ، ودير مران ، ودير هند ودير يونس ، ودير مارت مريم ، ودير عبدون ، ودير سمعان ، وديـــر العذارى ، ودير زكى ، ودير حزقيال ، ودير الرصافة ، ودير ميسون ، ودير سليمان ، ودير الجماجم ، ودير الزنندور ، ودير الاعور ، ودمياط ، والذنائب ، وذو قار ، ورامة ، والرافذان ، ورأس عين ، وفيها أورد بيت حسان ، المذكور ، فيما سلف :

كـــان سبيئـــة من رأس عين   يكـــون مزاجها عسل ومـــاء

والرجيع ، وربعات ، وردمان ، والرمادة ، والرصافة ، ورصافة اخرى بالانبار ، ورضاء ، ورضوى ، ورقادة ، والرقمتان ، والرها ، ورهاط ، وروذة ، والروحاء ، والرى ، والريب ، والزاب (من عمل افريقية) ، وزاقة ، وزبطرة ، وزرود ، والزلاقة ، وقد أطال فى احداثها وموقعتها وما قيل فى ذلك من أشعار ، وزم ، وزمزم ، وزمخشر ، وتعرض لحمودها ، وذكر له شعرا يرثى به أستاذه أبا مضر وهو :

وقائلـــة ما هـــذه الـــدرر التـــى   تساقطها عينـــاك سمطين سمطين
فقلت هو الدر الذى قد حشا به   أبو مضر اذنى تساقط من عينى(1)

وكذلك زغوان ، والزوراء (رصافة هشام بالشام) وزوراء « بغير الف بالحيرة » وقد سميت بغداد بها ، ذاكرا للمعرى فى هذه قوله فى مطلع قصيدة « هات الحديث عن الزوراء أو هيتا » (2) .

والزبدانى ، وساباط المدائن ، وسابور ، وسامراء ، وسبأ ، وسبتة ، وسبيبة ، والسدير ، وســـدوم ، وسرأة ، وسرق ، وسلع ، وســـلا . وسلوق ، وسلحين ، وسلى ، وسمقندة وسنداد ، وسنابل ، وسنجار ، والسند ، وسفوان ، وسويقة ، وسوسة ، والســـواد ، والشـــام ، وشامة ، وشاطبة ، وشلب ، التى ذكر فى احداثها ، مطلع قصيدة ابن مجبر ، مهنئا المنصور ، باستردادها من النصارى ، وهو :

قلائد فتح كان يذخرها الدهـــر   فلما أردت الغزو أبرزها النصر

كما ذكر له أبياتا أخرى ، أول احداها :

بشـــراى هـــذا لـــواء قلما عقدا   الا ومـــد لـــه الروح الامين يدا

وأول الاخـــرى :

دعا الشوق قلبى والركائب والركبا   فلبـــوا جميعا وهو أول من لبى

وشلير ، التى ذكر أيضا فيها أبياتا ، لابن صارة ، استغفر الله من كتبها ، لاستخفافها ، وهى :

يحـــل لنـــا ترك الصلاة بأرضكم   وشـــرب الحميا وهو شىء محرم
فـــرارا الى نـــار الجحيم فانهـــا   امـــن علينـــا مـــن شلير وارحم
فان كنت ربى مدخلى فى جهنـــم   ففى مثل هذا اليوم طابت جهنـــم

وشلطيش ، التى ذكر فى استدارة البحر بها ، أبياتا لابن حربون ، فى مدح المعتمد ، من قصيدة له ، أول تلك الابيات :

---

(1) ورثاؤه هذا فى منتهى البرودة .
(2) فهى بالالف ، كما هو المعروف فى كتب التاريخ والادب .

الم تــر للجزيــرة كيف أوفــى   عليهــا مثــل ما انعطف السوار

وشلم ، والشماسية ، وشعب بوان ، التى اشار الى قصيدة المتنبى فيها ، بذكر مطلعها ، وشقبنارية ، التى ذكر فيها أبياتا لابن عبدون ، وشقورة ، التى ذكر فيها أبياتا لعلى بن أبى جعفر ابن همشك ، كتبت على قبره بها ، وهى :

لعمــرك مــا أردت بقاء قبــرى   وجسمــى فيــه ليس لــه بقــاء
ولكنــى رجــوت وقــوف بــــر   علــى قبــرى فينفعنــى الدعاء
« سبيل الموت غايــة كل حى »   فكــل ســوف يلحقــه الفنــــاء

وشقر ، التى ذكر فيها قصيدة ، لابنها البار ، الشاعر المغربـــى الاصل ، ابن خفاجة ، أولها :

بيــن شقــر وملتقى نهــريهــا   حيث ألقت بنــا الامانى عصاها
وتغنــى المكاء فى شــاطئيهــا   يستخف النهــى فحلت حبــاهــا

كما ذكر أبياتا أخرى لابن عميرة ، مختلفة القافية والموضوع ، وكلها حنين حار اليها ، وشهرزور ، المعروفة بالعقارب ، وذكر فيهــا لابــن الرومى قوله فى قينة :

فقــرطهــا بعقــرب شهــرزور   اذا غنــت وطــوقهــا بافعــى

وشيزر ، والصافية ، وصاهك ، وصبرة ، وذكر فيها وفى غيرهــا بيتين لابن رشيق ، على اكتساح الاعراب ، لها هما :

اصــاب القيــروان وساكنيهــا   ودار الملــك صبــرة كل بــاس
فمــا الدنيا التى بقيت بــدنيــا   ولا النــاس الذيــن بقوا بناس

والصخور ، فقال فيه ، انه حصن صغير ، دعا لنفسه فيه ، محمد بن هود ، وكان المامون باشبيلية ، فوصله الخبر ، بقيام ابن هود ، وكان عزم على جواز البحر ، فتمثل بالبيت :

ان الطبيب اذا تعــارض عنــده   مرضان مختلفــان داوى الاخطرا

ثم ذكر أبياتا فى توجه المامون ، من أول قصيدة له ، كما ذكر ان الشلوبين ، قام يخطب ، وكان ينطق السين والصاد ثاء ، فقال للمامون « ثلمك الله ونثرك » وصداء ، وصرار ، والصراة ، وفـم الصلـح ، وصنعاء ، والصفراء ، والصفاح ، وصفين ، وصفاقس ، وصقلية ، التى قال ان معناها تين وزيتون ، وهو الذى أراد ابن رشيق فى مدح قاعدتها بلرم ، المدعوة المدينة :

اخت المدينـة فى اسم لا يشاكلها　　فيه سواها من البلـدان والتمس
وعظم الله معنـى ذكرها قسما　　قلد اذا شئت أهل العلم او فقس

كما ذكر أبياتا لشاعرها ابن حمديس من قصيدته التى أولها :

قضت فى الصبا النفس أوطارها　　وابلغـا الشيـب انذارهـا

وصهاب ، وضارح ، وضرية ، وضمير ، والطائف ، والطالقان ، وطبرمين ، التى فتحها ابراهيم ابن الاغلب ، فقال شاعره أبياتا أولها :

قـد فتـح اللـه طبـرمينـا　　فى عـام سبـع وثمـانينـا

وطرسوس ، وطرطوشة التى قال فيها الجزيرى ، لما سجنه ابن أبى عامر بها ، قصيدة منها :

فى رأس أجرد شاهق عالى الذرى　　مـا بعده لمؤمـل من مبصـر
يهـوى اليه كل أجـرد ناعـب　　وتهب فيه كـل ريـح صرصـر
ويكـاد مـن يرقى اليـه مـرة　　مـن دهره يشكو انقطـاع الابهر

وطنجة ، التى ذكر فيها بيتين ، لشاعر ، منكتا بعين ماء خارجها ، يدعى برقال ، يزعون ان ماءها طيب ، ولكنه يحمق ، وهما :

بطنجـة عين مـاء وسط رمـل　　لـذيـذ مـاؤه كالسلسبيـل
خفيـف وزنـه عـذب ولكـن　　يطيـر بشاربيـه الـف ميـل

وطنبل ، والطف ، وطوس ، والطوانة ، وطيبة ، وظفار ، وعاص والعاصى ، وعاقل ، وعانات ، وعارم ، وعبود ، وعبقر ، وعدولى . والعذيب ، وعرعر ، وعكاظ ، وعمان ، بالفتح ، وعمان ، بالضـم . وعمورية ، التى ذكر من قصيدة أبى تمام ، بيتا ذكرت فيه .

وعمرة ، التى ذكر فيها ، من قصيدة ابن مجبر ، أولها :

أسائلكم لمن جيش لهام طلائعه الملائكة الكرام

وعفص ، والعقنقل ، والعقر ، وعسفيان ، وعسيب ، والعوراء ، والعواصم ، والعيرات ، والعريان ، والغربال ، وغزة ، وغزال ، وغمدان والغميصاء ، وغسان ، والغوير ، وفاراب ، وفارع ، وفاختة ، وفخ . والفرات ، وفلج ، وفسا ، وفيد ، وفيروزباد ، والقادسية ، وقادس . التى ذكر فى صنمها لموسى بن شخيص ، هذه الابيات :

ورجراجة الارداف موارة الخطى تهادى وليست من حسان الاوانس
الى أن ترى الشخص الملفع موفيا على الصنم المؤفى على بحر قادس
ولما نزلنا تحته قال صاحبى أعاجب روم أو أعاجب فارس
فقلت له خفض سؤالك والتمس نجاتك من هول البحار الطوامس

والقاطول ، وقابس ، التى نقل عن صاحب الخريدة ، أبياتا ، لابى شاكر ، من بنى رشيد ، الذين لهم ذكر مع صنهاجة ، وهم من الاعراب وقباء ، وقرقيسيا ، وقراقر ، وقنسرين ، والقندهار ، وقصر ابن هبيرة ، وقفصة ، وقسطلة دراج ، التى ذكر منها أبياتا لابن دراج ، المغربى الاصل ، فى مدح عبد الملك ، ابن أبى عامر ، أولها :

أن كان وجه الربيع مبتسما فالسوسن المجتلى ثناياه

وقس الناطف ، وقشتالة ، وقو ، وكابل ، وكداء ، وكربلاء ، والكرخ ، والكرج وكرمان ، والكلاب ، وكناسة الكوفة ، والكعبة ، وكفرتوثا ، واللادقية ، واللبين ، ولد ، ولعلع ، واللؤلؤة ، ومارب . والماطرون ، ومآب ، ومالقة ، التى أنشد فيها البيتين لابن حوط الانصارى قاضيها ، وتقدمت فيما سلف « مالقة حييت ياتينها » .

والماصر ، ومارتلة ، ومثوب ، ومجدول ، والمختارة ، والمدائن ، والمدينة ، التى أعاد فيها ذكر البيتين لابن رشيق ، وتقدما ومدينة المنصور، ومر الظهران ، والمربد ، ومر الشاهجان ، والمراغة ، ومرج عذراء ، ومرج راهط ، والمرية ، ومركش ، ومران ، ومزون ، ومزاق ، ومكول . ومليلية ، وملل ، ومنية نصر ، ومنى ، ومعان ، والمغمس ، ومسينا

والمهراس ، والمهدية ، ومؤتة ، وميسان ، وميافارقين ، وميورقة ، التى ذكر فى احداثها بيتين لابن مجبر من قصيدة مليحة جدا ، كما قال مادحا المنصور . ونبقة ، والنباح ، والنجير ، ونكور ، التى ذكر فيها أبيات ابراهيم ابن أيوب ، وسلف ذكرها ، فيما مضى ، ونصيبين ، ونفيس ، والنشجان، ونيل مصر ، والهاشمية ، والهباءة ، وهرشى ، وهرقلة ، وهمذان ، وهيت ، التى ذكر فيها مصراعا لابى العلاء ذكر قبل كما ذكر أبياتا لابى العز ، ووادى القرى ، ووادى السباع ، ووادى آش ، ووبار ، والوتير ، ووجرة ، وودان ، والوطيح ، والولجة ، والوعساء ، ووشكة ، ويابرة . وفيها ذكر أبياتا لابن الوكيل مادحا ابن عشرة أبا القاسم بن محمد قاضى سلا . وتقدم ذكره قبل .

والياسرية ، وياجميرى ، ويثرب ، واليرموك ، ويمن ، واليمامة ، والينبـــع .

اقتصرنا على هذه البلاد والبقاع ، التى تشمل حتى الجبال والصحارى والانهار والبحار ، الذى ذكر فيها الشعر ، أما غيره من الرسائل والقصص والمدح والاخبار والتراجم ، والوقائع التاريخية ، فأكثر من هذا كله ، خصوصا الملاحم الاسلامية ، وما يتصل بالسيرة والغزوات والفتوح ، منذ الخلفاء الراشدين الى أواسط العصر الموحدى ، مما جعل هذا الكتاب مـــن مصادر تاريخنا المتصل بمدن الاندلس والمغرب العربى ، بما يشمل جزرا فى الابيض المتوسط ، كجزر البليار ، وجزيرة صقلية ، وما ينضاف اليها ، وجزيرة مالطة ، وبالاختصار ، كل ما يتصل بتاريخنا ، فى جزئياته ، ومدنه، وفى مقدمتها مدينته سبتة ، التى نقلنا منها ، بعض ما ورد فى تاريخ سبتة هذا ما يتصل بالمغرب ، وفى الاندلس تعرض للزلاقة ، وموقعتها الخالدة كما تعرض لمدن من البرتغال ، كان للمنصور اليد البيضاء فيها .

هذه الاشياء ، التى ينظر اليها غيرنا ، كأنها جانبية فى الموضوع ، هى التى حملت الحميرى على التأليف فيه ، وهو نفسه يفصح عن هذا الغرض ، فى المقدمة التى ناتى بها مستانسين ومستشهدين ، وعارضين فى الوقت نفسه لاسلوبه الادبى ، وهى :

الحمد لله الذى جعل الارض قرارا ، وفجر خلالها انهارا ، وجعل فيها رواسى الزمتها استقرارا ، ومنعتها اضطرابا وانتشارا ، جعلها قسمين فيافى وبحارا ، واودع فيها من بدائع الحكم وفنون المنافع ما بهر ظهورا وانتشارا ، واطلع فى آفاقها شموسا واقمارا ، جعلها دلولا ، واوسعها عرضا وطولا ، وامتع بها شيبا وكهولا ، وعاقب عليها غيوثا وقبـــولا ، واغرى فى المشى فى مناكبها تسويغا للنعمة الطولى ، وتتميما لاحسانه الذى نرجوه فى الآخرة والاولى ، ان فى ذلك لعبرة لمن صار له قلب وسمع وبصر وفهم منقولا ومعقولا ، « ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنـــه مسؤولا » احمده على جزيل آلائه التى والى امدادها ، واحصى اعدادها، وعم بها البرية وبلادها ، وصلى الله على نبيه الكريم الذى زويت له الارض فراى غايتها ، وابصر نهايتها ، واخبر ان ملك امته يبلغ ما رآه ، وينتهى الى حيث قدره الخالق وأنهاه .

وبعد فانى قصدت فى هذا المجموع ذكر المواضع المشهورة عنـــد الناس ، من العربية والعجمية والاصقاع ، التى تعلقت بها قصة ، وكان فى ذكرها فائدة ، أو كلام فيه حكمة ، أولها خبر ظريف ، أو معنى يستملح ، او يستغرب ويحسن ايراده ، أما ما كان غريبا عند الناس ، ولم يتعلق بذكره فائدة ، ولا له خبر يحسن ايراده فلا ألم بذكره ، ولا اتعرض له ، غالبا ، استغناء عنه واستثقالا لذكره ، ولو ذهبت الى ايراد الموضع والبقاع ، على استقصاء ، لطال الكتاب ، وقل امتاعه ، فاقتصرت لذلك على ذكر المشهور من البقاع ، وما فى ذكره فائدة ، ونكبت عما ســـوى ذلك ، ورتبته على حروف المعجم ، لما فى ذلك من الاحماض المرغوب فيه ، ولما فيه من سرعة هجوم الطالب ، على اسم الموضع الخاص ، من غير تكلف عناء وتجشم تعب ، فقد صار هذا الكتاب محتويا على فنين مختلفين، احدهما ذكر الاقطار والجهات ، وما اشتملت عليه من النعوت والصفات ، وثانيهما الاخبار والوقائع والمعانى المختلفة بها الصادرة عن مجتلابها .

واختلست ذلك من سعات زمنى وجعلته فكاهة نفسى ، وان نصب فيه فكرى وبدنى ، ورضته حتى انقاد العمل ، وجاء حسب الامل ، فأصبح

طاردا للغموم ، ملقيا للهموم ، وشاهدا بقدرة القيوم ، مغنيا عن مؤانسة الصحب ، منبها على حكمة الرب ، باعثا عـلى الاعتبار ، مستحضـرا لخصائص الاقطار ، مثيرا لآثار الامم واحداثها ، مشيرا الى وقائع الاجيال وأنبائها ، ثم أنى قسته بالكتاب الاخبارى المسمى بنزهة المشتاق ، فوجدته أعظم فائدة ، وأكثر أخبارا ، وأوسع فى فنون التاريخ وصنوف الأحداث مجالا ، حتى فى وصف البلاد فانه دائما يذكر نبذة منها وشيئا قليلا ، فى مواضع مخصوصة معدودة ، بل انما عظم حجمه ، بما اشتمل عليه ، من قوله « ومن فلانة الى فلانة خمسون ميلا او عشرون فرسخا ، ومن فلانة الى فلانة كذا وكذا » ، أما الخبر عن الاصقاع ، بما يحسن أيراده ، ويلذ سماعه ، من خبر ظريف ، أو وصف يستغرب أو يستملح ، فانمـا يوجد فيه فى مواضع قليلة معدودة ، الى غير ذلك من عسر وجدان الناظر فيه مطلوبه بأول وهله ، بل بعد البحث والتفتيش .

وجعلت الايجاز فى هذا الكتاب قصدى ، وحرصت على الاختصـار جهدى حتى جاء نسيج وحده ، مليحا فى فنه ، غريبا فى معناه ، مبهجـا للنفوس المتشوقة ، مذهبا للافكار المؤرقة ، مؤنسا لمن استولى عليه الافراد ورغب عن معاشرة الناس ، ومع هذا فقد لمت نفسى على التشاغل ، بهذا الوضع الصاد عن الاشتغال بما لا يغنى عن أمر الآخرة ، والمهم من العلم الزلف عند الله تعالى ، وقلت هذا من شغل البطالين ، وشغل من لا يهمه وقته ، ثم رأيت ذلك من قبيل ما قيل فيه « روحوا هذه النفوس » ومن جنس تعليلها بالباح ، المنشط الى ما هى به اغنى ، ثم هو مهيع سلكه الناس ، واعتنى به طائفة من العلماء ، وقيده جماعة من أهل التحصيل ، فلا حرج فى الاقتداء بهم ، بل اقول ، اعوذ بالله من علم لا ينفع ، وأستغفره واستقيله وأسأله التجاوز عن الهفوات ، والصفح عن الاشتغال بما لا يفيد فى الآخرة ، فيارب عفوا عن اقتراف ما لا رضى لك فيه ، فأنت على كل شىء قدير .

هذه اضواء مهمة على تاليفه . ومن ناحية الصنعة الانشائية ، فانـه باستثناء ، ما ورد فى الحمدلة من تكلف فرضه السجع محمود فى سبكه ، طليق فى تصويره حسن فى نظم سلكه متحرر من قيود السجع ، بخـلاف

الحمدلة ، التى لا تختلف ، عما هى عليها ، بخطب الجمع ، الرتيبة عند اصحابها ، وغالبا ما كان المؤلف من خطبائها ، الى جانب عمله بالديوان المرينى (1)

وبعد فكما ذكرنا فى الفصل الاول من العهد الموحدى ، مؤلفا له قيمته ولا يعرف صاحبه وهو كتاب الاستبصار ، نذكر هنا بالفصل الاول من العهد المرينى مؤلفا له قيمته كذلك ، ولا يعرف مؤلفه الا بالاسم والنسبة · وهو مرتبط بمكان معين فى نطاقه ، كما كان « المقصد الشريف » مرتبطا بمكان معين بحدوده ·

هذا الكتاب هو « جنى زهرة الآس فى بناء مدينة فاس » (2) لمؤلفه ابى الحسن على الجزنائى ، الذى انتهى الى أواخر القرن الثامن ، كما انتهى الى أوائله أبو محمد عبد الحق الباديسى ، السالف الذكر ، والذى ينتسب الى جنوب الريف ، كما انتسب ذاك الى شماله · ولكنهما مع هذا يختلفان ، فى كون الاول من رجال التصوف ، بعيدا عن رجال الدولة ، وكون هذا لم يكن منهم ، وكان منضويا الى الآخرين أو قريبا منهم · فهو فى هذا يشبه كذلك صاحب كتاب الاستبصار ·

وقد جعل كتابه يضم بابين ، أولهما فى تأسيس فاس ، والثانى فى اسوارها وجامعيها ·

اذن فالكتاب له قيمته التاريخية بالدرجة الاولى ، كما كان كتاب الاستبصار له قيمته الجغرافية بالدرجة الاولى كذلك · والذى يهمنا ويعنينا منه ناحيته الأدبية ، بما نجده عليه من أسلوب ، وبما يحتوى عليه ، من نصوص شعرية · غالبها لمعاصريه من أدباء المغرب المرينى الى جانب ما له فى ذلك من اثر كذلك · ومن أولئك من لا ذكر لهم ، أو لهم ذكر فى غير الأدباء ، كما سنرى بعد ·

---

(1) نشره الدكتور احسان عباس ، وقدم له بمقدمة مفيدة وان فاته الاطلاع على كتاب بلغة الامنية الذى كنا نشرناه ، وفيه ترجمة المؤلف وافية ، والنص على تاريخ وفاته بالضبط ·

(2) تقدمت الاشارة اليه عند التعرض لابن عبدون المكناسى ·

فلنعرض الى اسلوبه بما نجد فى مقدمة الكتاب ، حيث يقول :

الحمد لله الذى جعل الحمد فاتحة الكتاب ، وأول كلام الخلق يــوم الحساب ، وآخر دعوى أهل الثواب ، وصلى الله على سيدنا محمد المختار من لباب الألباب ، والرضى عن آله وأصحابه فاكرم بهم من آل وأصحاب ، ومد الله أيام هذه الوزارة العمرية ما تكررت السنون والاحقاب .

وبعد فانه لما كان من شيم سيدنا الوزير السعيد ، المبارك الحميد ، الاعظم الاكرم ، الاثير الافخم ، الاسعد الأضخم ، الفارس البطل الشجاع الاحمى ، الهمام الطاهر الاسمى ، أبوعلي ..... اليابانى الذى سار مسير الشمس ذكره ، وجلا فى الآفاق والاسماع ثناؤه الجميل وشكره ، وامتدت ابصار ذوى البصائر الى الوقت السعيد الذى تجلى فيه بدره ، تعـــــرف تواريخ الدول ، وأخبار الصدور الاول أردت أن أطالع وزارته السنية ، وسياسته اليابانية الحفصية .... بكتاب مختصر يشتمل على ذكر من اسس مدينة فاس ــ كلاها الله تعالى ــ من الادارسة الحسنيين ، وبناء جامعى القرويين والاندلسيين ، يكون تذكرة لمن تقدم له فى ذلك سلوك ، وتبصرة لمن اقيم فى خدمة الوزراء والملوك ... بتيسير الله ... وبركة هذه الوزارة ...، التى علت بأبى عليها ... ورفعت اليه أحاديثها الحسنة ، وصححـــــت أسانيدها ... فلم تك تصلح الا له ولم يك يصلح الا لها ... وكان فى طى هذه الوزارة الميمونة من الطاف الله الخفية ، وصنائعه الحفية ، ما ظهرت أسراره ، وبهرت أنواره ، وعلم العباد أن عناية الله بهم غير مقطوعة ، وأياديه غير ممنوعة ، وأعطاه الله من الحلم والنباهة ... ما سارت بـــه تضرب الامثال ، وتسير بحديثه الحسن الصحيح السيارة والركبان ....

وهكذا استمر يشيد به ثم أنشد فيه :

لـــه همـــم لا منتهـــى لكبارهـــا وهمته الصغرى أجل من الدهـــر

ويختم المقدمة بالدعاء له بقوله :

والله تعالى يعلى مقداره ، ويكتب فى الصالحات آثاره ، ولكل ذى نجوى وسيلة ، يقدمها بين يدى نجواه ، وخدمة يصدق بها عند الاختبار دعواه ، فقدمت بين يدى نجواى هذه الخدمة بهذا الكتاب ، واعددتـــه

وسيلة نافعة ان شاء الله لحصول الطلاب ، والله يجعل موقع ذلك من هذه الوزارة السعيدة الموقع الذى تجلى فائدته ، وتحمد ان شاء الله عاقبته ·

هذا النموذج النثرى ، ليس فيه من بدع ، الا بتحرره من اثقال الصنعة ، المعتادة فى هذا العهد خاصة · والسجعات فيه لم تعد محسوبة من التصنيع بقدر ما صارت ملح الطعام ؛ لابد منه · وبقدر ما نراه يقتصد فى الاقتباس القرآنى ، فى مثل « بين يدى نجواكم » ومثل « لا مقطوعة ولا ممنوعة » « وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين » بقدر ما نراه كذلك ازاء الشعر ، فى نحو قول الحطيئة :

فلم تك تصلح الا له ولم يك يصلح الا لها

بل انه اتى به فى نصه ، وهو يشيد بالوزير المذكور ، فيستغل اصطلاح الحديث مرتين ، بالحسن والصحيح من روايته · كما يستغل من قواعد الفقه صدق الدعوى · أما الاستغلال القرآنى فصار حظا مشاعا فى أدبنا منذ كان الى عهدنا هذا (1) ·

قلنا ان السجع صار ملح الطعام لأدبنا ، فى الشرق والغرب ، وكما ينبغى أن يستعمل الملح لتطييب الطعام ، فكذلك ينبغى ان يستعمل هذا السجع لتحلية الكلام ، وهو فى القرآن ، لذلك لا محالة ، وكذلك الشأن عند الماهرين من صناع الكلام الجميل لابد أن يقتصد فيه ، وأن يحسن فى استعماله ، فهل تحقق هذا فى النموذج الذى أتينا به ·

لقد اقتصد فيه ، الى حد ، ولكن فيما عدا ذلك وقع الاستكراه ، فى نحو « فأكرم بهم من آل واصحاب » وفى « الاسعد الاضخم » ····

أما استعمال المترادفات ، وتقليب المعنى فى حلل مختلفة ، مع اتحاده مضمونا ، فليس ذلك من قبيل التكرار الذى ينشد فيه :

---

(1) ثم صار يختفى شيئا فشيئا ، بتقلص التحفيظ القرآنى لناشئتنا اليافعة ، وانصرافنا نحن عن هذا النور الذى أنار لنا السبيل فاهتدينا بهديه ، ثم ضللنا عنه فابتعدنا عن سعيه ، ولو استمر الحال على هذا ، لانتكسنا وجهلنا أدبنا وتنكرنا لماضينا ، وأمجاد تراثنا ، كما حصل للاتراك ، فتخبطوا فى حاضرهم ، لانهم صرفوا عن ماضيهم ·

ولا تعاود حديثا ان طبعهم   موكل بمعاداة المعادات

بل ان ذلك فى فن القول من الوانه الزاهرة ، ان أحسن فيها التنسيق والعرض ، وهذا ايضا ما نجد صداه فى نموذجنا ، فقد استخدم المترادف فى نحو الاعظم والأفخم والاضخم ، والاثير والحميد ، والشجاع والبطل ، وكان فى هذا ما يتعرض الى التكلف على شىء من التجمل ، فى السنون والاحقاب ، والميمونة والمباركة ٠

سوى هذا فقد اخل التكرار ، بهذا المعرض ، فيما سيطر عليه السعد ، بصيع عديدة فى نحو السعيد والاسعد والسعيد مرة أخرى ، والسعيدة ، وكذلك السير فى « سار مسير » و « سارت » « وتسير » و « السيارة » وكذلك الجلاء ، فى « وجلا » و « تجلى » و « تجلى » ٠

وكذا نجد له نموذجا آخر من نثره ، وهو بصدد الحديث عن عناية أبى الحسن وابنه أبى سالم بالشرفاء فقال : وبعث قاضى حضرته الأشهر ، وعالمه الاكبر ٠٠٠ لسائر بلاده مميزا لاعيانهم ، ومختبرا لانسابهم ، حتى ثلج صدره بصميم نسبهم ، وصريح حسبهم ، واقتدى مولانا المستعين ٠٠٠ بأبيه المرحوم فى برهم ، والانس بقربهم ، فنمى جرايتهم ، وقرب مكانتهم ، وقضى حاجتهم ، وعلى منازلهم ، وراعى وسائلهم ، وأجرى لهم الارزاق السنية ، وتعهدهم بالصلات المرضية ، واختار لهم أقربهم نسبا ، واطهرهم أما وأبا ، وأنضرهم عودا ، وأطولهم عمودا ، وأجودهم جودا ، وأكرمهم جدودا ، وقدمه رئيسا عليهم ، ومختبرا اليهم ، وفوض له فى أمورهم ، صونا لكبر قدرهم ، وهو سيدنا الشريف الطرفين ، الزاكى الاصلين ، السامى الفخار، الشريف النجار،الكبير المحتد ، الكثير السودد، العريق النسب الشريف الحسب ، ذو النفس الوفية ، والشيم الزكية ، والافعال المرضية ، مزين المحافل ، وجامع الفضائل ، صدر المجلس حيث انتهى احتفاله والمعظم فى بساط الملك حيث توخذ آراؤه وتسمع أقوله ، آخذ راية الشرف بيدين ، وحائز قصب السبق فى كل حلبة فما لسواه بها من يدين ، الذى طابت أصوله ، وطالت فروعه ، ولم يزل الى العمل الصالح نزوعه ، أبو عبد الله محمد :

فما مثله يخفى هو الشمس رفعة   ونورا واشراقا وهل تجهل الشمس

أنــارت بــه آفــاق كل جلالــة ... وفاضت بوبل الجود انمله الخمس

ابن سيدنا ووسيلتنا الى الله تعالى الشريف الطاهر الاردان ، المتسم بسيما الايمان ، صوام الهواجر ، ومتسربل ظلام الليل لقيامه وهو للكرى هاجر ، ذى المحامد والمآثر ، والمناقب والمفاخر ، أبى عبد الله محمد :

اذا رأيـت أريت العين قرتهـا ... فما تطيـق جـلالا أن تجـاوزه
سمت يروق وصيت لم يدع أمدا ... للفخـر منتسبـا الا تجـاوزه

وهكذا يخلل نثره بشعر له ، كما يبدو ، ولكنه هنا يبدو عليه التكلـف فى بعض الاسجاع ، مثل « وأجودهم جودا » ومثل « ومختبرا اليهم » ومثل « صدر المجلس حيث انتهى احتفاله » ليركب على هذا » « توخذ آراؤه وتسمع أقوله » ومثل « فما لسواه بها من يدين » ليناسب قبلـه .

هذا ما يتصل بنثره ، وهو فى مرتبة وسط ، بين ما نعرف من نثر هذا العهـد .

أما نظمه ، فليس بيدنا منه ـ سوى ما تقدم ان كان له ـ الا بيتان ، ورد ذكرهما فى الكتاب ، وهما فى سيف ادريس الموضوع على مأذنـة القرويين ، كما يلى :

سيـف ادريـس منتضى بالمنـار ... لا لغـم النفـوس والأغيـار
انمـا جعلـه هنـاك ليبقـى ... خالـدا ذكـره مـدى الاعصـار

فهو شعر أشبه بنظم الناظمين ، منه بشعر الشاعرين .

وفى هذا الموضوع بالذات ساق جملة ازدواجيات ، منها لمنديل ، وقد تقدم ، ذكره بصاحبنا ، كما ذكر بذلك فى المضوع محمد الحباك ، الـذى اشتهر بيته بالأدب ، فيما يأتى ، فقال بيتين هكذا :

شهـرة المشرفى فـوق المنـار ... عـزة للـورى وديـن النبـى
سيـف ادريس مخمد للأعـادى ... وانتصـار الملـوك فى المشرفـى

وممن ذكرهم بصاحبنا فى هذا المقام ، أبو عبد الله محمد الماجرى ، وأبو محمد عبد الغفار خطيب القرويين ، وابو الفضل ابن باشر ، فلأولهم قولـه :

يقولون زجرا ان فاسا قضى لهـا — بذلتهـا سيـف المنـار المشيـد
لقد أخطأوا فى زجرهم ضل سعيهم — هل العـز الا تحـت ظل المهنـد

ولعبد الغفـار :

ذكـرت ولـم اكن للذكـر نـاس — عجائب سيـف ادريـس بفـاس
فلـم يـك بالمنار سـدى ولكـن — ليدفع عـن حماهـا كـل بـاس

ولابـن باشر قوله :

قل لمـن أنكر الحسـام بفـاس — وادعـى الغم قـول ذى تجريـح
سيف ادريس فى المنار شهيـر — شهـرة الديـن بالاذان الصحيـح

أما الذين لم يذكرهم بصاحبنا من معاصريه فى هذا ، فأولهم أحمد بن عبد المنان الذى سلف ذكره ، فيما قبل ، ومحمد بن عبد الرحمن وأبو زيد عبد الرحمن المليلى ، وأبو العباس احمد الدباغ ، وأبو العلاء ادريس بن رشيد ، وعبيد الرحمن الزيتونى ، وسعيد بن ابراهيم الكفاد ، والاميـر اسماعيل ابن الاحمـر ·

هؤلاء لا نعرف منهم الا ابن عبد المنان ، وابن الاحمر ، الذى لسنا متأكدين من ولادته أو نشأته الاولى بالمغرب ، والا لكان يملأ حيزا هاما فى النشاط المغربى على العهد المرينى الادبى ، كما اننا لا نعرف من الذيـن ذكروا قبل الا ابن آجروم منديل ·

ومهما يكن فهذه اشعارهم فى الموضوع ، يقول ابن عبد المنان : وهو سابق الحلبـة :

انكـر السيـف بالمنـار بفـاس — قائـل ان ذاك داعى اغتمـام
لا يرعـك الحسام سـل عليهـا — جنـة الخلـد تحت ظل الحسـام

ويقول محمد بن عبد الرحمن :

بسيـف منـار بفـاس عـدت — محاسنها دانيـات القطـوف
فيـازاجـر الغـم عفـو الالـه — وجنته تحـت ظـل السيـوف

ويقول أيضا :

وما خص ادريــس المنار بسيفــه بغــم ولكن كــي يعــم نــداؤه
مشيرا أجيبوا داعى الله تامنــوا ومن لا يجب داعيه هذا جزاؤه

ويقول عبد الرحمن المليلى :

الم بفــاس ولا تسمــع لقائلهــم سيف المنار كساها ثوب مكتئــب
اما ترى الشمس رانت تحت كاتبها و « السيف اصدق انباء من الكتب »

ويقول احمد الدباغ :

سيف ادريس بالمنار بفـــــاس ليــس للغــــم لا ولا للمخافــه
انما كان وضعه السيف فيهــــا معلمــــا انهــا مقــــر الخلافــة

ويقول ادريس بن رشيد :

ســل ادريــس بالمنــار حسامــا منبئا ذاك عــن شديد العقــاب
داعيا للصــلاة ان لم تجيبــــوا فحقيق الجزاء ضــرب الرقــاب

ويقول عبيد الرحمن الزيتونى :

من يحسد الناس فى فاس يقول لهم بسيف ادريس غم الناس فى فاس
تعسا لقائلهــم بسيفه شـــــرف علا كما قد علا ادريس فى الناس

ويقول سعيد الكفاد الملقب بشهبون :

لادريس سيف اظهر الدين والهدى بأفق منــار لــلأذان تشيـــــدا
فمن ظـــن أن الذل أورثنـــا بــــه فهل ذل الا ظالم ضل واعتــــدى

أما ابن الاحمر فيقول :

وما السيف فى راس المنار لذلــة بفاس ولكــن امــره أيما أمــر
رآها ابــن ادريس مقــر خلافــة فجرده عزمــا لاملاكهــا الغــــر

فهذا شيء بعينه قال فيه من الفاسيين المعاصرين بضعة عشر قائل ، شعرا يتفاوت فى الجودة وعدمهــــا ، كما رأينا هنا وفيما سلـــــف

ومن الذين ورد ذكر لشعرهم ، ولم نكن نعرفه شاعرا ، الفقيه الكاتب

محمد المغيلى ، كاتب أبى يعقوب يوسف المرينى ، المتجم له ابن الاحمر ، فى مستودع العلامة (1) والوارد ذكره فى كتابة روضة النسرين ، فمن شعره قوله يحن الى فاس :

يا فاس حي الله أرضك من ثـرى ... وسقاك من صوب الغمام المسبـل
يا جنة الدنيا التـى أربت عـلى ... حمص بمنظرها البهى الاجمـل
غرف على غـرف ويجرى تحتهـا ... ماء الذ من الرحيـق السلسـل
وبساتن من سندس قد زخرفـت ... بجـداول كالايـم او كالفيصـل
وبجامع القرويـن شرف ذكـره ... أنس تذكـره يهيـج تملمـل
وبصحنه زمـن المصيف محاسـن ... فمع العشى الغرب فيه استقبـل
واجلس ازاء الخصة الحسنا به ... واكرع بها عـنى فديتك وانهـل

كما ورد ذكر شعر لمحمد بن أبى الحسين يحيى بن أبى القاسم امام القرويين بعد أبيه فى عهد أبى الحسن ، وهو قوله عند تأخيره :

أمولاى يا خير الملوك ومن لـه ... مزايا على كـل الملـوك الاكابـر
اما آن ان تحنـو وترحم شاختـى ... وحبك ثاو فى الحشا والضمائـر
وحب ابـى قبلـى اليك مجـدد ... لدى كل باد فى الانـام وحاضـر
فكيف يضيع الحب يانور ناظـرى ... وأنت امـام ذو العـلا والمآثـر
وكيـف يكون المزدغى حبيبكـم ... مضاما مهانا فى القـرى والحواضر
وقد قال اهل العلم طرا بفاسنـا ... بان الذى قـد كان ليس بضائـر
وغاية ما قد عددوهـا صغائـر ... ولا قدح فيمن قـد اتى بالصغائر
أأبعـد عنكـم دون فعل كبـيرة ... وامنع قهرا مـن صعود المنابـر
ولو كنت يا مولاى أعلم أن مـن ... رقـى منبرا مثلى يكون مناظـرى
لما طمحت نفسى لشىء من العـلا ... والزمتها هون الصفوف الأواخـر

كما وجه اليه بأخرى يقول فيها :

مالى سوى المقتدى بالكتب والرسل ... بعد الاله أمير المسلمين علـي
ما لى سواه لما أرجوه من منـن ... مالى سواه لنيل السؤل والامـل

---

(1) ص 48 من منشورنا سنة 1964 .

الفصل الثانى

فى عهد الضعف والانحطاط للدولة

والوضع الذى كانت عليه البلاد ، ابتداء من القرن التاسع ، بل من نهاية الثامن ، كما تقدم ، كان وضعا لا تحسد عليه ، وذلك من الحالة الاليمة التى انتهت اليها الدولة المرينية وقد انشطرت فى كيانها فكانت لها عاصمتان ، فاس ، وبها أبو العباس ، ومراكش ، وبها عبد الرحمن بن أبى يفلوسن . حصل هذا منذ أن اصبحت لعبة ببعد رجالها فى الداخل ،وبيد محمد المخلوع النصرى من الخارج ، وقد تمكن من ضم سبتة الى مملكته برهة من الزمان . ثم ما تلا ذلك من امتداد يد الاسبان الى بعض سواحل المغرب الشرقية ، وبعد احتلال البرتغال لسواحل اخرى امتدت من الزقاق واستمر امتدادها الى سواحله الغربية والجنوبية ، وكانت بداية الاحتلال من سبتة التى كان المغرب استرجعها من بنى نصر وملكهم محمد المخلوع. ولم تكن الطبيعة اقل من هذا وذاك ، بل كان الطاعون الجارف ياتى على الاخضر واليابس منذ أمد بعيد . فهذه الاحداث كلها نخرت فى جسم البلاد ، فهام اهلها على وجوههم ، واشتغلوا بالضرورى من الثقافة ، وتركوا أو كادوا ما كان من قبيل الكمالى ، أو من قبيل الترف الفكرى ، وهو الادب، وبالتفصيل فى تصوير الوضع السياسى وتأثيره فى الادب نجد انه بوفات أبى فارس سنة أربع وسبعين وسبع مائة ، تدهورت الدولة المرينية فى كل شىء ، وتدهور معها الادب العربى وان كانت علوم الدين ظلت على ما كانت عليه من قوة عموما ولكن الادب ، كان كما قلنا ، قد بدأ فى الركود ، ولم يسعفه ابن الخطيب فى هذه المرحلة كل الاسعاف ، لانه كان فى غمرة الانقطاع والتصوف المترهب ولم يكن له من انتاج الا ذلك الكتاب الذى الفه للسلطان الصبى ، أبى زيان بن عبد العزيز ، ، لقد خلع أبو زيان ، بتشغيب ابن الاحمر ، وغرب الى الاندلس ، وانقسمت الدولة ، بين ملك فاس أحمد بن أبى سالم ، وبين ملك مراكش ، عبد الرحمن بن أبى يفلوسن ، وكلاهما كان ابن الاحمر قد سلطه على الدولة ، ليوهنها ، وليقص من جناحها جبل طارق وسبتة ، وما لاحظ على أحمد بعض الانتعاش،

حتى سرح عليه اميرا آخر ، وهو موسى بن أبى عنان ، الذى تغلب على احمد ، وبعثه مقيدا الى ابن الاحمر وظلت سيطرته مفروضة على المرينيين ، ولما حاول أبو زيان بن أبى الفضل ان يسترجع سبتة ، سلط عليه احمد السابق الذكر ، الذى قبض عليه ، وبعثه مغلولا الى طنجة حيث قتل بها ، سنة 789 ، واستمرت الفتن والنكبات ، وتقلص ظل الادب بالمغرب، وقد فارقه منذ زمان ، ابن خلدون الى الشرق ، وابن زمرك الى الاندلس، وابن مرزوق الى الشرق كذلك ، وتوفى ابن جزى ، ثم قتل ابن الخطيب ، و فىهذا الدور الاخير وجدنا شعرا متواضعا لشاعر من فاس ، كان يعاصر آنذاك شاعرنا من مكناس نعنى به محمد بن يوسف الشبوكى، الذى كان من بيت علم وادب ، وكان أبوه على عهد ابى عنان ، شاهدا بدار صناعته .

هذا الشعر يتجلى فى قصيدة سنذكرها ، بعد أن ناتى بما قال فى صاحبها ابن الاحمر مشيدا به فهو فارس القريض وحامل لوائه الطويل والعريض ، وهو صغير السن كبير القريض ، متنسم من نوار روض الاجادة الاريض ، ثم يصفه بأنه كان يفترع عرائس الآداب من النفس الاسدية بالبراثين ، ومع ذلك مات فلم يبلغ السنين الثلاثين .

ومن الصدف أن تكون هذه القصيدة التى أثبتها ابن الاحمر ، قد قيلت فى مدح الملك الذى اخترم فى مقتبل الشباب . وهو عبد العزيز بن على ، وسنه اربع وعشرون سنة ، وكان الضعف بدأ يدب الى الدولة ، بعد موت أبى عنان ، الذى مات مخنوقا ، كما قيل ، وافلت الزمام ، أو كاد ، بعده من يد خلفائه ، الى أن انتهى الامر الى ما انتهى اليه ، اثر مقتل ابن الخطيب .

اما القصيدة فقد انشأها صاحبها بمناسبة القضاء على عمر اليابانى الوزير المتحكم ، مهنئا الملك ومحرضا اياه على الايقاع بعامر بن محمد الهنتاتى المنتقض على الدولة . وهى فى فنها تمثل مرحلة انتقال ، من المرينيين الى الوطاسيين ومرحلة انتقال ، بين عهدين متباينين ، فى الادب والدولة على السواء ، كما نرى .

وهذه القصيدة التى نعنى :

أبان عن حبه ما قال عاذله   دمع جرى فوق صفح الخد هامله
فبات من وطأة التفريق ذا وجل   يستنجد الصبر عونا وهو خاذله
صب أذا ما بدا سالرقمتين له   وميض برق الحمى هاجت بلابله
يبكى لمنزل أنس بان آهله   وظاعن عنه قد شطت منازله
يا حسن عصر بهم قضيته زمنا   رقت حواشيه اذ راقت أصائله
كأن صوب دموعى بعد بعدهم   سيب المليك اذا وافاه سائله
عبد العزيز الذى عزت بدولته   مراتب الحق والتاحت دلائله
واصبح الملك فى امن وفى دعة   من الذى كان غالته غوائله
عادت بعيد لنا منه نضارته   فعاد يانعه واشتد كاهله
كالروض باكره طل على ظما   وجاده بعد ذاك الطل وابله
هو الامام الذى من أم ساحته   جادت عليه بجدواها أنامله
ومن تخلف جهلا عن امامته   سارت اليه على علم صواهله
قل للذى عنه اقصته جرائمه   وعقلته عن العليا معاقله
زر حضرة الملك الميمون طالعه   تحظ بما أنت فى دنياك آمله
فطبعه الصفح والمعروف شمته   والحلم والصون والتقوى شمائله
أبلغ جميع العدا أن سوفا يشملهم   من الظبى كل ماضى الحد فاصله
هذا مليك أتاهم فى كتائبه   لنسلخ آجالهم تنضى رواحله
بكل خرق طويل الباع متئد   مقصر عمر من تلقى نواصله
وجحفل فيه سمر الخط مشرعة   قد حجبت أنجم الشعرى قساطله
سيعلم الغمر عقبى ما جناه اذا   كلت مواضيه وانفضت كلاكه
وحاط بالجبل البحر المحيط ولا   حت فوق أرؤسهم منه جداوله
فانهض اليهم أمير المسلمين فقد   أعطيت كل المنى فيما تحاوله
من ذا ينازل جيشا أنت قائده   يوم الكريهة أو من ذا يناضله
الا ترى المارق الرعديد حين عتا   واضمر المكر صادته حبائله
ظن الضنين بأن يسمو ويعلو فى   دنيا سمت وعلت فيها بواطله
فغادرته الصعاد الزرق منجدلا   فوق الصعيد تناجيه جنادله
دنياه تضحك من أحواله عجبا   به وفى الحى تبكيه أرامله

فليهن دين الهدى من بعد مدته ان أنت يا ذا المحيا الطلق كافله

لم ينتصب قط فى الدنيا لواء علا الا ومن آل عبد الحق حامله

مولاى مولاى دم ما عشت مصطحبا علا وفخرا وعزا لا تزايله

ان سار جيشك فالتقديم يقدمه والنصر عاجله يقفوه آجله

وقد ذكر له فى النثر أيضا ثلاثة ابيات يتشوق فيها الى شبوكة قرية آبائه دون هذه .

اتينا بهذه القصيدة لنستخلص منها الاحكام التالية :

نلاحظ عليها الطابع التقليدى ، الذى عهدناه فى قصائد الامداح التى كانت تنشد بحضرة المرينيين فى مناسبات الاعياد مثلا كما هنا . وفيها من التقاليد المملة مثل قوله فى المطلع :

يبكى لمنزل أنس بان آهله وظاعن عنه قد شطت منازله

وقد ورد نحوه لابن عبد المنان فى مطلع مقصورته وهو :

وشجاه أن قيل الالى قد ودعوا شط المزار بهم وعز الملتقى

وفيها بعض فتور فى صياغتها الشعرية ، كما نجد فى قوله :

« ومن تخلف جهلا عن امامته » . وقد يبلغ ذاك الى التكلف أو الغموض ، كما فى قوله « وانفضت كلاكله » وسياتى توضيحه ثم ان التأنق بالبديع ، لا يعدو من الجناس صورا بسيطة ، مش « رقت وراقت » و « بعد بعدهم » و « جادت بجدواها » و « عقلته معاقله » — وهذا مسبوق به قديما — والصوب مع السيب والصعاد مع الصعيد و « ظن الظنين » ويزدحم ذلك بنحو « عادت بعيد فعاد يافعه » وهو مسبوق فى جل ذلك ، بنحو ابى تمام ، وأبى الطيب وغيرهما ، على فرق فى التناول .

والى جانب الجناس فهناك مطابقة فى قوله :

دنياه تضحك من أحواله وفى الحى تبكيه أرامله و « يستنجد الصبر

وهو خاذله » و « طويل الباع مقصر عمر من تلقى نواصله » و « عاجله يقفوه آجله » .

وكذا القول فى التشبيهات ، فهى مطروقة ملوكة جدا ، وابرد ما فيها هــذه المبالغــة التــى ادعاها لانهمــال دموعــه ، وتخلــص الــى ذكر ممدوحه بالجود فقال :

كأن صوب دموعى بعــد بعــدهم سيب المليــك اذا وافــاه سائله

فلا شك ان ممدوحه استنكف من هذا التشبيه او اشمأز منه ، ولم يشفع لصاحبه ما رامه من مبالغة فى انهمال دموعه .

أمــا التشبيــه :

كالروض باكــره طــل على ظمأ وجاده بعــد ذاك الطل وابلــه

فلا شك انه استعان فيه بالآية : « اصابه وابل فآتت اكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل » . وفيه من فتور الزياد بقوله « بعد ذاك الطل » ما فيه ، وهو كذلك مطروق منذ الجاهلية ، كما تقدم للاعشى وغيره .

والقصيدة فيها ريح من قصيدة غيلان فى مدح عبد الملك ، ومطلعها :

وقفت علــى ربــع لمية ناقتــى فما زلت ابكى حــوله واخاطبه

وكأن الشاعر الشاب لم يكن قد استوفى مداركه العلمية ووسع من معارفه ومشاهده ، فالبيت مثلا :

وحاط بالجبل البحــر المحيط ولا حت فوق أرؤسهم منــه جداوله

فيه أولا ، استعمال حاط به ، بمعنى أحاط به ، ولم يسمع هذا ، بل سمع حاطه اذا صانه وحفظه ، وحاطه كذلك بمعنى أحاط به .

ثانيا ، قد جعل للبحر المحيط جداول ، ولا شك أن الشاعر الفاسى لم يشاهد البحر بتاتا ولم يخبر من شأنه شيئا .

ثالثا ، كنى بالجداول عن السيوف اللامعة ، التى تشبه فى صفائها بالمياه الصافية ، وهذا ما لا يتأتى منظرا فى مياه البحار وهى زرقاء .

ومن قبيل المتناقضات ما ورد فى هذا البيت :

ظن الضنين بأن يسمو ويعلـو فى   دنيـا سمت وعلت فيها بواطلـه

زيادة على قوله فيه « ظن بأن يسمو » فلا نعلم لمعمول ظن ما يتحمل هذا الحرف ونحوه من حروف الجر ، فحقه الترك فى ذلك ، هكذا « ظن أن يسمو » كما فى القرآن الكريم « فظن أن لن نقدر عليـه » « وظن أنه الفراق » « ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله » « وانهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله احدا » اللهم الا أن يكون « ظن » مصدرا .

ومن التنافر وعدم التلاؤم بين الكلمات نحو « أن انت » فى البيت :

فليهن دين الهـدى من بعد مدته   ان انت ياذا المحيا الطلق كافلـه

وقدما قال الجـاحظ فى هذا الصنيع من الشعر ان « بعض الفاظه تتبرأ من بعض » كقول ابن يسير :

وانثنت نحـو عزف نفس ذهول

وقـول أبـى تمـام :

كريم متـى امدحه امدحه والورى   معى واذا ما لمته لمتـه وحـدى

ومما لا يناسب خطاب الملوك قوله « الا ترى » فى البيت :

الا ترى المارق الرعديد حين عتا   واضمـر المكـر صادته حبائلـه

لان التحضيض لا يصدر الا عن استعلاء كما فى قول يوسف « الا ترون أنى أوفى الكيل وانا خير المنزلين » .

كما لا يليق ذكر غيره من رجاله ، بكونه كانت له مدة فى دولته ، وأن المالك أصبح فى أمن ودعة منه ، وقد غالته غوائله » زيادة على ما نحس به من نشاز فى قوله « من الذى كان غالته غوائله » واذا كان النحو لا يعترض عليه فانه ليست له الكلمة وحده . ومنه « انفضت كلاكله » فى البيت :

سيعلم الغمـر عقبى ما جناه اذا   كلت مواضيـه وانفضـت كلاكله

وكنت رأيت أنه مصحف أو محرف عن « جحافله » لكنى عدلت عن ذلك ، حيث ينبو عما ذكر قبله الملك فى البيت :

« وجحفل فيه سمر الخط مشرعة » فلا يليق أن يذكر الملك بجحفل وخصمه بالجحافل والا فيضاف هذا الى ما سبق ذكره مما لا يليق ، والغالب أنه استعار هذا من :

فقلت لـه لمـا تمطى بصلبـه وأردف اعجـازا ونـاء بكلكـل

فلم يحسن الاخذ .

وعلى كل حال ، فان هذه القصيدة تعوزها الحبكة التى تتسم بهما أمداح الملوك خاصة ، صادرة عن الشعراء الذين لهم وزنهم .

وهذا الانحطاط كان عاما حتى لسبتة ذات الازدهار الادبى ، فانها على أوائل التاسع ، وجدنا صوت الادب يخفت فيها بعد ما خفت فى باقى مدن المغرب ، وهذه رسالتهم وقصيدتهم اللتان توجهوا بهما الى آخر ملك مرينى ، هو عبد الحق صورة باهتة اللون مموهة الشكل لما كان عليه اد بها ،وكذلك كان الامر فيما اجاب به الملك المرينى .

نعم أن كل ذلك كان صادرا من الاهالى العوام ، فى غالبهم ، واليهم من الملك ، ولكن أين العلماء والادباء من أهل سبتة لذاك العهد ، وفى تلك المحنة ؟

لا نعرف عنهم ومن أثرهم ، الا كتابين صغيرين ، الف أحدهما الانصارى المغمور ، والف آخر رجل ، يعرف بالحضرمى مثله . نعنى بهما « اختصار الاخبار » و « بلغة الامنية » .

اذن فالضعف الادبى لم يحل بحلول الدولة الوطاسية ، بل كان امتدادا للضعف الذى سبق قيام هذه الدولة ، وذلك حسب السير الطبعى لقافلة الفكر والادب خاصة من انتاجه ، فكل مرحلة من هذا ترتبط بالمرحلة السابقة واللاحقة ، كما قلنا سلفا ، وبالرغم من أن أوائك الملوك المرينى الذين كان ابن الاحمر يقيمهم ويقعدهم ، كانوا على حظ من الادب الذى نالوه فى اقامتهم بالاندلس فانهم لم يجدوا حولهم الا ثلة من الادباء

كانوا فى خدمتهم التى ورثوها ابا عن جد ، فكان اتصالهم بالبلاط آليا تلقائيا ، لا يحول بينه حائل ، ولو عرض للغضب الذى يفضى الى القتل ، آباؤهم مع أجدادهم ، مثل عائلة القبائلى .

وقد حفظ منها لعبد الرحمن القبائلى شعر ، لا بأس به ، من ذلك قولـــه ، متغـــزلا :

اتسمع فى الهوى قول اللواحـــى	وقد ابصرت خشف بنـــى رياح
غـــــزال خلـــف الصب المعنـــى	من الوجد المبـــرح غيـــر صـــاح
وقـــد قتلت ولا اثـــم عليهـــــا	مـــراض جفونـــه كـــل الصحاح
يقـــول ولحظه بالعقـــل يـــزرى	عـــلام تطيـــل وصفى وامتداحـــى
فقلت فنـــون سحر فيك راقـــت	قضت للقلب بالعشـــق الصـــراح
جبينـــك والمقلـــد والثنـــــايـــــا	صبـــاح فى صبـــاح فى صبـــــاح

فهذا شعر من الناحية الصياغية ، لا بأس به ، ولو انه من ناحية التصوير لا شىء به جديد ، ثم يلاحظ فيه بعض الفتور فى مثل قوله ، على م تطيل وصفى وامتداحى ، فامتداح الشاعر لا يكون فى جانـــب محبوبه الهائم به ، وانما يكون امتداحه ، لشخص يصفه بأوصاف حميدة، هادئة وديعة ، لا ثورة فيها للعاطفة المتأجحة . كما يلاحظ عليه ، هذه الصنعة ، فى مثل قوله « وقد قتلت مراض جفونه كل الصحاح » ثم هذه العبارة ، « قتلت ولا اثـــم عليها » ، ليســـت شعرية واحسن مـــا فى الابيات البيتان الاخيران .

فالغالب أن هذا الشعر لم يقل الا على سبيل التسلى والتلهى ، ولم يقل للتعبير عن عاطفة صادقة ، أو وجداان حاصل ، وهذا بين فى أول بيت منه ، فقول اللواحى لم يأت الا ميرافق رياح ، وكذا القول فى غالب القوافى التى يمهد لها أو يسد بها غيرها .

وقد خلفـــه ابنـــه علـــى فكـــان شعر هذا اضعف من شعر أبيه كقصيدته التى هنأ بها ابا سعيد المذكور ، وقد ابل من مرضه ، فهنـــأه الشعراء ، الذين كان منهم على وقد صار مرتبا فى جملـــة كتابه لذلك

العهد ، وهو سنة 807 ، فقال :

هنيئا لنا ولكل الانام … براحة فخر الملوك الهمام
امام اقام رسوم العلا … وحل من المجد أعلا سنام
به قرت العين لما بدا … صحيحا وما ان به من سقام
وهل هو الا كبدر الدجا … توارى قليلا وراء الغمام
ويظهر طورا فيجلو به … عن الناس ياصاح ساجى الظلام
أو الليث يعكف فى غيله … فتحذر منه السباع اهتجام
أمولاى عثمان بحر الندى … ومردى العداة ونجل الكرام
لقد رفع الله مقداركم … فنفسى الفداء لكم من امام
أمولاى عبدك قد ضره … أفول رضاكم وبعد المرام
وأضحى كئيبا لابعادكم … مشوقا لتقبيل ذاك المقام
فكن راحما يا امام الورى … عطوفا بمملوكك المستهام
اعل الذى ناله ينقضى … وتشمل منك هبات جسام
فأيدك الله بالنصر ما … ترنم فوق الغصون حمام

ولا شك انه نظر فى نسجها الى قصيدة بشار فى الوالى عمر بن العلاء وقد تقدمت الاشارة اليها غير أن اللغة المستعملة فى القصيدة ، والتى تطالعها بقوله هنيئا لنا ولكل الانام فى غاية البساطة من التعبير العامى وان كانت تحاول أن ترتفع بنحو « اقام رسوم العلا وحل من المجد أعلا سنام » على ما فيه من فقر فى « رسوم العلا) مع « أعلا سنام » ومن العامية « صحيحا » بالبيت الثالث ، وفى البيت :

ويظهر طورا فيجلو به … عن الناس ياصاح ساجى الظلام

يظهر هذا العجز جليا فى الاستنجاد بهذا النداء « ياصاح » ولا محل له فى ذلك المقام الذى كان ينشد به ، كما أنه لا محل له من البيت الا أن يكون واغلا فيه . وهكذا لا نجد فى البيت ما نضع عليه يدنا مستحسنين او مستطرفين .

ويبدو أن الشاعر صار يقصى عن حضرة الملك ويهمل شأنه ، ولهذا

نجده يستعطفه ، كما استعطف قبله الجراوى المنصور ثم الناصر الموحدين ولكن فرقا ما بين الاستعطافين ، فالبيت :

أمـولاى عبـدك قـد ضـره افـول رضـاكـم وبعـد المرام

الى آخر الابيات الاربعة ، لا ترتفع عن ذلك المستوى المنخفض ، ولا تضاهى ما كان للجراوى فى هذا المقام ، وأخيرا يختم بهذا البيت :

فأيـدك اللـه بالنصـر مـا تـرنـم فـوق الغصـون حمام

فكان « ترنم حمام » على ما فيه لا يناسب عوامل النصر ، ويفتر به هذا التأييد ، الذى يكون بروح من الله ، وبجنود لم يروها زيادة على كون الترنم لا يناسب هديل الحمام ، الا وهو مستعمل على المجاز ، ان كان الشاعر حقيقة قد قصد اليه ، ولا غناء فيه .

وكان يعـاصر شاعرنـا عليا شاعـر آخر على شاكلته ، هو أحمد ابن عبد المنان ، ومن شعره ما قاله على الارتجال فنال بذلك الارتجال — الذى ربما كان مزعوما يخلق له مناسبة — اعجاب الحاضرين وغير الحاضرين ، فيحكى أنه دخل ذات يوم مساء على أبى العباس ، فحياه تحية الصباح ، ولما تنبه اعتذر بهذين البيتين :

صبحته عنـد المساء فقـال لـى مـاذا الكـلام وظن ذاك مـزاحا
فأجبتـه اشراق وجهك غـرنـى حتـى توهمت المساء صبـاحـا

هذان البيتان ، وان كان صاحبهما قد وفق فى تخلصه ، بما فى البيت الثانى من معنى ، الا أن الصياغة الشعرية ، بريئة من الاول ولا بأس بالثانى ، الذى اعتمد فيه على بيتى ابن الفارض :

أو ميض بـرق بالابيـرق لاحـا أم فى ربى نجـد أرى مصباحـا
أم تلك ليلـى العامرية أسفـرت ليـلا فصيرت المسـاء صباحـا

كما كان يعاصرهم عبد الله اللخمى المعروف بابن الصفار، وربما كان هذا من مهاجرة الاندلس ، الذين استقروا بمكناس وحواليها .

وله شعر يقول فيه :

يا من لديه مفاتح الارزاق ولـه المشيئـة والدوام الباقى
كثـر التفاتـى للخلائق شاكيـا وحقيقـة الشكـوى الى الخلاق
فترددى فيما لديك الـى الـورى عجز وقد عجزوا على الاطـلاق
لكن بسطت رجائى بسطة مؤمـل متوسـل لـك باسمك الـرزاق
فى عطفـة الملك المؤيـد احمـد ذى الخلقـة الحسنا وذى الاخلاق

وقد كان صاحبنا ابن الصفار يجتهد فى اسناد حسبة مكناس اليه ، ولما اخفـق قـال :

ياباسط الرزق كل السعى والطلب وانت لو شئت هان الامر والسبب
لكـن رجوتك فى رزق تيسـره من حيث لم احتسب او حيثاحتسب

ومن هؤلاء على بن حى المكناسى ، القائل :

عبد من الحسنات اصبـح مفلسا وبضدهـا ثوب الديانـة دنسـا
يمسى ويصبح للخطـايا كاسبا لم ينهه مر الصباح ولا المسا ،

فهذا كسابقه كلام منظوم ، لا مسحة عليه للشعر .

ومنهم محمد ابن جابر المكناسى القائل :

تالله من بعد حبى الذيـن مضوا وخلفونـى رهين البث والشجـن
ما ابصرت مقلتى من بعدهم حسنا ولا نظرت الـى شىء فاعجبنى

ويقـول موريا :

ان خفت مـن فتك المهند والقنا فاذا رنت واذا مشت لا تقـرب
فى قلب برقعهـا محاسن انزلت قمـر السماء لنا بقلب العقـرب

ويقـول :

حلت عقـارب صدغـه من خده قمرا فجـل بها عـن التشبيـه
ولقـد عهدناه يحـل ببـرجهـا فمـن العجائب كيف حلت فيـه

فهذا كسابقه كلام منظوم ، وان كان عليه رونق من الشعر الا انـه

مردد لأقوال الشعراء · وقد استغل — كما رأينا — معلومات فلكية ، فوفق مستعينا ببيتى « الرقمتين » ·

وهذا شعر آخر له :

قل للحريص تفكر   اذ كنت فى بطن امك
اكنت اعددت رزقا   يقيم نشأة جسمك
وعند خلقك لما   اصبحت اضعف قومك
هل قمت تنشىء ثديا   يدر رزقا بجسمك
حتى فطمت فاضحى   أبوك يسعى لطعمك
والام تجهد معه   فيك الى وقت حلمك
فحين صرت قويا   أخا احتيال بزعمك
خفت الضياع فأضحت   دنياك اكبر همك
هذا لعمرى سفاه   قضى به سوء فهمك

وما أقلق الشطرة الاولى من البيت الخامس ، فهى افظع من « كريم متى أمدحه أمدحه » .

ومن شعره :

أيا من اراد التخلص من   دناه لخوف اذايتها
اذا شئت تسلم من شرها   فسلم لما فى حويجاتها

ومن شعره قوله فى مكناس :

لا تنكرن الحسن من مكناسة   فالحسن لم يبرح بها معروفا
ولئن محت أيدى الزمان رسومها   فلربما أبقت هناك حروفا

ونلاحظ على البيت الاخير انه يتضمن المثل العامى « يمشى الزين وتبقى حروفه » ·

ولنرجع الى أواخر القرن الثامن وأوائل التاسع ، فنجد بفاس شعراء ، مثل عبد الرحمن المكودى ، فقد خلف لنا من شعره مقصورته المعروفة ، فى مدح النبى عليه الصلاة والسلام ، وقد ملا هذه المقصورة

بالصنعة ، واستعمل فيها بعض الغريب ، واقتبس من غيره صورا واخيلة، عرضها فيه . وغالبا أنه كان قد أطلع على مقصورة ابن جابر الالمرى فى مدح الرسول . وقد أقام هذا مقصورته على حروف المعجم ، حيث جعل كل حرف يتضمن عشرة أبيات غالبا ، ومن المفيد أن نأتى بنموذج منهـــا فيمـــا يلـــى :

بادر قلبـــى للهـــوى ومـــا ارتأى	لمـــا راى مـــن حسنهـــا ما قد راى
فقـــرب الوجد لقلبـــى حبهـــــا	وكـــان قلبـــى قبـــل هذا قد نأى
يا أيهـــا العادل فى حبى لهـــــا	اقصر فلى سمع عن العذل بأى
لو ابصر العاذل منهـــا لمحـــــة	مـــا فض بـــاب عذلـــه ولا فأى
سرحت طرفى طالبـــا شأو العـــلا	وتابعا فى حيهـــا ما قد شـــأى
انـــى لارعـــاها علـــى تتبيعهـــا	عهـــدى ومثلـــى من وفى اذا وأى
من منصفـــى من شأذن لم أرجه	لحاجـــة مـــن وصلـــه الا زاى
وان قبضت النفس عن سلـــوانه	مـــد اديم هجـــره لـــى وسـأى
لاقطعـــن البيـــد أفرى حاذهـــا	بضامـــر يفرى الحصا اذا جـأى
حتـــى أزور ربـــة الخدر وقـــد	ذاد الكـــرى عنى الوشاة وذاى

وبعـــد الهمزة الباء :

يا رب ليـــل قـــد تعاطينـــا بـــه	حديث أنس مثل أزهار الربـــى

وبعد العشرة منها التاء :

تاللـــه لا أعبـــا بعيش قد مضى	ولا زمان قـــد تعـــدى وعتـــــا

ثـــم الثـــاء لذلك :

لـــولا اشتياقى لديـــار كـــرمت	لبعدهـــا يرثـــى لنا مـــن قد رثى

ثـــم الجيـــم :

انـــا الفتـــى لا يطبينـــى طمـــع	فأبـــذل الوجـــد لنيـــل يرتجـــى

ثـــم الحـــاء :

كـــم سرت فى البيداء لا يقلقنـــى	حـــر الهجير لا ولا بـــرد الضحى

ثم الخاء :

يا عجبا من حاسد لى قد زها بعيشه الغض على وانتخى

وبهذا الحرف يتخلص الى مدح الرسول :

ان الذى لا ينثنى عن جوده ان بخل الدهر لها وان سخا

الى ان يتصل بالدال فيقول :

خير الورى طرا من الله به اذهب عنا كل عى فامتحنى

ان تحسب الرسل سماء قد بدت فانه فى افقها نجم الهدى

ويستمر فى ذكر شمائله حتى الذال :

فكم كسا من ثوب نعمى قد ضفا وكم هدى بعلمه وكم غذا

وهكذا حتى الراء :

لا تنفق العمر سوى فى حب من هو الذى فى سنن الحق جرى

فالزاى :

انهضنى بهديه الى التقى بعد قصور العزم والباع الوزى

ويختمه بقوله :

لم ترعين كرسول الله ذا حزم ولا احلم ان دهر غزا

ويتصل بالسين :

اذا ملمات الامور قلقلت الفيته كانه طود رسا

بخلقه فليقتد المرء فما اكرمها من مقتدى ومؤتسى

وبهذا ينتقل الى بذل النصح والارشاد بالشين :

لا تحسب الراحة راحا ترقفا للشرب منها قيس ومنتشى

وبعد انتهائه يتصل بحرف الصاد فيعود الى النبى بقوله :

خاب امرؤ لم ير ارضا حلها من اصطفى رب السماء وانتصى

ويستمر الى الضاد ، فيقول مناجيا :

يا مجتبى من خير قوم حسبا　　فيما أتى من زمن وما مضى

فالطاء حيث يقول ناصحا :

ادفعن الشر بحسنى فاذا　　به أخو صدق وان كان سطا

وبعد ما يخلص من اسداء النصح يتصل بحرف الظاء بقوله :

لا يحسن المدح سوى لمن يرى　　مادحه بمدحه قد احتظى

ويستمر فى ذكر شمائله عليه السلام ، فيقول فى العين :

يا موسع الالف بصاع شيعا　　ومن مشى الدوح اليه وسعى

وهكذا الى الغين الذى لم يرد فيها الا سبعة أبيات :

ودق سحاب تحسب البرق به　　اسنة قد أشرعت يوم الوغى

فالفاء :

هذا اذا استكفيت فى أمر به　　أجداك فيما تنتحيه وكفى

ويختمه بقوله :

اسس خلق الجود فينا فافتدى　　به لنا ورد المعالى قد صفا

ويتخلص الى النصح والحكم بالقاف :

الجود يعلى المرء والبخل لقد　　يحط عن رتبته من ارتقى

وبعدها يتصل بنفسه فيقول فى الكاف :

امضيت طرفى كى يرى طرفى ما　　اخبرته من طيب مجد قد زكا

ويخلط هذا بالاعتبار والنظر الى الامم الخالية قبل الاسلام ، ثم يتصل بملوك الاسلام وعظمائه فى حرف اللام فيقول :

لم يامن المامون من صولتها　　ولا ابن هند من عواديها خلا

ولكنه يعود فيذكر الزباء وعمرا ، ومهلهلا وبكرا ، وسبأ وعادا ، وفرعون وموسى وغير هؤلاء يخلط بهم رجالا فى الاسلام الى أن يتصل بالميم فيقول:

هى الليالى ليس يرعى صرفها لا خاملا فيها ولا من قد سما
ولا رسول الله فينا لم يزل كهف حمى فهو لنا نعم الحمى

وينتهى منه ، فيبتدى فى الواو بأبيات أربعة فى النصح والحكم ، كما نجد فى الاول منها :

اعرض عن الجاهل مهما قد اسا وحسبه من جهله ما قد حوى

ثم يعود الى الرسول فى الستة الباقية ، مفتتحا :

لم اشكر البعد على خير حمى قد صدنى عن انسه شحط النوى

ويستمر فى النون بقوله ، أولا :

اى والذى ما زال يسرى جاهدا حتى اتى ميقاته وما ونى

وتنتهى العشرة فى وصف النبى الذى أقسم به وياتى حرف الهاء استمرارا فى ذلك :

خلق على لم يحوها الا امرؤ نهاه عن نبذ العلا رعى النهى
فان يقل من حازها ؟ قل : الذى له تسامى كل مجد وانتهى

وياتى حرف الياء :

انى تخيب اليوم آمالى ولى من كفه أكرم من صوب الحيا
ثم ياتى اللام مرة أخرى فى أربعة ، ثم الدال كذلك فى سبعة .

هذا ما يتصل بمقصورة ابن جابر الالمرى الاندلسى .

وبعد فهذه مقصورة المكودى التى استهلها بقوله :

أرقنى بارق نجد اذ سرى يومض ما بين فرادى وثنى
أهبنى اذ هب منه موهنا ما سد ما بين الثريا والثرى
شممت من ارجائه اذ شمته ريح صبى اضوع من ريح الكبا

فيــاله مــن بارق ذكــرنـــى ... مــن الهوى ما كنت عنه فى غنى
اثــار شوقا كــان منــى كامنــا ... بين ضلوعى طالمــا فيهــا ثــوى
فكــان قلبى المجتوى اذ هاجــه ... كالزنــد اذ وراه مــور فــورى
وسح سحب مقلتــى فمــا بقــى ... نــوع من الدمع بهــا الا همــى
مــا كنت أدرى قبل أن انفــده ... ان البكــا يمنعنــى مــن البكــا
وليلــة سبحــت فــى ظلمتهــا ... أذ سحبت فضول اذيال الدجــى
الفت فيهــا كــل مــا الفيتــه ... يوهى القوى الا التسلى والكرى
طالت ومــا أطل نائــى صبحها ... الا باغيا ما لديهــا مــن تــوى
قــد وقفت نجومهــا فــى افقهــا ... وقفــة حيــران طويل المشتكــى
جبت بهــا وحــدى قفــرا سبسبا ... ليس بــه الا النعــام والمهــا
نائى الزيازى والفــلا دانى الصفا ... خالى الفيافى والذرى خاف الصوى
قطعتــــه ببــازل ذى مــــرة ... ينــوع السيــر بأنــواع المشــى
فتــارة يعمــل فيهــا الخــزلــى ... وتــارة يعدو عليهــا الهيــدبــى
كأن رحلــى اذ علــوت ظهــره ... فــوق متين المتن وجــرى القوى

ففى هذه الابيات الى جانب غرابة الفاظها ، كثير من الصنعــة ، وخصوصا الجناس ، اما صورها واخيلتها فهى مستقاة من مقصورة غيره مثل الفاظها التى قدت فى غرابتها من غرابة تلك المقصورات . فمن جناساتها الثريا والثرى ، وشممت وشمت ، والصبا والكبا ، وسبحت وسحبت ، والفت والفيت ، وطالت وأطل ، وخالى وخافى ، ومتين المتن .

اما غيره كالمطابقة فقليل ، مثل نائى ودانى ، وأثار وثوى . وكذلك الشأن فى التشبيه والاستعارة والكناية .

ومن صورها الجميلة وان كانت مطروقة لغيره :

حتــى اذا انتضى الصباح نصلــه ... وقــد جلبــاب الدياجى فانفــرى
كأنــه كتــائب قــد نشــــرت ... راياتهــا على الاكــام والربــى
احست الشهــب بهــا فأجفلــت ... وأمــت الغــرب وجدت فى السرى
اذا انــا ببقعــــة غيطــانهــــا ... جــرى بهــا سلسال نهر وانحنى

كأنــه معصــم خــود غـــادة ‏ ‏ علــى رداء قــد وشـــاه من وشى

فهذا الوصف لا ياتى به أو يردده آلا شاعر توفر على خيال خصب وذوق مفن ، وكذا بعده :

وظــل روض راضه صوب الحيــا ‏ ‏ فاعتم مــن نــور حــلاه واكتسى
باكـــره وسميــــه فانفتحــت ‏ ‏ كمامــه عــن زهــر طيب الشذا
وهــز أيــدى الريــح منه قصبا ‏ ‏ غنــى بهــا الطير الاغــن وشدا
ونشــرت شمس الغــداة ايدعــا ‏ ‏ فيــه وقــد بلاه قطــر النــدى

فهو تصوير جميل فى جملته ، وان كانت بعض جزئياته ، عرفت حتى فى الجاهلية ، مثل الايدى للرياح ، فلبيد يقول فى معلقته :

وغــداة ريــح قد وزعت وقــرة ‏ ‏ قــد اصبحت بيد الشمال زمامها

كما أن ابا تمام والبحترى ، كان لهما روح فى هاته الصور ، وان حلية الجناس الذى اكثر منها المكودى كما راينا ، قد اثقلت عرائسها بنحو « ظل روض راضه » ، كما ضايقتها الحقيقة بنحو « فانفتحت كمامه عن زهر طيب الشذى » فهى على جمالها يحجبها الفعل « انفتحت » .

بعد هذا يعرض ذكرياته بها ، فيقول بعد بيت :

منـــازل كـــانت بنـــا أواهــــلا ‏ ‏ نلنـــا بهـــا حينا أساليب المنـــى
كـــم بت فى افيائهـــا أجرى الى ‏ ‏ غـــاياتهـــا بطرف جـــد مـــا كبـــا
وكم سحبت اذ صحبت غيــدهـــا ‏ ‏ بروضهـــا ذيـــل الســـرور والهنا
وكـــم مـــددت مـــن سرادق على ‏ ‏ ضفة نهـــر أرج رحب الـــذرى
وكـــم سعدت اذ صعدت صهـــوة ‏ ‏ لنـــزه ذى نـــزه لمـــن رنـــا
وكـــم هصرت فيه مـــن غصن نقا ‏ ‏ من قـــد ظبى أهيف طاوى الحشا
وكم لثمـــت زهر ثغـــر أشنـــب ‏ ‏ من شادن عذب الثنايا واللمـــى
وكـــم رشفت مـــن رضاب سلسل ‏ ‏ يفعل بالالباب أفعـــال الطـــلا
أيـــام أزهـــار المنـــى مونقـــة ‏ ‏ والدهر ذو وجه منيـــر مجتلـــى
تـــزف لى مـــن الامانـــى آمنـــا ‏ ‏ عـــرائـــس ذوات حلـــى وحلـــى

فهذه ذكريات عرضها على هذا النسق الذى قلد فيه حازما ، ولا شك . وهو على جمال بيانه ووضاءة صوره ، قد يدور به الاطناب فى دور ينتهى فيه الى حيث ابتدأ ، ولو تخلل ذلك ما يخرج عن خط الصورة ، اذ نرى الابتـداء بالبيت :

« وكم سحبت اذ صحبت غيدها »

يعقبه بيتان فيهما وصف المناظر الجميلة والرياض . ثم تاتى الابيات الثلاثة التى تبتدىء بالبيت :

« وكم هصرت فيه من غصن نقا » اطنابا فى تصوير التمتع بمتـع الغريزة ، المنبثقة من ذلك البيت الاول ، ويتبعها بالزمان ، بعد ما كان قد أتبع ذلك البيت بالمكان من الرياض .

وشأن ما نعهد من شعرنا منذ العصور الاولـى ، فان المقصـورة استعانت بالقرآن فى جلو صورها ، مثل قوله :

أحسن به روضـا ذكيـا عرفـه	معطرا دانى القطـوف والجنـى

وهو بيت ورد بعد الابيات السالفة ، وواضح انه اقتبس من قوله تعالى : « قطوفها دانية » وكذا نجد فى باقى الابيات اقتباسات أخرى ، مثل « وزلزلوا » بجنود لا ترى و « ما رميت اذ رميت » وانما الله رمى و « ما كان حديثا يفترى » و « فكان منه قاب قوسين » و « فما كذب اذ ذاك الفؤاد ما راى » و « فأنزل الله على نبيه سكينة » و « لما تراءى العسكران » ففى هذه اقتباسات ، غير فيها بعض الشىء كالعادة .

والى جانب تلك الصور ، فانه حين تناوله للسيرة النبوية ، كان تناوله بأسلوب قصصى جاف ، مثل قوله :

غاظهـم فجمعـوا مـن حينهـم	عساكـرا ممـن تـولى وغـوى
وجمعـت هـوازن قبـائـلا	ممـن هوى عقلا بها حتى هوى
جـاءوا بأطفـال وأموال لهـم	مـن ذى بكـاء وبعـار ووغـا
فخـرج النبـى فى عسـاكـر	مـن كـل صنديد كريم المنتمـى

عساكــر تتبعهــا عســاكـــر	كــل لــه عزم اذا الخطب عرا
لمــا تــراءى العسكران اقبلــت	جيوش اهل الشرك تمشى الخيزلى
ففــر جيش المسلميــن هاربــا	فمــا ثنــى عنانــه منهم فتــى
فانــزل الالــه علــى نبيـــه	سكينــة شام بها بــرق الملــى
فقــام فى الحين لهــم منــاديــا	أنــا محمــد النبــى المصطفــى
فاجتمعت عليــه نحــو مــائــة	ممــن بــه فى المعضلات يهتدى
ثم دعــا العباس جهرا فانثنــى	اليــه انصار النبــى اذ دعــا
وايــدوا بعسكـــر عــرمـــرم	انزلــه الله مــن امــلاك السما
فانهزمت جيوش اهل الشرك اذ	حمى جيوش المسلميــن من حمــى
فجدلوا طعنا وضربا اذ جثــوا	بيــن عوامل الرمــاح والظبــى
نصــر الهــى قضى اللــه بــه	من قبل خلق الخلق فيما قد قضى

وهذا السرد الذى لا يختلف عن سرد المازوزى فى منظومته التاريخية السالفة ، قد يتعرض لضعف كما فى قوله :

وملك كســرى حيــن تم أيــده	اوهتــه أحــداث الزمان فوهــى
فملك كســرى قد تداعى صرحــه	وانقضت الارجــاء منــه وهــوى
منهــن نطــق الذيب فى تصديــه	والعيــر ايضا والذراع والرشــا
حتى اذا انتهــى الصباح نصلــه	وقــد جلبــاب الدياجى فانفــرى
والايــك اذ امــرتهــا فاقبلــت	ومــا بقــى عرق لها الا انفرى
فقــال لا تحزن فان اللــه قــد	حجبنــا عــن كــل ضر واذى

فهذا لا فائدة منه ، وفيه استعمال عبارات غير شعرية ، ثم عــدم احسان فى الاقتباس بالبيت الاخير ، فلو قال :

فقــال « لا تحزن ان الله » مع	عبديه فاعتصم به وقــد هدى »

لاحسن فى الاقتباس . وتناوله تقليدى كما فى قوله :

وقفــت طــرفى بازاء دوحـــه	أسرح طرفى فى مبانيــه العـــلا
واشتكــى دهــرا دهانى صرفه	لمــا قنــا بالبيــن فيما قد قنــى
منازل كــانت بنـــا أواهـــلا	نلنــا بهــا حينــا اساليب المنــى

كم بت فى أفيائها اجرى الى ... غاياتها بطرف جد ما كبا

والدهر فى صروفه ذو عجب ... يدنى بها كل جديد للبلى

يبكى اذا أضحك يوما اهله ... ويعقب الكرب اذا العيش صفا

كم ملك فى نجدة من ملكه ... يضيق عن جنودده رحب الفضا

قد ملك الارض وراض صعبها ... وشيد القصور فيها والبنى

احنى عليه دهره وعاقه ... عن كل ما شيده وما بنى

أين الالى سادوا وساسوا ملكهم ... كمثل ساسان وعاد وسبا

دارت على أدؤرهم دوائر ... وجرعوا كأس المنايا والردى

وأين بانى ارم وجيشه ... صاروا رميما تحت أطباق الثرى

وملك كسرى حين تم أيده ... أوهته أحداث الزمان فوهى

ولم تقصر عن ملوك قيصر ... حتى ابادتهم وطاحوا فى البرى

ولم تدع من ملك غسان فتى ... سامى المعالى فى ذراها فسما

وكم ملوك قهروا بملكهم ... أسد الشرى صاروا حديثا فى الدنا

وقوله فى النصح والارشاد :

وساير الناس على أخلاقهم ... وساعد المسعد واحمل من جفا

ولا تهابن ذوى الجهل وان ... راقك منه منتدى ومنتمى

وعلى العموم : فان أبيات النصح والموعظة والحكم ، مقتبسة فى روحها من مقصورتى ابن دريد وحازم ، أو مقلدة الى حد كبير ، ولكن بعضا منها انطلق من الشاعر ، لظروف ربما أملتها عليه وهو يحياها ، فساء ظنه بالناس ونسى أخوة المومنين وحسن الظن بالمسلمين ، فقال :

وظن بالاخوان شرا واخشهم ... وصير الاحباب منهم كالعدا

وان جهلت حالهم فاخبر فما ... يخبر قوما أحد الا قلا

كم من صديق مظهر لوده ... لكن له قلب على الحقد انطوى

يبش فى وجهك ان لاقيته ... وان تغب يغتبك فى كل ملا

وفيما عدا هذا فحكمه على كثير من القبول الخلقى والسبك الفنى ،

وعلى جمال وتنسيق من ضرب الامثال ، كما نجد في هذه الابيات :

ليس العـــلا والمجـــد الا لامـــرىء   رنــــا الى افـــق المعالى وارتقى
وصمم العـــزم على ترك الهوى   وجـــد في طلاب ما يجدى الثنـــا
وانتعل الشهب الدرارى رفعـــة   وامتهـــد البـــدر المنيـــر واعتـــلا

الى ان ينتهى من هذه الى مدح الرسول ، فيستعين بالسيرة كما فعل البوصيرى وغيره ، ولكنه يوخذ عليه ، أنه دعا للنبى عليه الصلاة والسلام بالرحمة والذى أمرنا به في حق النبى ، انما هو الصلاة والسلام كما قال الله تعالى : « أن الله وملائكته يصلون على النبىء يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » .

ومـــن تكـــرار الصور هذه :

وليلـــة سحبـــت في ظلمـــائهـــا   اذ سحبـــت فضول اذيال الدجى
وكـــان ذاك كلـــه فـــى ليلـــــة   لم يستلبهـــا الصبـــح أذيال الدجى
كتـــائـــب كأنهــــا كــــواكـــب   وهـــو بهـــا كأنـــه بـــدر الدجـــى
تصحبهـــا ركـــائب كأنهـــا   مراكب في لـــج يـــم قـــد طمـــا
وليس ذخـــرى غير مدح أحمـــد   سيـــد اهـــل الارض طرا والسما
فأصبـــح الديـــن القويـــم قيمـــا   سمـــا علـــى الاديـــان طرا وعلا
وفي نزول الغيث عـــام المحل ما   سر نفوس القوم طـــرا وجـــلا
وكـــم لـــه مـــن آيـــة بينـــــة   ومعجـــزات مثـــل اشراق الضحى
وانت يا خير الورى تقـــودهـــا   كأنمـــا انت بها شمس الضحـــى
يسقى كؤوس الحتف في يوم الوغى   كـــل عدو ضـــل فيهـــا وغـــوى
غاظهم فجمعـــوا مـــــن حينهـــم   عساكـــرا مما تـــولى وغــــوى
فتـــارة يعمـــل فيها الخأيـــزلى   وتارة يعمـــل فيهـــا الهيـــدبـــى
لمـــا تراءى العسكـــران أقبلـــت   جيوش اهـــل الشر تمشى الخيزلى

فهذا التكرار ان دل على شيء فانما يدل على فقر المحصول اللغوى للمكودى ، على عكس ما كانت عليه مقصورة ابن دريد اللغوى العظيم الذى اقتبس منه المكودى في نحو قوله : « طرة صبح بين أذيال الدجـــى » واقتبس من حازم نحو قوله :

« والفجر قد لاح محياه وقد قد أديم الليل عنه وانفرى »

وعلى الجملة ، فلو تتبعنا مثل هذه الهفوات فى مقصورة المكودى وغمطناه فيما له من صور جميلة ذكرنا بعضها ، لما جعلناه فلتة من فلتات عصره المظلم بأدبه ، ولادخلناه فى زمرة أولئك الشعراء الضعاف ، أو النظميين ، ان أردنا الحق فى وصفهم ، لكننا مع هذا الاغضاء فان المكودى لا يصعد الى عتبة من عتبات الشعراء ، بقدر ما هو فى ذلك من العلماء ، علماء النحو والتصريف خاصة ، فلو تحقق له انه كان يعطى حق التدريس لكتاب سيبويه ، الذى صار معجزة العصر ، لكان المكودى ، من رجال اللغة وقواعدها العديدة الراسية .

وفى أواخر هذه المقصورة وهى ثانية مقصوراتنا نجد صاحبها ينعى على ابن دريد وحازم خلو مقصورتيهما من مدح النبى ، على حين قصر هو مقصورته على ذلك فقال :

مقصورة لكنها مقصورة	على امتداح المصطفى خير الورى
ما شبتها بمدح خلق غيره	لرتبة أحظى بها ولا جدى
فاقت علاء كل ذى مقصورة	وان هم نالوا الايادى واللهى
فحازم قد عد غير حازم	وابن دريد لم يفده ما ذرى

ومن شعر المكودى قوله مفتخرا بقومه فى البيتين :

نحن بلى مكود	اهل التقى والجود
نكر فى الاعادى	ككرة الاسود

فهو يذكر قومه بالشجاعة والكرم والتقى ، ولكن هذا الفخر ، انبعث منه — كما قيل — وقد شاهد طفلا له غلب آخر صارعه ، فان كان هذا صحيحا فما مبعث الكرم والتقى فى هذا ؟

اللهم الا أن يكون توطئة لما ورد فى البيت الثانى ، وهو الذى يكون المنبعث حقا من هذه الحادثة .

ومهما يكن ، فهذا العالم الاديب المكودى ، وان لم يكن

من رجال الدولة وحاشيتها ، فهو من المتصلين ببعض وزرائها وكتابها الذين سلف ذكرهم ٠

بعد هؤلاء جاء آخرون أدركهم الغزو الصليبى بالبلاد المغربية بل للشمال الافريقى عامة فجنحوا ، مخلصين لله سرائرهم ، ومتوسلين زاهدين مجاهدين ٠ وقد كان من هؤلاء الاخيرين العالم الزاهد المتصوف ابراهيم التازى المتوفى عام 866 ، فمن قصائده الزهدية هذه (1) :

اما آن ارعواؤك عن شنار ... كفى بالشيب زجرا عن عوار
ابعد الاربعين تروم هزلا ... وهل بعد العشية من عرار
فخل حظوظ نفسك واله عنها ... وعن ذكر المنازل والديار
وعد عن الرباب وعن سعادا ... وزينب والمعارف والعقار
فما الدنيا وزخرفها بشىء ... وما ايامها الا عوار
وليس بعاقل من يصطفيها ... أتشرى الفوز ويحك بالتبار
فتب واخلع عذارك فى هوى من ... له دار النعيم ودار نار
جمال الله اكمل كل حسن ... فلله الكمال ولا ممار
وحب الاله اشرف كل انس ... فلا تنس التخلق بالوقار
وذكر الله مرهم كل جرح ... وانفع من زلال للاوار
ولا موجود الا الله حقا ... فدع عنك التعلق بالشنار (2)

والغالب أنه كان متوجها الى نفسه بهذه النصائح قبل أن يكون متوجها بها الى غيره ، ولهذا عددناها من الزهريات ، لا من الحكم ، وله ايضا قصيدة فى الزهد والنصح يقول فيها (3) :

ياصاح من رزق التقى وقلا الدنا ... نال الكرامة والسعادة والغنى
فاصرف هوى دنياك واصرم حبلها ... دار البلايا والرزايا والعنا
وودادها رأس الخطايا كلها ... ملعونة طوبى لمن عنها انثنى

(1) ذكرت بنيل الابتهاج فى ترجمته كلها ٠
(2) فى « ثبت » البلوى ورد « بالفشار » وهى عامية بمعنى التبجح ٠ ولعلها نفسها الموجودة فى عامية مصر حين الرد على المدعى بشىء غير حقيق « فشار » يعنون أن هذا الذى يقوله المخالف باطل وبهتان وتبجح ٠ أما « بالشنار » فلها وجه تعلق بالواردة أولا « عن شنار ».
(3) وردت كلها كذلك بنيل الابتهاج ٠

لا تغتـــرر بغـــرورهـــا فمتاعها ... عرض معـــد للـــزوال وللفنـــا
لعب ولهـــو زينـــة وتفـــاخـــر ... لا تخدعنك جنانهـــا مـــر الجنى
خـــداعـــة غـــــدارة نكـــــارة ... مـــا بلغت لخليلهـــا قط المنـــى
اليـــوم عنـــدك جاهها وحطامها ... وغـــدا تـــراه بكـــف غيرك مقتنى
فاقبل نصيحة مخلص واعمل بهـــا ... يدنيك من رضوان ربك ذى الغنى
يدخلك جنـــات النعيـــم بفضلـــه ... دار المقامـــة والمســـرة والهنـــا

وهذه لامية له كانت تقرأ اثر وظيفته كأنها أم قصائده فى الطريقة التى عرق بهـــا (1) :

مرادى مـــن المولى وغاية آمالـــى ... دوام الرضى والعفو عن سوء أعمال
وتنوير قلبى بانسلال سخيمـــــة ... به أخلدتنـــى عن ذوى الخلق العال
واسقاط تدبـــيرى وحولى وقوتـــى ... وصدقى فى الاحوال والفعل والقال
وفى حبه وحـــب صفوته الرضـــى ... ملائكـــــة وأنبيـــــاء وأرســـــال
وحب النبـــى الهاشمى محمـــــد ... وأصحابـــه الغر الافاضـــل والآل
وحب رجال خالفوا النفس والهوى ... وخافوا مقام الواحد الصمد العال
رجال كرام فى النفيس تنافســـوا ... شروا عارض اللذات بالغابر الغال
وليس لهـــم فى غير حـــب الههـــم ... غرام ولا فى كسب جـــاه ولا مـــال
رجال كرام قوتهـــم ذكر ربهـــــم ... قياما قعـــودا فى صدور واقبـــال
وشيمتهم تـــرك المطامـــع فى الورى ... فليس لمخلوق عليهم من افضـــال
على الصبر والايثار راضوا نفوسهم ... فكلهـــم نـــــدب وحامل أثقـــال
صدورهم مـــن كل ضغن سليمـــة ... كرام السجايا أهل سمح واجمال
هم القوم لا يشقى جليسهم بهـــم ... يحق لمـــن والاهـــم جر أذيـــال
ومذهبهم قتـــل النفـــوس ومحوها ... فمن مات قبل الوقت ليس بمختـــال
وكل جبان قـــل ان يبلغ المنـــى ... وما عامـــل فى فوزه مثل بطـــال
وكل بخيل فهو عنهـــم بمعـــــزل ... فما يعبأ الـــرب الكريم ببخـــال
وغنـــم مريـــد فى انقيـــاد لكامـــل ... له خبرة بالوقت والعلـــم والحال
هو السر والاكسير والكيميا لمـــن ... أراد وصولا أو بغى نيل آمـــال
وقـــد عدم الناس الشيوخ بقطرنا ... وآخرهم شيخـــى وموضع اجلال

(1) وردت منها أبيات فى المصدر السالف .

وقد قال لى لم يبق شيخ بغربنـــا ... وذا منذ أعوام خلـــون وأحـــوال
يشير الى أهل الكمـــال كمثلـــه ... عليــه من الله الرضى ما تلا تال
ونص على مدح التشبه سهمـــــم ... أبومدين الغوث (1) المعاصر والتال
وقد قال حـــب الأولياء ولايــــة ... ولى الالـــه الشاذلى ابـــن بطـــال
سليل شفيع الخلق يوم انبعاثهـــم ... ومنقذهم مـــن موبقات وأهـــوال
عليك صلاة الله يا أكرم الـــورى ... بطـــول الليالى والغـــدو والاصال

وله يتشوق الى المعاهد المقدسة ويناجى من بها ، بعـــد مغـــادرة تلك الديـــار (2) :

ما حال من فارق ذاك الجمـــال ... وذاق طعم الهجر بعد الوصـــال
والعقـــل منه ذاهب والحشـــى ... ملتهب والجســـم يحكى الخيـــال
أبيت أرعى النجـــم فى أفقهـــا ... وليـــل أهل الحب رحب طـــوال
والدمع كالمـــدرار مـــن مقلتـــى ... يجـــرى على الوجنة يا للرجـــال
وليـــس لى عيـــش ولا راحـــة ... والحـــال يغنى ذا الحجا عن سؤال
يـــا قبـــح اللـــه النـــوى انـــه ... قتـــل بـــلا سيف وداء عضـــال
ويـــا رعـــى اللـــه زمـــانا مضى ... بالانس فى وارف تلـــك الظـــلال
ظـــلال تيمـــاء التـــى تيمـــت ... قلبـــى وخلت مهجتـــى فى نكـــال
آها لها مـــن اـــى بانـــس بهـــا ... خوف الوجى ما بين تلك الجبـــال
الزمهـــا ابـــث أمـــرى لهـــا ... انعم الطرف بـــذاك الجمـــال
للـــه مـــا أحســـن خـــالا لهـــا ... تقبيلـــه المحظـــور عيـــن الحـــلال
ومـــا الـــذ العيش فى قـــربهـــا ... فى ريـــه بـــذل العطـــا والنـــوال
يا سادتـــى يا صفوتـــى يا ذوى ... بـــرى وشكـــرى يا كرام الفعـــال
كـــان ســـرورى بكـــم وأفـــرا ... وبـــدر ســـعـــدى مشـــرقا فى كمال
فانخسف البـــدر وراح الهنـــا ... مـــا كـــان ذا يخطـــر منى ببـــال
يا جيـــرة الحـــى وأهل الحمـــى ... انتـــم منـــى قلبى على كل حال

(1) شعيب السالف ذكره انتقل الى المغرب وأخذ فيه عن على ابن ابراهيم وابن غالـــب بفاس ومن أبى يعزى بمراكش ثم حج واتصل بالعلماء وأخذ عن الجيلانى التصوف فاستوطن بجايـــة وتوفى فى طريقه الى يعقوب المنصور فحمل الى تلمسان ودفن بها 594 ·
(2) وردت كلها بازهار الرياض ، مخمسة لبعض الاكابر ، كما يقول المقرى ·

وليس بـــى صبــر ولا ســـــوة   عنكــم ولـــو شط المدى واستطال
فارعوا ذمامى واجهدوا فى الدعـــا   للمدنف المضنـــى عسى ذو الجلال
ان يجمـــع الشمل بكـم عاجـــلا   فى ذلك المغنـــى العـــديم المثـــال

وله فى المديح النبوى والسيرة النبوية ومعجزاتها :

روحـــى وراحـــة روحى ثم ريحانى   وجنتـــى من شرور الانس والجان
ومأمنـــى وامانى مـــن سعير لظى   ذكـــر المهيمن فى ســـر واعلان
ومـــدح احمد احمى العالمين حمى   وذو المقام الـــذى مقامه ثانـــى
يس طه المقفى (1) والشفاعة والـــ   حوض الذى جل عن احصاء كيسان
سر الوجود وأسمى المرسلين سنى   والفاتح (1) الخاتم (1) الآتى بقرآن
ومعجـــزات وآيـــــات مـــــؤزرة   يزرى سناها بياقـــوت وعقيـــان
كالنمـــل فى عـــدد كالنبل فى عـــدد   كالشهب والشمس فى هدى وتبيان
فالبدر شق له المولى وظللــــــه   بالمزن والبكر قال الحمل أعيانـــى
والضب جاوبه والظبـــى خاطبـــه   والجذع حن حنين العاشق العانى
والشمس ردت واشجار الفلاة أتت   تسعى وترفل فى أثواب اذعــــــان
كذا الحصى سبحـــت فى كفه علنـــا   لم يختلف فيه من أصحابه اثنان
كما أصابعه من بينها نبـــع الـــــ   ـــعذب الفرات فروت كل ظمـــآن
ويوم مولده الاسنى بـــدت عبـــر   للانس والجـــن لا يحصى بديـــوان
للملة السمحـــة العليا مبشـــــرة   بعزهـــا وباعـــــــلاء واعـــــلان
وللطغـــاة وللطاغـــوت منـــــذرة   بقربهم من مســـاءات واحــــزان
فى ذلك اليوم نار الفرس قد خمدت   وكان ما كان من تصديع ايـــوان
وفيه أصبحـــت الاصنـــام ساقطه   كأنهـــا سجـــد خـــرت لاذقـــــان
والجن أفزعها فيـــه وأفظعهـــــا   رجم السماء لها بالثاقب القانـــى
والآى اكثر مـــن أن يستطاع لهـــا   حصر بعـــد واحصـــاء بحسبـــان
هو السراج هو النور المبين وذو السـ   ـــبع المثانى وبشرى نجل عمران (2)

---

(1) من أسمائه صلى الله عليه وسلـــم . والاول والثانـــى والخامس صريـــح القرآن ، بالخطاب بعد الاولين ، وبقوله فى الخامس « وخاتم النبيئن » .

(2) فى النيـــل

هو السراج هـــو المنجـــى لمعتصـــم   هو المعاذ وملجـــا الخائف الجانـــى

وبهذا تداخل البيتان العشرون والحادى والعشرون ، وفيه ذكرت ألابيات ألاولـــى والخامس والعشرون .

هو الملاذ هو المنجى لمعتصم ... هو المعاذ وملجا الخائف الجاني
الله فضله والله كمله ... فهو المكمل فى عقل وجسمان
والله كرمه والله تممه ... فهو المتمم فى حسن واحسان
واختاره من ذوى المجد المؤثل من ... أسماهم نسبا من خير عدنان
يا رحمة الله انى خائف وجل ... يا نعمة الله انى مفلس عانى (1)
وليس لى عمل ألقى العليم به ... سوى محبته العظمى وايمانى
فكن أمانى من شر الحياة ومن ... شر الممات ومن احراق جثمانى
وكن غناى الذى ما بعده فلس ... وكن فكاكى من أغلال عصيانى
تحية الصمد الاعلى ورحمته ... ما غنت الورق فى أوراق أغصان
عليك ياعروتى الوثقى وياسيدى الـ ... ـأوفى ومن مدحه روحى وريحانى

ومن غزلياته الالهية الصوفية (2) قوله :

أبت مهجتى الا الولوع بمن تهوى ... فدع عنك لومى والنفوس وما تقوى
هوان الهوى عز وعذب أجاجه ... وعلقمه أحلى من المن والسلوى
وتعذيبه للصب عين نعيمه ... وسعى اللواحى فى السلو من العدوى
ومن لم يجد فى بالنفس فى حب حبه ... فاوعته افك وصبوته دعوى
وليس بحر من يعبده الهوى ... للهو الدنا فاختر لنفسك ما تهوى
فما الحب الا حب ذى الطول والغنى ... واملاكه والأنبيا وأولى التقوى
وخيرة رسل الله أفضل خلقه ... محمد الهادى الى جنة المأوى
رسول وصول مجمل متفضل ... فلا مثله فى الوصل والفضل والجدوى
بشير نذير رحمة نعمة هدى ... سراج منير غاية فى التقى قصوى
رؤوف عطوف ليس بالفظ لين ... وفى الحرب ليث لايطاق ولا يغوى
جميل المحيا أزهر اللون ربعة ... وسيم قسيم ملجأ لأولى اللأوى
وفى زكى كامل الخلق والحجا ... وليس له فى العلم والحكم من شروى
على السيد المولى الشفيع وآله ... وأصحابه أهل المبرة والتقوى
سلام بتبليغ المنى متكفل ... وبالدفع فى الدارين للسوء والبلوى

---

(1) مما الفنا بالبيت سماعه فى الطفولة :
يا رحمة الله انى خائف وجل ... مستمسك برسول الله يشفع لى
فما ذكرتك الا فرجت كربى ... وما اشتفيتك الا شفيت عللى

(2) ذكرت جل أبياتها بنيل الابتهاج .

وهذه فى الوصايا والحكم تضمنت كل ما يجب أن يتصف به المريد خاصة والمسلم (1) عامة :

اذا شئت عيشا هنيا واتباع هدى ... فاسمع هديت وكن بالله معتضدا

شرور نفسك باعدها تصب رشدا ... فمن يطع ربه والمصطفى رشدا

دنياك دار غرور حبها سفه ... رأس الخطايا فمن يغرم بها بعدا

والغيظ مسعر شر ما استطعت فلا ... تغضب بذاك حليم الرسل قد عهدا

سلامة الصدر من خير الخلال فمن ... أتى بقلب سليم ربه سعدا

والحقد طبع ذميم عد عنه وعذ ... بالله رب العلى من شر من حقدا

وجنب الحسد المذموم صاحبه ... ما رىء قط حسود ساد أو مجدا

نعوذ بالله من عيش الحسود فما ... يمسى ويصبح الا ساخطا كمدا

عادى مواهب ذىالفضل العظيم فعا ... داه السرور فمهموما يرى أبدا

وغادر الغدر فالغدار مفتضح ... يوم التنادى وحاذر من به عهدا

والمكر لا تأته عقباه خاسرة ... لؤم وشؤم على أصحابه البعدا

رذيلة لليهود البهت تعرف لا ... للمسلمين الكرام الانفس السعدا

والكبر أكبر خرق والتواضع من ... شمائل العقلاء السادة الصعدا

فمن تواضع رقاه الاله ومن ... تكبر اتضع اسمع واتبع الرشدا

أخَىَّ كن لكتاب الله متبعا ... والسنة المصطفى والقادة الرشدا

وبالجماعة طول العمر متصلا ... وافصل أخا الزيغ والزم وصل منرشدا

وللامام أطع واسمع رشدت ولا ... تخنه وانصح له ان غاب أو شهدا

وانصح لكل حنيف ما حييت كذا ... أوصى الذى للصراط المستقيم هدى

والعدل أوصى به العدل العلى فكن ... عدلا يحبك من لم يتخذ ولدا

والجور خسر دمار حسرة ندم ... والله بالنصر للمظلوم قد وعدا

والبغى عاجلة فاعلم عقوبته ... فاحذره لاسبدا يبقى ولا لبدا

والصبر شيمة أعلى الرسل منزلة ... فكن صبورا وعود نفسك الجلدا

ولا تكن جزعا فالخير أجمعه ... مفتاحه الصبر والمولى به عهدا

والشكر موهبة عظمى ومنقبة ... على محجته الشيطان قد قعدا (2)

فكن شكورا على الاحوال اجمعها ... تفز وتغنم وترغم أنف من مردا

---

(1) كذلك وردت أبيات منها فى المصدر المذكور .

(2) بعد هذا أتى بيت غامض المعنى مكسر وزن مصراعه الاول فتركناه .

والبخل أدوا داء والسخاء رضى … والقصد عدل فما عال الذى اقتصدا
لا تنكر الذل ان اصبحت ذا طمع … والرزق ليس بحرص فاترك الكبد
واقنع بقسمة رب الناس وارض بها … وكن شكورا لما أسدى يزدك يدا
عليك بالصدق فالكذاب متهم … والمين عار وفقت فاتق الفندا
والصدق يهدى الى دار السلام كذا … قال الصدوق الذى بالسؤدد انفردا
وذو النميمة بالتعذيب عوقب فى … ضريحه فى حديث المصطفى وردا
والغيبة الله فى القرآن قبحها … بعدا لمن عن سبيل الله قد بعدا
والصمت حكم نجاة والكلام ردى … فاخش اللسان وكن فى الصمت مجتهدا
الا بذكر وعلم نافع وبما … يعنيك فانطق وسل من ربك السددا
والذكر أفضل أعمال العباد ومثـ … ـمور الولاية سيف الصفوة الزهدا
يدافع الله آفات تيممهم … به وينقم ممن ضرهم قصدا
فاذكر الهك فى سر وفى علن … فى جمع أو خاليا واستحضر الخلدا
وبالصلاة على المختار كن لهجا … تعش سعيدا وترض الواحد الصمدا
ولا تراء فرب الخلق منفرد … بالخلق والأمر فاعبد ربك الاحد
وليس للعبد دون الله ملتحد … وليس يملك ضرا لا ولا رشدا
والجهل ويك ظلام ذلة وعمى … والعلم نور منير عزة وهدى
من لم يكن عالما او ذا تعلم أو … أخا استماع فعن نهج الهدى لحدا
والفخر بالعلم فى الاسلام يعرف لا … بجاه أو بثراء أو أب فقدا
« وقدر كل امرىء ما كان يحسنه » … قال الامام علي والعناد ردى
وأكرم الناس أتقاهم نبيهم … صديقهم صالحوهم زمرة الشهداء
وخيرة الخلق من من أجله خلقوا … محمد خير محمود ومن حمدا
من خصه بلواء الحمد حامده … وبالمقام القيامى الذى حمدا
ويوم حشر الورى للفصل يرشده … الى محامد لم يرشد لها أحدا
وكثرة الحمد من أوصاف أمته … فى اليسر والعسر فى الكتب العلى وجدا
صلى الحميد على المحمود أحمد ما … بالحمد أفصح حماد وما سجدا (1)
لله عبد شكور حامد وعلى … قرباه والصحب أعلى الأمة الحمدا
والتابعين وحزب الله أجمعهم … والحمد لله حمدا دائما أبدا

---

(1) فى الثبت « صلى الاله » وما فى النيل أوفق بترديد هذه الكلمات ، وهو ما اعتاد المتصوفة التطريب به .

وله فى الحب الالهى وأدب الوظيفة التى سنها لمريديه هذه التائية (1) مقلدا بها تائيتى ابن الفارض أو تائية الجيلانى فى هذه القافية والزنة :

حسامى ومنهاجى أقويم وشرعتى ... ومنجاى فى الدارين من كل فتنة
محبـة رب العـالميـن وذكـره ... على كل أحيانى بقلبى ومهجتـى
وأفضل أعمال الفتى ذكر ربـه ... فكن ذاكرا يذكرك بارى البريـة
وما من حسـام للمريدين غيـره ... فكم حسموا من ظهر زار وباهـت
وكم بددوا شملا لذى جراة وكـم ... أبـادوا عـدوا مسهـم بمضـرة
وكـم عزلـوا ذا امرة وولايـة ... فاضحى مهانـا بعد الامـارة (2)
وكم دافـع الله الكريـم بذكرهـم ... عن الخلق من مكروهـة ومبيـرة
وأفضل ذكر دعـوة الحق فلتكـن ... بها لهجـا فى كل وقت وحالة (3)
فكثـرة ذكـر الشىء آية حبـه ... وحسب الفتى تشريفـه بالمحبـة
وداوم على ذكـر الوظيفة انهـا ... لذاكرهـا أمن وأمنـع جنـة
وفيها من السر المصون خزائـن ... مفاتيحها التقوى وصـدق الارادة
وليـس لها وقـت يرجع فضلـه ... على غيره بل كلـه وقت رحمـة
ولاحـد فى مراتهـا ان تكـررت ... وواحـدة حسـب المريد بـذروة
فان تنفرد فى ذكرهـا فهو فاضـل ... وافضـل منها ذكرهـا بالجماعـة
وذكر مرادى (4) بعد عشر باثرها ... مرادى ولكن ليس شرطا لصحـة
وهاك زماما (5) للوظيفة كافـلا ... بترتيبهـا نظمتـه فى قصيـدة
تعوذ وبسمل واقرأ الحمد مـرة ... وأمن جهارا ان ذكـرت وظيفتـى
وسورة اخلاص ثلاثا وبعدها الـ ... ـمعوذتـين مـرة فتثبـت
وبسمـل لكـل مطلقـا بمحلهـا ... وعند اختتام الناس فافصل بسكتة
وسل ربك الغفران تب صل سلمن ... على المصطفى الماحـى ثلاثا بقوة
وربـك فاستغفره عشرا وبعدهـا ... ثلاثا لـدى التقييـد منك بعـدة
ومثلهما سبحـه واحمـده هللـن ... وكبر وحوقل ثم صل سوى التـى

---

(1) التى ذكرت أبيات منها فى نيل الابتهاج .
(2) سقط هذا البيت من الابيات التى ذكرت قبله وبعده فى المصدر المذكور .
(3) هكذا بالنيل ، وفى الثبت « وأكبر ذكر الله دعوة الحق فلتكن » وما فى النيل هو الصواب .
(4) مرادى يعنى القصيدة التى أولها مرادى وتقدمت ثانية المذكورات .
(5) الزمام المقصود به المعروف فى العامية بمعنى الدفتر المقيد فيه .

تسمى دعاء الكرب(1) فاستوف ذكرها — ثلاثا وقابل بالقبول نصيحتى
وصل على الاملاك والانبياء والـ — ـمطيع ثلاثا وادعون للصحابة
كذاك وهلل بعد عشر ثمانيا — وذلك حد للأقل المؤقت
وهلل وأقرر بالرسالة مرة — لافضل مرسول الى خير أمة
وجىء بدعاء اثر ذلك مرة — ويا واحد عشرا وجىء بالشهادة
ثلاثا وقد تم الذى رمت نظمه — بحمد الهى ضابط للوظيفة
وصل ـ اله الناس ـ بدءا وعوة — على المصطفى والآل ثم الصحابة

وهكذا وجدنا التازى له طريقته وأتباع وله طقوس وأوراد « وظيفة » عرفت لدى المتصوفة وظلت كذلك حتى اشتهرت بصفة خاصة اشتهارا عظيما عند التجانية التى انبثقت من طرق عديدة فيها المشرقى والمغربى ولا شك فى أثر التازى بها وهذا لا يعنينا الآن بقدر ما تعنينا تلك الظاهرة التى بدت قوية فى المغرب بفضل التازى الذى يقال انه كان على « الملامتية » والذى بقى يذكر عند الناس بأذكاره وتصلياته التى حفظتها عما كنت أسمع من بعض النساء الفضليات ، وعرفت أن ذلك لابراهيم هذا وقد أوشك أن تمر عليه خمسة قرون ·

وكان يعاصره صوفى آخر ولد بمكناس وتوفى بفاس ، وهو أبو العباس أحمد الحباك المتوفى بعده بسنتين ، وهذا وان ادرك العهد الوطاسى ، الا أن ادراكه هذا لا يعدو أن يكون خلال سنتين أو ثلاث ، ولهذا نجعله آخر هذه الحلبة المتصوفة فى العهد المرينى ·

ومن شعره ، هذه الابيات الرقيقة التى عليها شفافية المتصوفة :

خضرة آس وجمع ناس — وصفو راح فمن عذيرى
راح لها فى القلوب قدما — محض سرور وفيض نور

---

(1) يريد تصليته :
اللهم صل صلاة كاملة وسلم سلاما تاما على نبينا الذى تنحل به العقد وتتفرج به الكرب وتقضى به الحوائج وتنال به الرغائب ويستسقى الغمام بوجهه الكريم وعلى آله وصحبه فى كل وقت وحين · (حفظتها فى الطفولة مما كنت أسمعه من فاضلة)
والقصائد التى تقدمت منها ما نقل من الازهار للمقرى ومنها ما ذكر بتمامه بالنيل للسودانى أو اقتصر على أبيات منه والباقى مذكور بكتاب الثبت للبلوى تحقيق الدكتور عبد الله العمرانى ·

من يد ساق وأى ساق قدس فى الحسن عن نظير
فأسكر القوم دون كاس وكان سكرى من المدير

فالابيات الثلاثة الاولى توطئة بيت تحبير القشيرى :

« فاسكر القوم دون كاس وكان سكرى من المدير »

وذكر هذا ابن غازى فى فهرسته . ولا شك انه يعنى فى هذه الخمر الالهية ، ويرمز بالساقى الى الله تعالى وتبارك .

وهناك أبيات فى مدح الملك المرينى ، كما يظهر وهى مذكورة كذلك فى فهرست ابن غازى ثم الاتحاف لابن زيدان أيضا :

بلغت آمالا ونلت مقاصدا وغدوت ترجى فى الانام وترهب
بهرت محاسنك الانام فأصبحت أخبار جودك عن سعودك تعرب
برعت علاك وحزت كل فضيلة وطفقت من فلك المعالى تقرب
برقت عيون الحاسدين ونالهم من روع عزك ذلة وتغلب

والتصنع باد فى هذه الابيات ، التى بداها كلها بالباء ، وختمهاكذلك بها . زيادة عن كون البداية كلها بفعل ماض لحقته تاء التأنيث .

لقد كان الحباك الى جانب ادبه وشعره يقوم بمهمة التدريس الذى كان من ألمع رجاله بمكناس كما كان من ألمع تلاميذه عالم مكناس لعهده ابن غازى الذى سياتى ذكره فى العهد الوطسى .

ومن منظومات الحباك ما أجاز به تلميذه ابن غازى أو اعترف باجازته له بعد الاطلاع على أبياته فى هذا الصدد ، وسترد عند التعرض له .

وهذه أبيات الحباك التى كتبها تحت أبيات ابن غازى :

صدقت واعملت الذى قد ذكرته فقر به عينا ولا تخش منكرا
فأنت جدير بالاجازة صاعد منار علوم يرتقى بك مظهرا
وقائل هذا مستعيذا بربه من الزهو والاعجاب والفخر
بأحمد يدرى ان جرى وصف شخصه ووالده يدعى سعيدا لدى الورى
ونسأل مولانا الذى جل امره والهمنا جمعا لما قد تقررا

سلامتنا يوم الحساب وهوله ... بجاه نبي للحظيرة قد سرى
ونال مقاما قاب قوسين اذ دنا ... وحمل آمرا عالى القدر اخطرا
عليه صلاة الله ما لاح نوره ... وما تلى الذكر الحكيم وحبرا
وفى أحد من بعد ستين قد مضت ... لتاسع قرن كان ذا القول سطرا

فهذه منظومة جافة فى موضوعها ، وشتان ما بينها وبين منظومة مالك بن المرحل فى عقد قران زواج كما تقدم ذلك .

وقبل أن نودع العهد المرينى لابد أن نشير الى انه كان قد انتهى الى مرحلة يرثى له فيها وخصوصا فى ادبه المتصل بملوكها . لقد أصبحت الدولة أيام الملوك الثلاثة الاخيرين العوبة بين الزعانف ، الذين بهم انتهوا الى أن اصبحوا تحت تحكم اليهود ، فكان هارون وشاويل يستبدان بهذه الدولة فى آخر أيامها ، فلفظت بهما النفس ، كما لفظه آخر ملوكها عبد الحق بن أبى سعيد بن أبى العباس المذكور فيما سلف .

وبذلك تكون هذه الدولة قد ارتفع لواؤها بعبد الحق وسقط لواؤها بعبد الحق ، فتوزعت بين ناجمين من الاشراف الحسنيين ومن أبناء أعمامها الوطاسيين وهو ما سنرى ، وكان سقوطها عام 869 .

وبعد فقد شاهد هذا العهد المرينى حلبة من الشعراء ، الذين تناولوا بشعرهم شتى الموضوعات وجالوا به فى مختلف المجالات كالتاريخ وكانت لذلك العهد سبتة حائزة قصب السبق فى هذا ، بفضل ما نسلت اليها من هجرات اندلسية عديدة ، وبفضل ما قام بها من عائلات نابهة عملت على تاريث هذه الشعلة المباركة ، فكان فيها من عشرات الشعراء الاندلسيين والسبتيين ، كما أمها آخرون من جهات أخرى ، وعلى رأسهم الاديب البارع والشاعر الفحل ابن خميس التلمسانى . وقصيدته الخائية من نوادر القصائد العربية فى الادب العربى عامة . ولكن الادب بالمغرب لاحظنا عليه ، تمسكه بالصنعة كما تقدم تمسكا شديدا . وكان قد اخذ بها الشمال الافريقى عامة والاندلس خاصة ، ولم يكن الشرق بمنأى عن هذا المظهر الذى ساد ادبه فى جميع اقطاره ، بل ان هذه الصنعة ، عرفها

المشرق قبل غيره ومن عهد سحيق . ويكفى أن نلقى نظرة على أسلوب بديع الزمان الهمذانى ، وأبى بكر الخوارزمى ، والحريرى ، والقاضى البيسانى ، لنرى ذلك اللون المتراكم الذى طغى على الاساليب العربية ، وصبغ ابشارها . وكذلك يقال فى السابقين من شعراء المشرق ، ابتداء من أبى تمام الى المعرى فبهاء الدين ابن زهير فمن أتى بعده . ولو أن هؤلاء ، لم يسيروا على نهج ولم يتبعوا مدرسة خاصة ، فى جميع شعرائهم ، بل وجدنا خلال هذه المرحلة ، من تخاص بعض الشىء من ذلك الصنيع ، مثل أبى فراس الحمدانى ، وأبى الطيب المتنبى وغيرهما ..

ولكن الاندلس والمغرب كلاهما سلك طريقا صعدا الى هذا القصد . فهذه رسائل كتاب المرينيين ، وهذه قصائد شعرائهم جميعها قد سلك فيها من الصنعة ما لا محيد عنه ، بالمرة ، ولنضرب مثلا ، بكاتب بلاطهم، وشاعر مناسباتهم ابن مرزوق ..

فابن مرزوق هذا وان كان تلقى تعليمه بالشرق ، وهو تلمسانى المولد ، الا انه لم يظهر نبوغه الا فى كنف المرينيين ، وكان الموجه للحركة الادبية ، كما كان المدير لدفة السياسة المرينية فى عهده ..

فقد كان انشاؤه السلطانى مثقلا بحليته خصوصا منها اللفظية . وهو لا يختلف عن انشاء ابن الخطيب فى الاندلس وكتاب المماليك فى مصر فاتبعه خلفه من الكتاب اتباعا تلقائيا لان العصر نفسه كان عصر زينة فى كل شىء ، حتى فى المبانى والقصور والمدارس والدور . كما كان ذلك بالضبط فى الاندلس والعاصمة غرناطة بالخصوص وكانت الكتابة لها تدخلها فى كل زينة ، كما وجدناها بغرناطة كذلك ، وتقدم ما كتبه الشاعر المكناسى على جدران داره مما أعجب به ابن الخطيب .

وعلى الجملة فالانشاء فى كتابة الدولة كان انشاء متجاوبا مع الاندلس كما كان متجانسا مع الشرق الذى نعنى به مصر والشام . وكتاب صبح الاعشى يزودنا بكثير من هذه النماذج التى تحقق ما قلناه فى الشكل والكيفية وحتى فى الكم غالبا من حيث طول الرسائل وتقليب الكلام على اوجهه بها طلبا للاطالة قبل أن يكون جريا وراء الافادة .

على أن المغرب فى هؤلاء الكتاب كان على اقتصاد ما فى هذه الصنعة وهذا ما افصح عنه ابن زمرك كما تقدم ذكره .

ولم يكن نثر غير هؤلاء ، يختلف عنهم الا فى الطول ، مما وجدنا منه أمثلة فى رسائل المغاربة الذين خاطبوا ابن الخطيب مثلا من مختلف جهات المغرب وفيهم ابن مرزوق نفسه ، كما تقدم .

أما الشعر لهذا العهد فقد قوى فيه الوصف للمشاهدات الحضرية خاصة . وكان أبو عنان يشجع عليه كثيرا ، كما تقدم . وجدنا له مثلا ساهم فيه ابن خلدون التونسى وابن زمرك الاندلسى الى جانب شعراء المغرب، وبهذا يختلف الوصف عن وصف الموحدين الذين كانت أوصاف شعرائهم للفتوح والحروب تستنفذ طاقة الشعراء المغاربة وفيهم ابن حبوس الذى وجدنا وصفه للمصحف العثمانى ، والاحتفاء به ، لا يأتى ببدع . على عكس أوصافه الاخرى التى تضمنتها مدائح الخلافة وفيها حتى وصف الرياض .

حقيقة اننا وجدنا براعة فى وصف المقصورة المتحركة التى اتخذت للمنصور لكن الواصف كان أندلسيا ولم يكن مغربيا ووجدنا لابى الربيـــع شيئا من الاوصاف الحضرية ولكنها لم تكن شيئا يذكر ببراعته .

أما المرينيون فقد سبق من نماذجه كما أن الشعر المرينى فيما كان فى طوله أيضا ما يجعله على مظهر يختلف عما عهدناه فى العصر الموحدى وهى نسمة تنفست بها المراحل الاخيرة فى العهد المرينى . ويقاسمه حتى الاشخاص الذى مثلوا الدورين وفيهم ابن المرحل الذى جعلناه فى الحيز الموحدى على حين جعلنا بعض زملائه فى عداد العهد المرينى ، بحسب ما بقى لنا من الاثار فى قوتها أو كثرتها .

الباب الخامس

العهد الوطاسي

في خضم تلك الاحداث الاليمة التى انتهت اليها الدولة المرينية ، وفى تلك المعمعة التى كان يخوضها الشعب دفاعا عن سيادته التى تعرضت للغزاة المحتلين ، وتحت وطأة الوباء الجاثم على البلاد منذ أمد طويل ، وفى ذلك الانصراف عن كل ترف فى الحياة ومباهجها ، قامت هذه الدولة ، وقد انقضى أمد الاولى ، وبايع أهل عاصمتها رجلا من الادارسة ، لا سابقة له ولا مكنة ولا عصبية ، لملء الفراغ الذى كانت عليه البلاد فى رجالها الافذاذ الانجاد . لدرجة أن كانت النساء تقمن على حماية الملك وحاضرته، فى أثناء هذا كله ، وكانت هواتف الادب تنطق بحشرجتها ، أو تتضرع الى الله فى خلواتها .

فكان من هذا الادب ما صدر عن مرابطين مجاهدين ، وعن علماء واعظين ، وعن صوفية متبتلين ، والجميع فى حومة الوغى صامداً أو مترددا عليها ، يحارب آونة مجاهدا ، ثم يعود ليعلم ويعظ آونة أخرى .

من أولئك الاول كان محمد بن يحيى البهلول ، صاحب اللامية المشهورة — كما يقول السلاوى — يحض على الجهاد ، وفيها يخاطب السلطان الوطاسى محمد الشيخ بقوله :

قل للامير محمد	يا طلعة الهلال
لويلة فى السواحل	من افضل الليال

وله أشعار كانت مشهورة لعهده ، كما كانت له زجليات فى هذا الميدان ، فمن تلك الاشعار ، قوله :

قم للجهاد رعاك الله منتهجا	نهج الرشاد الى الاقوام لو فهموا
من بعد أندلس ما زلت محتدما	لو كان يمكنني فى الليل أحتزم

لقد كانت الاندلس آنذاك قد لفظت نفسها الاخير ، فجاء آخر ملوكها أبو عبد الله الصغير مع قومه ورجاله ، مقدما في لجوئه برسالة وقصيدة ، مذكورتين في نفح الطيب وغيره . واستقروا بفاس ، واشتبكوا في الجهاد ، وفي الحرب التي سقط فيها هذا الملك كما يقال ، دفاعا عن الذماء الاخير لهذه الدولة فيما بعد .

أما زجليات البهلول — وإن كانت لا تعنينا — فمنها قوله :

ظهر الرمل مرادي والعسكر يا كرام
نفسي على الجهاد سبلت والسلام

نعم ، أنها لا تعنينا من ناحية الادب الذي ندرسه ، فصيحا سويا ، ولكنها تعنينا ، من ناحية التصوير لتلك المعركة التي كانت رحاها تدور دوما ، وكان القوم يحرضون على خوضها بكل لون من الوان القول ، موزونة في هذه الازجال وتلك القصائد ومنثوره في خطب الجوامع ، وفي ساحات المعامع ، كما كانت التبتلات يجأر بها الى الله على شرفات الصوامع .

لقد كان أبو عبد الله نفسه ووزيره وكاتبه محمد بن عبد الله العربي العقيلي من كبار الادباء . فالتجأ أخيرا الى المغرب . واتجه الى تلمسان منهم أبو عبد الله بن الازرق ، وبنو داود وأبو عبد الله ابن الحداد الوادي آشي ، واستقر بفاس أبو العباس البقني ، ثم رجع الى غرناطة .

كان أبو عبد الله قبل مقدمه الى محمد الشيخ الوطاسي بعث برسالة مؤثرة ، من انشاء وزيره العقيلي ، وهي طويلة جدا ، افتتحها بقصيدة كذلك ، مستعطفا بها ، وقائلا في مستهلها :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم رعيا لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار انت لمن جار الزمان عليه جور منتقم
حتى غدا ملكه بالرغم مستلبا وافظع الخطب ما ياتي على الرغم
حكم من الله حتم لا مرد له وهل مرد لحكم منه منحتم

الى آخر القصيدة التى عدد ابياتها ثمانية وعشرون ومائة بيت وقد عنون هذه الرسالة بعنوان « الروض العاطر الانفاس فى التوسل الى المولى الامام سلطان فاس » ، فلما وصل الى فاس استقر بها ذلك الملك التعس فى قصوره التى بناها ، الى أن توفى عام أربعة وعشرين وتسع مائة وخلف ولدين ، يوسف ومحمدا ، وظل عقبه حتى عصر المقرى نزيلها ٠

ومن اولئك العلماء الذين كانوا يحضون على الجهاد ، فى خطبهم ودروسهم ، ويشاركون فى الجهاد بنفسهم ، محمد بن احمد ابن غازى المكناسى ، المتوفى عام 919 وهو من العلماء المشاركين فى شتى انواع العلوم والفنون ، وله نظم لا يختلف عن نظم العلماء امثاله ، من ذلك قوله:

عجبــت لمبتــاع الضلالــة بالهدى　　　وللمشترى دنيــاه بالديــن اعجب
واعجب مــن هذين من باع دينــه　　　بدنيــا ســواه فهو اخزى واعجب

ومنــه قولــه :

اقمــت بمكنــاســة مـــدة　　　اعلم ابنــاءها مــا الكــلام
فلمــا توهمــه بعضهــم　　　عاــى بــه بخلــوا بالسلام

وقوله فى مكناسة ايضا ، وقد نفاه منها اميرها :

طلقــت مكناســة ثــلاثــا　　　والشرع يأبــى الرجوع فيه
ليست بــدار سوى لقــاض　　　أو عامل الجور أو سفيــه

وينسب اليه لغز فى القلم هو :

وميت قبــر طعمــه عنــد رأسه　　　اذا ذاق مــن ذاك الطعام تكلما
يقــوم فيمشــى صامتــا متكلمــا　　　ويأوى الى الرمس الذى منه قوما
فــلا هــو حــى يستحق زيــارة　　　ولا هــو ميت فيرجــو تــرحما

وله منظومات علمية وتعليمية فى فنون عديدة ، منها المنية فى الحساب التى يقول فى مقدمتهــا :

فســرنــى سرور مجــر فى الخلا　　　يا ليت شعرى ما مداه فى المــلا

قاضى الجماعة بفاس أبو الحسن على بن موسى بن هارون ·

فمن موشحات ابى سعيد ، قوله ، معارضا لابن سهل ، كما فى نفح الطيب ، حيث ذكر هذا الرجل ببعض متأخرى المغاربة وذكره المقرى أيضا فى الازهار ، ببعض العدول من اهل العصر القريب من عصرنا وهى فى مدح النبى يقول فيها :

يا عريب الحــى من حــى الحمى	حلتــم لا وحيــاة الانفــس
لم يحــل عنكم ودادى بعــد مــا	انتم عيــدى وانتــم عــرســى
مــن عذيــرى فى الذى احببتــه	مالك قلبــى شديــد البــرحــا
بــدر تــم ارسلــت مقلتــه	سهــم لحــظ لفــؤادى جــرحا
ان تبــدى أو تثنــى خلتــه	غصــن بــان فوقه شمس ضحى

* * *

تطلــع الشمس عشــاء عنــدما	تنجلــى منــه بأبهــى ملبــس
وتــرى الليــل أضــا منهــزمــا	وتــرى الصبــح أضــا فى الغلس
يــا حيــاة النفس صل بعد النوى	والهــا مضنــى شديــد الشغف
قــد بــراه السقم حتى ذا الهوى	كــاد أن يفضــى بــه للتلــف
آه مــن ذكــر حبيب باللــوى	وزمــان بالمنــى لــم يسعــف

* * *

كنت ارجــو الطيــف يأتى حلمــا	عائــدا يا نفس مــن ذا فايــأس
هــل يعــود الطيف صبا مغرما	ساهــرا أجفانــه لــم تنعــس
همت فى أطــلال ليلــى وانــا	ليس فى الاطــلال لــى مــن ارب
مــا مــرادى رامــة والمنحنــى	لا ولا ليلــى وسعــدى مطلبــى
انمــا سؤلــى وقصدى والمنــى	سيــد العجــم وتــاج العــرب

وله فى مباراة هذه الموشحة موشحة اخرى يقول فيها :

لا تلمنــى يا عذولــى تأثمــا	مــا ترى جسمــى بسقم قد كسى
مثــل دينــار وها قــد صرفــا	حيث اشكــو وحشــة من مؤنس
ظبــى انسى عــن فؤادى نفــرا	وفــؤادى مكتــو مــن شــده

تكلم فى الحقيقة والمجاز   فما فى الناس مثلك ياابن غازى

ومن تلاميذه محمد الكفيف المذيل للبيت :

لقد مزقت قلبى سهام جفونها   كما مزق اللخمى مذهب مالك

فقال هو :

وماس على الاوصال بالقد قدها   فأمست كأبيات بتقطيع مالك
وقلدت اذ ذاك الهوى لمرادها   كتقليد أعلام النحاة ابن مالك
وملكتها رقى لرقة عطفها   وان كنت لا أراضاه ملكا لمالك
وناديتها يا بغيتى بذل مهجتى   ومالى قليل فى بديع جمالك

فهذا شعر على كل حال يجرى فيه من ماء الشعر ورواثه كثير ، على تصنعه وتحذلقه بتلك المتشابهات .

وكان من المجاهدين المتصوفة معاصر له هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن يجبش والمتوفى عام 920 ومن منظومه قصيدة عارض بها منفرجة ابن النحوى ، يقول فى أولها : مقتبسا حديثا نبويا ، كان ابن النحوى قبله اقتبسه كذلك :

« اشتدى أزمة تنفرج »   قد أبدل ضيقك بالفرج
مهما اشتدت بك نازلة   فاصبر فعسى التفريج يجى
مولاك ارغب فاجابته   للمضطرين على درج
وألح عليه بمسألة   فهو الجواد فسل وهج
اخلص فيما تدعوه وقل   يسر عسرى وازل حرجى
لا حيلة لى لا قوة لى   الا بك يا محيى المهج

والى جانب هذه الاوزان الخفيفة ، وجدنا فى فاس ومكناس نشاطا فى نظهم الموشحات ، التى لم نجد من المتقدمين من برعوا فيها الا الاغماتى ثم العزفى المذكورين .

أما الناظمون من فاس ومكناس فنجد منهم اثنين من الفقهاء قلدا كلاهما ، ابن الخطيب ، أو أحدهما قلد ابن سهل الاشبيلى ، وهو أبو سعيد عثمان المكناسى ، أحد العدول بفاس الجديد ، والاخر هو

ومن المنظومات التعليمية ، منظومة نظمها لصبيان الكتاتيب القرآنية استهلها بقولـه :

باسـم خـلاق الانـام نبتـدى صـدر النظـام

وتعرف هذه المنظومة باسم « المولدية فى خير البرية » :

وله رجز تاريخى يقول فيه :

وعقـدت رايـاتـه فى القصـب	وجـاءنـا ادريس عـام «قعب»
الـى وليلـى المغرب القصـى	اذ قـام صنـوه علـى المهدى
وبعـد ما سم سمـا النجل الابى	واختـط فاسنا لعـام « قضب »

ومن تآليفه الادبية تاريخه لمكناس المسمى « الروض الهتون » .

وله فهرسة طبعت حديثا .

فابن غازى يمثل ذروة العلماء الذين كانوا لذلك العهد حاملين راية العلـم والجهـاد معـا .

وتقدم أن الحباك لما فرغ من اقراء رجزه استجازه بقوله :

الا أيهـا الظمآن ظلـت محيـرا	فـدونك مـا يرويـه نظما محبرا
لنجـل سعيـد حبر ذا القطر كله	فقد صاغ نظما بالعذوبة حضـرا
وفجر نهرا مـن زلال نضى الصدا	وطهـر أرضا والجهالة اذ جـرى
قـرأت عليه النظـم حتى ختمته	فمن فضله خط الاجـازة أسطرا
فقال مجدا قد رويـت فرو مـن	تريـد وقل فيـه مقلا ومكثـرا
كفـى خطه مـن بعد هذا مصدقا	ومـا خطه يخفى وسوف اذن ترى

أصبح ابن غازى من جهابذ العلماء وأعلام المدرسين الذين انتقلوا الى العاصمة فاس ، فكان لهم بها شأن عظيم ، بعدما كـان يمـارس مهمته التدريسية بمدينته الاولى مكناسة ، كما يفصح عن ذلك البيتـان السالف ذكرهما ، ثم طلقها ثلاثا ، كما قال فى البيتين الآخرين المذكورين كذلك ، وكان مشاركا فى عدة علوم كان من بينها البلاغة فقال أحد تلاميذه فى ذلـك :

وعذولى فى هــوى الحب فــرى بمــلام مــذ نهــى عـــن وده
انت اعمــى يا عذولى ما تــرى يانــع الــورد بــدا من خــده

* * *

ولــه ثغــر اذا مــا ابتسمــا كبــروق أومضت فــى الغلــس
وثنــايـــــاه كــــدر نظمـــا فضيــاه فى الــدجــى كالقبــس
كــم تــرى سحرا بجفنيــه بــدا لفؤاد فى الهــوى اضحى كليــم
ليس سحر مقلتــى هــذا سدى يا فؤادى ان شفى السحر السقيم
خيفــة أوجــس قلبــى وغــدا راحـــلا صبــرى وها شوقى مقيم

* * *

ياالــه العــرش يا رب السمــا يــا عليمــا بضميــــر الانفــس
قلبــى الولهــان يشكــو المـــا مـــن جفــى ظبــى اغـــن اكيس
اغيــد يسبــى البرايــا بالمقــل ادعـــج الجفـــن بعينيــه حــور
لو راته الشمس اضحت فى خجــل وهـــو البــدر بوجــه كالقمــــر
مـــن معانـــى حسنه رق الغــزل فى غـــزال قــد غزانى بالنظــر

* * *

آخــذ بالـــــروح منــى كلمــــا رمــق الصــب بطــرف أنعــس
يقنص الاســـد بلحــظ قــد رمــى أسهمـــا تفتــك مــن غيــر قسى
يــا رعــى الله زمـــانا سلفـــا بلـــويــلات تقضـــت بانشـــراح
مثـــل مـــا شـــرح غرامـــى علما فى الـــد العيـــش مع حب وراح
فاعذروا القلب الذى قــد شغفا بحبيــب مـــا لـــه عنـــه براح

* * *

بـــدر تــم أهيف حلــو اللمـــى ريقــه شهــد شهــى اللعــس
كســلاف عهدهـــا قــد قــدمـــا تنجلــى فــى كأسهـــا كالعـــرس
قهـــوة بكـــر عجـــــوز عتقــت زمنـــا فى دنهـــا من قبل نــــوح
هـــى لمـــا فى زجـــاج اشـــرقت شمس راح غـــربت فى كــل روح
جددت بسطا وكــم قــد مــزقت قلب صب فى غبـــوق وصبـــوح

* * *

حلـف الخمـار عنهـا قسمـا ... انهـا بالمكـث كـادت تنتسـى
فاسقنـى صرفا ولا تمـزج بهـا ... راحـة كم اذهبـت مـن قبـس
فى ريـاض قـد شدا شحـروره ... عاطنيهـا بيـن اكنـاف الشجر
وانظـم الشمـل ودع منشـوره ... حـول ورد واقـاح وزهـر
واذا الطـل بـدا شبـوره ... كلـل الاوراق منـه بالـدرر

* * *

مـا تـرى الريحان عبدا خدمـا ... حيث اضحـى واقفـا فى المجلس
جلـس النسريـن لكـن ربمـا ... استحـت منـه عيـون النرجس
فتنـزه فى ريـاض خضـر ... وغصـون غـردت فيهـا هـزار
وانتشـق عـرف زهـور عطـر ... ياسمـين زينتـه الجلنـار
وشـذا الزهـر كمسـك اذفـر ... (واقبـل العذر لابـن البزددار

* * *

طامـع فى رحمـة اللـه ومـا ... خـاب عبـد طامـع لم ييـأس
يا الهـى جـد علينـا كـرمـا ... يـا كريمـا قبـل اخذ الانفس)

ومن موشحات أبى الحسن على ابن هارون ، هذه التى قالها ، مخاطبا أبا الطيب الظريف التونسى الذى كان من جملة مهاجرى التونسيين الى المغرب ، لما تعرضت بلاده لاحتلال الاسبان ، وهى كمـا سنـرى احتدى بها موشحة ابن الخطيب التى عارض بها أخرى لابـن سهـل يقـول فيهـا :

جـادك الغيث اذا الغيـث انهمر ... حضرة الانـس البديـع المؤنس
لـم يكـن الا كلمـح بالبصـر ... اى بريـق لاح لى مـن تونـس
يـا لهـا من فجعـة زبد الخير ... انهـا شقيقـة الانـدلـس
كـم خـدود فى وجـوه كالقمـر ... خدهـا دمـع جـرى من نرجس
حالكـات غيـرت منهـا الصور ... ذل أسـر بعـد عـز الانفـس
اصبحـوا اسـرى بأيدى من كفر ... ملكـت ارقـابهـم بالافلـس
يالتـرك بقسـى ووتـر ... اخـرجـوهم مـن ظلام حنـدس

وفيما عدا هذه فهناك بيتان قالهما بمناسبة تجديد قنطرة الرصيف ، وهمـــا :

لقـــد ســـدد الله رأى العمـــاد   وأبطـــل فى الســـد راى الجهول
فطـــردا وعكسا لسانى ينـــادى   عقـــول الملـــوك ملـــوك العقول

والاخير منهما فى معناه حسن . أما لغته فلغة علم تستعمل فى التعاريف وفى اصطلاحات التعديل ، وليست لغة شعر . ودونه البيت الاول الجاف توفى عام 951 .

وكذلك قال فى المناسبة عبد الواحد الونشريسى المتوفى عام 955 :

جســـر الرصيف أبو العباس جدده   فخـــر السلاطين من ابناء وطاس
فجـــاء فى غاية الاتقـــان مرتفعا   كيمـــا يمـــر به من عدوتى فاس

فهذان البيتان ما هما الا نظم مجرد لا ماء فيه للشعر .

وكان يعاصر هؤلاء الفقهاء الشعراء أحمد الغزانى الفاسى المتوفى عام 920 ومن شعره قوله :

اذا كنت فى فاس ولم تك ساكنا   بطالعها الاعلى فما أنت فى فاس
لطريانـــة طـــارت همومـــى كلها   اذا شعشع الساقى ودار باكواس

وقوله معارضا بيتى أبى العباس المرينى ، وهما :

يا عاذلى دع عنك عذل العـــاذل   واخلـــع عذارك فى الحبيب الواصل
واذا ذكرت عشيـــة بمحـــاســـن   فاذكـــر عشايانا بـــدار العـــادل

فقـــال الغزانـــى :

لا تلح فى حبهـــا يا أيها اللاحى   هى المنى وهـــى أنفاسى وارواحى
وان تذكرت حسنا من محاسنهـــا   فاذكـــر عشيتنـــا فى بـــرج لواح

وهذا فقيه آخر كان يعاصرهما ، وكان خطيب القرويين وهو أحمد الصنهاجى المعـــروف بالدقون والمتوفى سنة 921 ، ومن شعره هـــذه الاجازات النظميـــة :

اشهــدكــم يــا مــن حضــــر | اهـــل البــوادى والحضـــــر
انـــى اجــزت قــاسمـــا | ابــــن الفقيــــه المعتبـــر

وقولــه فى اخــرى :

أجاز لك الــدقون يانجل سيــدى | ابى جمعة والآل كل الــذى روى

وبعده بيت آخر :

تحدث بما استدعيت فيه اجــازة | وسلم على من خالف النفس والهوى

وللدقون قصيدة يوصى فيها بالاندلسيين خيرا وهى :

أمنت مــن عكس آمــال وأحوال | وعشت مــا بين أعمــام واخوال
ولا ابتليت بمــا فى القلب من نكد | فالجسم مشتعــل من غير اشغال
وكيف لا وبقــاع الديــن خاليـــة | مــن أرض اندلس من أجل أهوال
عمت فغمت قلــوب المسلمين فيا | للمسلمين مــن اعــداء وانكـــال
جاشت بها من جيوش الكفر ما درست | بهم معــالــم أخيــار واقيـــال
اهل الشجاعة أهل العلم اهل تقى | أهل النفاسة فى قــول وافعـــال
عنهم وفيهم أحاديث النبى بــدت | وهم معاقــل قول الله للتـــالى
رهبــان ليــل وفرسان النهار فمن | يلــم بساحتهــم يظفــر بآمال
لا عيب فيهم سوى ان المضاف لهم | يسلو عن أهل وأوطان وأمـــوال
فهل ترى بعد هذا النفس سائلة | وكيف تسأل عن وصف وعن حال
تالاّـــه لا زال ما فى القلب من أسف | ولو اكــون حليف المنزل الخالى
أو يفتــح الله فى نصر يمن بــه | فاللــه باق يقــى من كل محتال
قــد رام اطفاء نور الله مجتهدا | وباذلا كــل ما قد حاز مــن مــال
سطا بجيش كموج البحر فى عدد | نعم وفى عــدد من رهط ابطـــال
مؤيــدا باجتمــاع المصر يتبعــه | شــر الخلائــق مسرورا باقبـــال
يسبى المسامع بالانفاض مشبهـــة | وقــع الصواعــق فى هد وزلزال
يبنـــى ليهدم ما الاسلام شيــده | والوصف يعجز من يدعى بقلقـــال
فهـــو المقاتل فى الابراج منتقــل | الف النحوس وتغييــر وترحـــال
فاستوطن المرج لا ينوى الرحيل ولا | يخشى المغيث بسهــل أو بأجبال

والمسلمون من الاضغان قد ملئت … قلوبهم وابوا تسديد اخلال

والحق مختلف والحمق مؤتلف … والكل منصرف عن نصر ابطال

وهم لديه كطير وهو ينتفه … والطير يرجو البقا مع كيد قتال

اذا تجرد من ريش يطير به … اضحى يدافع عن روح بأوصال

سدوا مسالك ارزاق ومنفعة … كدودة القز فى نسج لسربال

ثم استغاثوا الا فرسان عادية … قال الصدى لست ذا رمح ونبال

و «الصيف ضيعت» ما أملت من لبن … ففارق الجبح من تدخين نحال

وأرحل بنحلك نحو الغرب فى كرم … من قبل وضعك فى قيد واغلال

فاستمكن الرعب فى الاكباد واتفقت … بعد اختلاف على تامين أرذال

واحتل غرناطة الغراء قد عدمت … « حب الحصيد » ونصر الله والآل

كأنها الشمس فى افق العلا كسفت … فهل على طلل ترمى بأبطال

وهل تعود ليال قد سلفن بها … ونحن لا نشتكى تنكيد ضلال

وهل يعود لها الدين الذى انست … به وقد أيست من فتح « ابدال »

« فأصبحوا لا ترى الا مساكنهم » … كمثل عاد وما عاد بأشكال

قد فرقوا كسبا فى منزلة … وقد سبا عده من ايد أوعال

فلا المساجد بالتوحيد عامرة … اذ عمروها بناقوس وتمثال

ولا المنابر للوعاظ بارزة … للامر والنهى أو تذكير آجال

ولا المكاتب بالصبيان آنسة … تتلو القران بأسحار وآصال

آه على الدين والدنيا وما نفعت … آه اذا صدرت من قلب بطال

« انا الى الله » والرجعى له وبه … تعلق القلب فى « تصحيح اعلال »

وكان ما كان والالطاف شاملة … لاحت بنقلة نسوان واطفال

فلنكرم الآن من ينزل بمنزلنا … فالدهر ذو دول فاسمع لامثال

واذ ولا قدرة تدنى المنى فلهم … حق الجوار ولا توصف باهمال

نلقاهم ولنا بشر ومعذرة … ورحمة يا حماة العم والخال

ولا نذد عن ورود الحوض وارده … ولا ندع قول ذى نصح واجمال

اخوانكم رفعوا أيدى الضراعة مع … كسر القلوب فلا يلقوا باخمال

وقل لوال تلطف فى مغارمهم … يلطف بك الله اذ تدعى لاحمال

هذا النذير جهارا جاء ينذرنا … والاذن فى صمم عن قيل أو قال

ونحن فى غفلة عمــا يــراد بنــا ... نمشى على مهلة من طول امهال

يا أهل فاس أما فى الغيــر موعظة ... ان السعيد لموعــوظ بــأمثـــال

فقل «تعالوا الى» نصح وتذكــرة ... فالامر جد فــلا تصــخ لمكســال

كيف الحياة اذا الحيات قد نفخت ... علــى السواحل أو همت بارسال

ولا سبيل الى الترياق غير تقى ... والحزم فى سعة من قبل اعجــال

والاخذ بالجد فى جمع القلوب على ... بذل النصيحــة أو ابــراء ادخال

والزهد فى هذه الدنيــا وزخرفها ... والامر بالعرف مع تحسين مقوال

ولا نرم فى امـــان الـــروم منزلــة ... خوفا على الدين او بعدا من انذال

فمن يبت فى أمان الكلب منتصبــا ... لسخط مــولى ولا عذر بأثقــال

واربأ بنفسك عن أرض تهان بها ... فحيثما كنت لا تخشى من أقــلال

فالموت عندى خير من حياة فتــى ... قد اكتسى بعــد عز ثوب اذلال

والهجرة الآن قد عادت كما سبقت ... فافهم تفاصيــل أقوال واجمــال

واحتل بذهنك ولتسمع نصائح من ... قد «طب من حب» لم يوصف بمحتال

فى صدر سبع على التسعين زائدة ... شمس الجزيرة غابت بعد اكمال

وبلغ الكلــب قد شاء مــن أرب ... اذ لم يجد ذائدا عن ديننا العالى

« ليقضى الله أمرا كان » قدره ... والامر لله فى قــول وأفعـــال

وقد وعظت ولو أسمعت لانتشرت ... سحائب الدمع لم تقلع عن انزال

فليشتغل كل مسكــين بمهجتــه ... والله يحفظنــا من كل مهــوال

ثم الصلاة على المختار سيدنــا ... محمــد والرضى عن آل أو تال

فهذه قصيدة بعيدة عن الاسلوب الشعرى ، وان كانت فيها بعض الصور الجديدة فى الادب ، وصاحب القصيدة كثيراً ما ينساق نحــو الجرس الذى قد ينشأ عنه صورة أو صور نستحسنها ، كما وجدنا ذلك فى الرهبان والفرسان ، والحق والحمق ، والحياة والحيات ، ثم انــه يضمن كثيرا من القرآن وبعض الامثال ، كما روى بتعبير صرفى « تصحيح اعــلال » .

وعلى كل حال ، فان القصيدة بصرف النظر عن ناحيتها الفنية ، لها قيمة تاريخية واجتماعية ، ولهذا أتينا بها كلها ، وصاحبها يعتذر ،

فيقول « لما غابت شمس الجزيرة الخضراء ، بأخذ الحمراء ، قرعت « باب الندبة » لما تقدم من الصحبة ، فقلت أبياتا صدرت من قلب كئيب ، مبكية كل لبيب أريب ، وسميتها بالموعظة الغراء ، بأخذ الحمراء ، مبيحا لمن رغب فيها ، ولم يرغب عنها ، أو استحسن شيئا منها ، أن يحدث بها عنى ، وذلك بعد اتقان لفظها وحفظها ، وفهم وعظها ولحظها، « وان كنت لا أحسن أن أقول ، وربما أعزى بها الى الفضول » ، لكنى لا أعدم المثيل ، وفى مثل هذا قيل :

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها	كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

والله حسبى وعدتى ، وهو مقيل عثرتى .

ومن هؤلاء الفقهاء ، أبو حفص ، عمر بن عبد الرحمن الجزنائى ، المتوفى أول القرن العاشر ، ومن نظمه قوله :

اتانا سؤال فيه كل تحيرا	عبارته أهدت كلاما مقعرا
فهذا يرى رأيا وهذا بعكسه	لكل مجيب فيه حال تكررا
على أنه بالنحو سهل مرامه	وأن كان مجهول المسالك أوعرا
فالاعراب نور للبصيرة والفتى	اذا رابه أمر به قد تبصرا
فأقبل عمرو سيبويه بجمعه	فأوضح معناه الذى قد تسترا
فحل هناك المشكلات بعلمه	فأكرم به حبرا فما كان أبصرا
ومن بعده قد جاء بالفقه مالك	فابرز نور الحق فيه واظهرا
فلله عينا من راى مثل مالك	امام الانام فى العلوم تبحرا
فاكرم بهذين الامامين ولتقل	جزاهم الاه العرش خيرا عن الورى

وهناك قصيدة قالها شيخ سجلماسة ومفتيها ابراهيم بن هلال السجلماسى المتوفى عام 903 مجيبا بها البونى التونسى ، وكان هذا قد مدحه بقصيدة سماها « جواهر الجلال فى مودة ابن هلال » وهى لامية كما فى جذوة الاقتباس .

أما قصيدة ابراهيم بن هلال فهى :

يا نخبة العلماء والفضلاء	وبغية الاعلام والنبلاء

صدر الصدور امامهم ووحيدهم   ذوقا وادراكا وفرط ذكاء
وبراعة وفصاحة وبلاغة   ازرت بسائر السن الفصحاء
دانوا اقروا اذعنوا لجميعهم   فاسحب ذيول العزة القعساء
سحبانهم لكم يقربانكم   قطب البيان وفارس البلغاء
لا والذى أولاك كل فضيلة   وحباك بالتنويه والاحظاء
ما ان رايت ولا سمعت بمن حوى   كل العلوم سواك بالاحصاء
والله يوتى ما يشا افضاله   ويخص بالاكرام والايلاء
وانار ديجورا وأوضح مشكلا   كالبدر جلى غيهب الظلماء
بشراك عبد الله حزت مفاخرا   وعلوت فوق كوكب الجوزاء
ارئيسنا الاعلى وبدر زماننا   وفتى العلاء وكعبة العلياء
طود الزعامة والمهابة والعلا   وجمال نادى الفضل والفضلاء
وصديقى الارضى وخلى الذى   أورى زناد مودتى واخاء
وحبيبى الازكى وعلق مضنتى   وأخى الذى قد حاز كل علاء
عاطيتنى راح الوداد وقد سرت   بمفاصلى وتخللت أعضائى
البستنى ثوب الثناء مطرزا   فجررت ذيل الفخر والخيلاء
اوليتنى ما لا اقوم بحقه   فجزاك رب الناس خير جزاء
خاطبتنى بقصيدة لامية   ازرت بسمط الغادة الحسناء
ضمنتها سحر البيان فأفحمت   عجزا وأعيت السن الشعراء
طرزتها ببدائع تزرى ببهـ   ـجة زهر روض تحت صوب سناء
بكر تررق الى النهى وذوى الحجا   فلمثلها يصغى الى الاصغاء
انبات فيها عن صريح محبة   وعن اعتقاد خالص وصفاء
قسما بمن سواك شخص سيادة   وجلالة ونزاهة وذكاء
ووجاهة ونباهة ومهابة   وشجاعة وسماحة وسخاء
وديانة وطهارة وصيانة   وأمانة وتعفف وحياء
ماان لنا بجوابكم من طاقة   من لى وكيف وانى لى بكفاء
لكن جميل الذكر منى لم يزل   ما عشت موصولا مع الابناء
والشكر منى واجب متعين   ابدا لما لك من يد بيضاء
لا زلت مشكورا وسعدك دائم   يا نخبة النبلاء والعظماء

وحماك محفـــوظ وكعبــك معتــل ســـام يزاحم مـــوكب الجـــوزاء
وعليك مـــن أزكى السلام تحيـــة تغشاك بالاصبـــاح والامســـــاء
تفحاتـــه كالمســـك فـــض حتامـــه وكنشـــر زهـــر الروضـــة الغناء

نلاحظ على هذه القصيدة ، أسلوبا لا يبعد كثيرا عن أساليب الشعراء، وان كان فيه فقر فى التعبير ، أدى الى تكرير كثير من الصور ، أو تعداد كثير من الالفاظ ، الواحدة بعد الاخرى ، مثل سيادة وجلالة ونزاهة وذكاء ، ووجاهة ونباهة ومهابة ، وشجاعة وسماحة وسخاء وديانة وطهارة وصيانة ، وأمانة وتعفف وحياء ، ثم أردف ذلك ، بهذا التركيب الذى نجده ، مترددا كثيرا ، فى أشعار ، هذه المرحلة ، والتى قبلها ، وهو « ما ان لنا بجوابكم من طاقة » وقوله « ما أن رايت ولا سمعت بمن حوى » فكأن القوم كانوا حديثى عهد بقول ابن مالك ، « اعمال ليس أعملت ما دون ان » . وقلما نظفـــر فى هـــذه القصيـــدة بتعبيـــر شعـــرى ، وان كـــان فانمـــا هـــو مـــردد لمـــا سبـــق مـــن اشعـــار الـــذيـــن تقدموه ، اما تعابير الفقهاء ، ففى مثل قوله ، « والشكر منى واجب متعين » وفى نهاية هذا العصر الغامض . نتصل بشخصية لها اهمية خاصة .

وقد كان هذا العهد غامضا حقا ، حتى فى تاريخه وذكر ملوكه الذين وقع فيهم اختلاف أو اهمال لبعضهم ، وهو ما تعرض له آخر العهد المرينى السالف ، وحتى الآن فأكثر الاعتماد فى هذا التاريخ ، على ما كتبه الحسن الوزان ، المعروف بليون الافريقى .

أما الشخصية التى نعنيها فهى للناظم القاضـــى محمـــد بن عبـــد الرحمن الكراسى الريفى أو الاندلسى الاصل ، والمتوفى عام 964 أوائل العهد السعدى وصف هذا القاضى بأنه كان أديبا شاعرا ، أخذ عـــن علماء من الاندلس ، كالوراق الغرناطى ، كما اخذ عن علماء مغاربة ، مثل الونشريسى ، وابن غازى ، وكان من زملائه الدقون السالف الذكر.

ونظمه الذى اشرنا الى أهمية صاحبه معنون باسم « عروسة المسائل فيما لبنى وطاس من الفضائل » وأبياته تربو على أربع مائة بيت . فهو ثانى المنظومات التاريخية التى عرفت للمغاربة ، وأولها نظم المزوزى

السالف ذكره للمرينيين .

وقد انتهى هذا النظم فى ذكر الاحداث الى عام خمسين وتسع مائة، اى انه لم يواكب الدولة الوطاسية حتى النهاية ، التى أدركها ، ولعل ذلك كان خوفا من القائمين الذين لم تكن لهم هوادة فى المنحازين الى خصومهم المحاربين لهم ، فأزهقوا روح الونشريسى بذلك . ولهذا كانت نهاية النظم ، كما قال :

آخــر شهــر الحجــة الحــرام	متــم خمسيــن علــى التمــام
مــن بعــد تسع مائــة لهجرته	لطيبــة طــابت بطيب تربتــــه

وقد قال أول المنظوم :

الحمــد للــه العزيــز القــادر	عــالــم كــل وارد وصــــادر

ثم قــال فى مناط نظمــه :

تبعــت فيــه السيــد الملــزوزى	فى ذكــر كــل ملــك معــزوز
وابــن الخطيب ذاكرا رقم الحال	فى الخلفــاء والملــوك والملــل

وكان البدء فى ذكر ملوكها بمحمد الشيخ الوطاسى ، حيث قال :

أولهــم مــن حازهــا مبــايعــة	محمــد الشيــخ بــلا منــازعــة

وفى هذا يذكر أسماء آبائه ، وما تحلى به من فضائل جليلة ، فى تثبيت دعائم الملك . وخلال ذلك يصور ما كانت عليــه البــلاد من فتــن واهوال واضطراب وفوضى ، الى أن ينتهى الى التحامه بحرب البرتغال..

وهذه المنظومة وان كانت محض تسجيل للتاريخ وأحداثه ، الا انها تشبه الملاحم الى حد ما ، فيما تبعثه من حمية وتسبغ من قداسة وهى فى أسلوبها غريبة ، حيث تطل منه العامية أحيانا ، الى جانب تعابير أخرى راقية ، لعلها كانت محفوظة للناظم كما هى ، أو انه عثر عليها، فى معجم لغوى أو فى نص تاريخى راق ، اذ كان الرجل ، على كل حال ، ذا اطلاع على الادب ، خصوصا منه ما يتعلق بالتاريخ ، كما رأينا ، وكان ميالا ، ولا شك الى تسجيل الاحداث ، يقول :

وانني لما رايت سادة ... تقدموا من الملوك قادة
من خلفاء من خيار الناس ... من اهل وطاس الشداد الباس
أردت نظمهم على سلوك ... من جاز قبلهم من الملوك
لان ترى أخبارهم عيانا ... ولمحاسن أتت بيانا
فى رجز مهذب مقرب ... لملك وطاس بأرض المغرب

فهذا أسلوب طليق مشرق فى جوانبه ، ولكنه حينما يتعرض لسرد الاحداث لا يتقيد بفصاحة العربية وقواعدها احيانا وبأوزان عروضها أحيانا أخرى ، وان كان ذاك قليلا كما نجد فى هذه الابيات :

وجاءت الروم الى الجزيرة ... بكل اسطول وكل ميرة
ودخلوا فى وادى الكوس ... ذاقوا به الهوان بالنكوس
اقاموا اذ ذاك هناك بلدا ... واسكنوا فيه الطغاة والعدا
جيش اهل الغرب طرا ودنا ... وكان للعرب نصيرا ما ونى
جاهد بالمال وبالنفوس ... قطع طمع الكافر البئيس
ولم يزل مع المجاهدينا ... من فاس والانجاد أجمعينا
لحقهم قبل تمام العمل ... وقد اداروا سورلوح معمل
وجيشوا فيه بستين مائه ... من صانع وقائد من الفئه
نازلهم على شفير الوادى ... ورد فى شماله الاعادى
وكان من ذا للرئيس الحبيب ... راى سديد ردهم جليب
أن قطع الوادى بجعل سلل ... من قصب وبالصخور تمتاى
انزلها بعمل التثبيت ... وقطع الوادى بلا تلبيث
وامتنع الطلوع بالاجفل ... فأيقنوا بساعة الخسران
عمل فى ذاك وشد العملا ... وفوق سرجه الصخور حملا
حتى اذا بلغ قصدا وعلا ... ابطل للكافر ما قد املا
طاعت له وذلت الاعلاج ... وييست من تحتها الخراج
ثم فدوا نفوسهم بكل ما ... طالب اعطوه له متمما
من بعد ما دام الحصار شهرا ... والناس تباع لاولى الامرا
وكان للسلطان ضد خالفه ... شاوية وغيرها مخالفه

فخاف ان ابطأ شهرا آخر   عواقبا لا مثلها يؤخر
غلب اذ بلغ قصدا واعتلا   واجفل الكفار منه جفلا
وغلب الاسلام بعد ذا الترح   وكان ذاك باكتمال للفرح
عقد صلحا بعد ذاك معهم   عشرين بعد خمسة سنينهم
حتى ربا المكسب والتلاد   وازدانت العباد والبلاد
عزم نجاه الامير يحيى   على فساد الصلح طول المحيا
مع الشريف الاسعد الجلى   على ابن راشد السنى
اخلا جميع ما النصارى عمروا   وجهة الهبط فكلا دمروا
وعاد للاسلام كل مسلم   وصار جيش الكفر غير مسلم

وفى نزول البرتغال المعمورة يقول :

فى مركب فى البحر والاسطولا   ارسى بوادى سبو كى يصولا
فيه اقاموا بلدا متينا   مدورا من بعد اربعينا
وعمروه بالرجال والعدد   وكل ما يحتاجه اهل بلد
وكان قد خلا اخاه الناصرا   وزيره فجاءه محاصرا
واعمل الجلاد والزعامة   وحكم الجيش وذا كرامة
ولم يدع من فل او زل ولا   جسر من يقدم حتى لسلا
واستعمل الانفاظ للاجفان   وايقن الكفار بالخسران
واهل فاس مع مكناس بها   تجأر بالعون لها لربها
يا ناصر الاسلام تدعو كل حين   انصر جيوش المسلمين الصالحين
وطمع الكفار فى المحال   تحدثوا اذ ذاك بالمحال
راموا يباكروا المحلة صباح   فلم يلاق رايهم فيها رباح
لاقوا عبادا صبرا على اللقا   وصار كل للعدا معتنقا
فجاء ذا المولى الهزبر الناصر   فوجد الجيش جميعا حاضر
فحرض الناس على جمع الرؤوس   وصار يعطى ذهبا مع فلوس
لما انتهى قال احملوا هذا لفاس   سبقت الرؤوس كل ذى الاناس
وصفت الرؤوس فوق سور   باب الشريعة كما المحصور
ثم اتى على بناء البلد   فدخل الرعب لكل خلد

فركبــوا الاجفــان كيمــا يخرجوا للبحــر فى أسطولهــم ويدلجــوا
ومــد فى الوادى جسورا من حجر منعت الاجفان أن تقتضى الوطــر
ومنــع الرمــاة منهــا الاجفــان مــن الخروج أيقنــوا بالخســران
حلت بهــم جيــوش أهل اللــه فى قتلهم بالــرمــى بالــدواهــى
غــرقت الاجفــان فى الــرمــال وماتــوا كلهــم علــى التــوالى
الا قليــلا مــن نجــا لمــا شفا على الهــلاك بعد مــا قد تلفــا
تسعــة آلاف مــن الشــرورة أفنــى الالــه سنــة المعمــورة
فى صيف عــام واحد وعشريــن من بعد تســع مائــة بالتبييــن

وهكذا يلاحظ على المنظومة ، انها وان كانت على مستوى غيــر رفيع ، فهى بالنسبة للتاريخ مسجل حافل دقيق ، لا يغادر كبيرة ولا صغيرة ، تبدو فيها الناحة القصصية ، حينا ، ولكنها سرعان ما تختفى، وبها وحدها تقرب الى الملاحم قربا ما ، وفيما عدا ذلك ، لا تزيد على كونها سردا للاحداث المجردة .

ومن الكلمات العامية ، التى لاحظناها كلمة « النكوس » جمع نكاس المراد به الخزى والهوان والمذلة وتصرف فى « الجلبان » فصغره جليب ، وهو تصغير عربى ، ان كان لجلبان ، وعلى كل فالتشبيه عامى فى ذاته . واستعمل « خلى » بمعنى غادر وترك وانفصل عنه ، ومن الاستعمال العامى وان كانت كلماته فصيحة « وييبست من تحتها الخراج » كما استعمل « رباح » بمعنى نجاح وصلاح .

وقد يضطره الوزن والقافية الى زيادة نحو « وذاكرامة » ونحــو « كما المحصور » يريد ان الرؤوس غطت أعالى السور ، كأنه فى حصار منها ، وفى هذا من التكلف ما لا مزيد عليه ، ومن خلاف القواعد جعل سور معملا من اللوح ، اسم مفعول من أعمل ، ولا معنى له هنا ، فحقه معمول من الثلاثى ، واستعمل سلل ، جمعا لسلة بحذف الالف ، ولا نعرفه الا سلالا ، كما نص عليه اللغويون . وجعلته القافية ينصب المضاف اليه فى « لاولى الامرا » ومن قلق العبارة قوله « تجأر بالعون لها لربها » يريد أنها تجأر مستعينة ربها ، كما فسر ذلك فى البيت الذى تلاها :

ياناصر الاسلام تدعــو كل حــين انصر جيوش المسلمين الصالحين

وفى استبداد ابن راشد وتطلعه للسلطان يقول بعد :

وثـار فـى شفشـاون وصـالا ذاك الشـريف العـادم المثـالا
دعـا لنفسـه وجـاء الطمـع أن يدخـل الحضـرة أو يطلـع
علـى بـلاد المغـرب سلطـانا خـاف وخـاب رايـه مـا كـانا
تحـركـت لـداره جنـود فاس ومكنـاس لهـم بنـود

وفى تكلمه على ابنه أبى عبد الله محمد ، تعرض لاحداث وقعت فى ايامه ، مثل نزول البرتغال على المعمورة ، كما سلف ذكره .

وفى تعرضه لاخيه أبى الحسن على ، ذكره بالبخل فقال :

وكـان فى البخـل علـى أمواله مـا لـم يكـن فى غيـره من آله
وظـن أن الحـال قـد ينجيـه مـن كـل ضيـق أو لمـا يلجيه
فخلعـوه بعـد بالاشهـاد والاتفـاق مـن اولـى السـداد

ثم تفرغ للسلطان أبى العباس الذى كان المقصود من هذا النظم ، كما المنصور المرينى مقصود المازوزى من نظمه فقال فيه :

فجـاء تابـع الملـوك الامـرا يسايـر الزمـان حيثمـا سـرى
وهـو امـام طـالب للعلـم والاخـذ بالثـار رئيـس القـوم
الخـط كابـن مقلـة فى وقتـه والعلـم والحلـم يرى من سمته
أبـرع ممن ركب سـرج فـرس ومـن بأبـدع الحلـى يكتسـى
وسعـدت بسعـده الايـام ونصـرت بملكـه الانـام

.وهكذا نجد فى هذه المنظومة اخطاء نحوية وعروضية وغيرها ، وهى على كل حال من الآثار التى يستفيد منها التاريخ أكثر من غيره وان كان يوجد فيه من الخلاف ، أنه ذكر فى أبى حسون موته بالسجن ، الذى سجن به بعد خلعه ، بينما نجد فى التاريخ أنه رجع الى الملك بعد قتل ابن اخيه أبى العباس المذكور . وهو الذى اخرج محمد الشيخ مـن فـاس بمعونة الاتراك فهل كان هذا غيره ، أم ان الكراسى مخطىء فى ذكره لموته؟

لقد عاش الكراسى حتى شهد مقتل أبى العباس وعمه الذى انتهت به دولة بنى وطاس وشاهد قيام دولة السعديين وتمكنها من السلطان وتوفى فى نفس العام الذى قتل به محمد الشيخ .

خصائص هذا العهد

وقبل أن نودع هذا العصر لابد أن نجمل حصائصه فيما يلى :

انه أدب علماء قبل أن يكون أدب أدباء ·

حقيقة ان هذا الحكم كان فى الامكان أن يطبق على العهد المرابطى ولكن طابع العلم لم يكن قويا بالقـوة التى عليها طابـع العهد المرينـى والوطاسى ·

وجدنا القاضى عياض يستغل النحو والعروض والهيأة والحديـث والفقه ، كما تقدم فى نماذجه الشعرية والنثرية ، كما وجدنا معاصره ابن زنباع يستغل بعضا من ذلك ، ولكنه على اقتصاد واقتصار ·

ثم وجدنا العصر الموحدى دون العصر المرابطى استغلالا لتلك العلوم والفنون خصوصا فى العهد الاخير منه بالرغم من أن هؤلاء كان بعضهـم من رجال الفقه كالاغماتى ·

أما العصر الذى تناولناه أخيرا فقلما يخلص أديب فيه لأدبه دون أن يطعمه باصطلاحات فيها علوم الاشتقاق والنحو وفيها الصرف والعروض (1) وفيها الحديث والفقه وفيها الميقات والمنطق وفيها البلاغة وضروب الفلسفة ·

على اننا ان قلنا الفقه فانه لا يقتصر على ما عرف منه فى العهـود السابقة بل تسلطت عليه المسطـرة القضائيـة والاجراءات العدليـة والمواريث والتركات وما الى ذلك كله من عقود وشهود وتلقى وتلقين ·

وما تنفس ابن الخطيب بمثلى الطريقة فى ذم الوثيقة الا وهو ضائـق بهذا الوضع الذى كان عليه مثل القباب وغيره كما أن ابن الاحمر بعـده لا يفوته أن يشير الى ذلك فى كتابه « مستودع العلامة ومستبدع العلامة » بصفة خاصة وقد شاعت المولديات شيوعا غطى على كل ما عرف أواخـر العهد الموحدى وانجر الى توقير أهل البيت وتعظيمهم من الدولة وغيرها وان حمد بهذا العصر ما حمد فانما هو فى الابتعاد عن المبالغات المفرطة والاساليب

---

(1) أول من أستغل العروض والقوافى واصطلاحهما من الاندلسيين فى أشعاره ابن عبد ربه ·

الصاخبة والاقتصاد فى الالوان البديعية المختلفة مما أخذ به السابقـــون انفسهم وما افترضه الكتاب خلية يجب التحلى بها فى النثر خاصـــة وفى الرسائل السلطانية بصفة عامة ٠

غير هذا فقد وجدنا الغزل الشاذ يطل علينا من شرفاته ونوافذه ، كما وجدنا الخمريات تقتحم الميدان فى غير تهيب أو تستر وهذا كانـــت له بوادر ضعيفة فى العهد الموحدى ، ولم نعرف الخمريات منها الا عند أبى ربيع سليمان الموحد ، كما أن وصف المبانى والقصور ومناظر الطبيعة ومشاهد الأحداث برع شعراء هذا العهد ، وهذه الدولة التى كانت تشجعها ٠

زيادة على هذا شاعت الموشحات ونظم فيها السبتيون والفاسيون خاصة وقوى أدب الرحلات التى أقبل عليها من سبتة ابن رشيد ومن طنجة ابن بطوطة ومن الجنوب العبدرى ٠

كما ظهرت المقامات لأول وهلة فى ادبنا ٠

وظهر ادب الطرق المتصوفة بأوراده وتوسلاته ٠

كما ظهر ادب المقاومة والجهاد الداخلى ضد النصارى المتكالبين علينا واشتد أصر المولديات فصارت الدولة تقيم لها الحفلات الهائلة وتنشد فيها القصائد الطنانة التى تذكر بها ملوك الوقت ويشاد بأعمالهم وينوه بكرمهم ويرفع من ذكر آبائهم وأجدادهم ٠

وظهرت كذلك المنظومات فى شتى الفنون والعلوم من تاريخ الـــدول والبلاد وعلوم الدين والرياضيات وغيرها ٠

وقوى النشاط فى التأليف لمختلف الموضوعات من تراجم وتاريـــخ وجغرافية ومنطق وأخير نذكر بما امتاز به هذا العهد المراسلات السلطانية التى كانت بينه وبين الشرق العربى وخصوصا مصر وملوكها المماليك ٠

هذه معالم الأدب المرينى والوطاسى وسنراها تقوى فيما بعد ويتجاذب الشعراء والأدباء عامة خيوطها ويتعاورون مطاياها فى قصائدهم وموشحاتهم ورسائلهم ٠

ملحق بالعهد المريني الاول

مستفاد الرحلة والاغتراب

للقاسم بن يوسف التجيبي السبتي

وهذه رحلة أخرى انطلقت من سبتة الى الديار المقدسة ، فى العصر الذى كانت رحلة ابن رشيد ، انطلقت من نفس المدينة والى نفس الغاية ، وكان العنوان ، يحدد المقصود منها بالتسجيل ، وهو ما استفاده مؤلف الكتاب ، من لقاءاته بالعلماء ، كما كان عنوان رحلة ابن رشيد ، يفصح عما امتلأت به عيبتها ، طول غيبة صاحبها ·

ومن هذا المنطلق ، ابتدأ المؤلف يسجل ثبتا ، ضم عدة علماء اجتمع بهم غالبا بالقاهرة ، فأخذ عنهم مرويات وأسانيد انصب جلها ، على الأحاديث والآثار النبوية ، التى كان ضلع المؤلف على وفرة منها ، فكان تناوله يلتزم طريقة المحدثين فى تلقيهم للروايات والنص على مستنداتها المختلفة ، وعلى مصادرها بكتب الحديث المتنوعة ، ومن الذين تلقى عنهم آخرون بالحرم ، وبغيره ·

وقد تسلط المنهج الحديثى على المؤلف ، وتحكمت فيه الروايات وطرقها ، بصرف النظر عن غيرها ، حتى ولو كان ما تحمله تلك الروايات لا يبعث على الاطمئنان ، ولا يثبت للعقل ، ومقتضيات الطبائع للحياة ، من ذلك بعث والدى النبى عليه الصلاة والسلام ، فى حياته من الرسالة الاسلامية ، ليؤمنا برسالته ، ثم يعودا الى لحدهما ، فقد ساق ما روى فى ذلك ، ولكنه عقب عليه ، بما روى خلافه ·

ومن المفيد ان ناتى بما ورد فى ذلك ، وكنموذج لطريقة التحمل ، التى عمل بها المؤلف ، متميزا بذلك عن ابن رشيد ، يقول : « ومن غريب ما وقع الي ، ان أم النبى ، صلى الله عليه وسلم ، التى ولدته ، وهى آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، أحياها الله تعالى ، بعد موتها ، فآمنت بالنبى ، صلى الله عليه وسلم ، ثم ردها ، اخبرنا بذلك الشيخ الامام الفاضل ، عمدة المجاورين ، رضى الدين أبو اسحاق ، ابراهيم بن محمد بن

ابراهيم ، الطبرى ثم المكى ، بقراءتى عليه بالمسجد الحرام ، تجاه الكعبة المعظمة ، فى شهر ذى قعدة ، من سنة ست ، قال : اخبرنا الشيخ الامام الأوحد ، مفتى الحرمين ، محب الدين أحمد بن أبى عبد الله الطبرى ، قراءة عليه منى ، قال : أخبرنا بذلك الشيخ الصالح أبو الحسن علي ابن أبـى عبد الله ابن المقير ، قراءة عليه بالمسجد الحرام ، وأنا أسمع سنـة ست وثلاثين وستمائة ، قال : أخبرنا الشيخ الحافظ أبو الفضل ، محمد بن ناصر السلامى ، اجازة ، قال : أخبرنا أبو منصور ، محمد بن أحمد بـن علي بن عبد الرزاق ، الحافظ الزاهد ، قال : أخبرنا القاضى أبوبكر محمد بن عمر بن الاخضر ، قال : حدثنا محمد بن يحيى الزهرى، قال : حدثنا عبد الوهاب بن موسى الزهرى ، عن عبد الرحمن بن أبـى الزناد ، عن هشـام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، نزل الحجون ، كئيبا حزينا ، فأقام به ما شاء الله عز وجل ، ثم رجع مسرورا ، قال : سألت ربى عز وجل فأحيا لى أمى ، فآمنت بي ثم ردهـا » .

قلت : وقد أجازه أبو الحسن ابن المقير المذكور ، لشيخنا رضى الله عنه المذكور ، والله تعالى ، قادر على كل شىء ، وليس تعجز رحمته وقدرته عن شىء ، ونبيه ، عليه السلام ، أهل أن يخصه بما شاء من فضله ، وينعم عليه بما شاء من كرامته ، صلى الله عليه وسلم ، وقد روى أيضا ، ان الله تبارك وتعالى ، أحيا له أباه ، عبد الله ، فآمن به ، وروينا ما يـدل على خلاف ذلك ، فى صحيح مسلم ، والله تعالى أعلم .

واذ كان العصر ، عصر تغلغل المتصوفة ، فى العقول ، وفرضهـم لأمشاج من الطقوس ، منها لبس الخرقة الصوفية ، فانه فى هذا يقول : « لقي (الموفق الخراسانـى) الشيخ الفقيه الامام الفاضل المفتـى بهاء الدين ، أبا الحسن ، علي بن هبـه الله بن سلامة بـن المسلم ، بن أحمد بن علي اللخمى الشافعى ، المعروف بابن الجميزى ، ولبس منه الخرقة ، خرقة الطريق والتحقيق ، وسمع منه الحديث ، وأجازه ، ولبس ابن الجميزى ، الخرقة ، من الامام أبى طاهر السلفى ـ رحمه الله ـ قال : البسنيها الامام أبو احمد ، حمد بن عبد الله ابن حنة المعبر ، امام الجامع الكبير ، باصفهان ، بحضور والدى الزاهد الشهيد ، ـ رضى الله

عنه — قال : البسنيها السيد الشريف الامام الكبير ، حمزة بن على بن العباس ، المعروف بابن برطله ، عند قدومه من سفره ، قال : ألبسنيها السيد الشريف الزاهد رئيس أهل الطريقه فى وقته، ومقدم طائفة الصوفية فى زمنه، أبو هاشم العلوى ، قال : ألبسنيها الامام الكبير الصدر أبو الحسن أحمد بن محمد بن عمر بن أبان اللبنانى ، والد معمر ، وشيوخ عدة ، فمن أشهرهم سليمان بن أحمد الطبرانى ، وأبو محمد عبد الله بن جعفر بن حيان ، وأبو محمد عبد الله بن فورك ، المقرىء ، وأبوبكر محمد بن ابراهيم بن عاصم المقرىء ، وغيرهم ، قال سليمان بن محمد بن أيوب الطبراني ، قال : ألبسنيها الشيخ أبو القاسم الجنيد ، قال : ألبسنيها سرى اليقطي ، قال : ألبسينها معروف الكرخى ، قال : ألبسنيها داوود الطائى ، قال : ألبسنيها حبيب العجمى ، قال : ألبسنيها الحسن البصرى ، قال : البسنيها أمير المؤمنين ،علي بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، قال البسنيها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم (1) ·

قلت : قد تقدم فى تقييدنا هذا ، فى ترجمة الزاهد أبي محمد الخلاسى ، رحمه الله ، ذكر هذا السند فى الخرقة ، والتنبيه على مخالفة المحدثين للصوفية ، فى سماع الحسن من علي ·

وهكذا نجده لا يضحد القضية ، من أساسها ، بل من حيث السند فى الروايـة ·

والذى استفدناه من هذا أن السلفى الذى كان له تاريخ حافل مع المغاربة ، وعلى رأسهم القاضى عياض ، كان من هؤلاء الصوفية أصحاب الخرق ومخارقها ، ولا يستغرب هذا فى ذلك العصر الذى اختلط فيه الحابل بالنابل ، وكان يطفح ، بمثل الغزالى ، موسوعة القرن الخامس والذى كان على صلة بالمرابطين ، أو ادعى له ذلك ، فالنتيجة واحدة ، هى أن شطحات المتصوفة ، كانت حلقات العلم تحيط بها ، أو كانت هى تحيط بهذه الحلقات

---

(1) مسألة لبس الخرقة الصوفية ، شاعت بينهم ، وادعوا — كما رأينا — أنها تقليد ، ينتهى الى النبى ، عليه الصلاة والسلام ، كما اعتقدوا كون التصوف نفسه ، منه كذلك ، وفى الادب الفارسى ، نجد حافظ الشيرازى يقول :

حافظ بخود نبوشيد   ايـن خرقة ماى آلود
اى شيخ پاك دامن   معذور دار مارا

ترجمت البيتين هكذا :

حافظ من ذاته ليس يرتدى   خرقته قد لطخت بصرخد
يا أيها الشيخ النظيف الذيل   معذرة فلا تحد بالميل

العلمية ، وهكذا وجدنا فى القرن السادس ، القاضى عياض تتمثل فيه موسوعته ، بكل أبعادها ، بل ربما كانت أوسع من التى تمثلت فى الغزالى ، بالقرن الخامس ، كما تقدم ·

وفيما يتصل بالعلماء ، الذين اخذ عنهم فى هذه الرحلة ، التى اتخذت عنوانها مما استفاد منهم ، نذكر أولا هؤلاء الذين جالسهم بمصر :

1 ــ تقى الدين ابن دقيق العيد ، وهو من العلماء المعروفين جدا ، للمغاربة ، وكان من كتبه ، ما قرر بالقرويين تدريسه منذ الثلاثينيات حلاه المؤلف بقوله « امام الايمة ، العالم العلم ، الورع الكامل ، نخبة الفضلاء علما وحلما ، مظهر معانى العلوم استنباطا وفهما ، والمحتوى على عمدة أصولها وفروعها حفظا وحكما ···· احد أيمة المسلمين ، المجمع على امامته وتقدمه فى المعارف كلها ، بلغ درجة الاجتهاد ، حاز السبق فى معرفة الفقه والاسانيد والمتون ، ووعى جميع الفنون ، وأفتى فى المذهبين المالكى والشافعى ، واقرأ الحديث « بالكاملية » وتولى قضاء قضاة الشافعية بالديار المصرية ، فحمدت سيرته ، وشكرت طريقته ، وحظى الحظ الاوفر من المعقولات والادبيات ، وغير ذلك ، وقد اتفقت الالسنة على الثناء عليه ، والمدح له ·

والناس أكيس من أن يمدحوا رجلا حتى يروا عنه آثارا واحسانا

ثم قال : ولم أر فى كثير ممن لقيت ، من يقاربه فى معارفه ، ولا رأيت أجمع لفنون العلم منه ، وما وصف لى رجل الاوجدته دون ما قيل لى ، الا تقى الدين هذا ، نفع الله به ، وكان كما قال الشاعر :

وكان من العلوم بحيث يقضى له فى كل علم بالجميع

وبعد كلام قال : وأول ساعة لقيته ، كانت فى ليلة السبت ، السادس لجمادى الاولى ، من سنة ست وتسعين وستمائة ، وهذه الليلة كانت أول ليلة بت فيها بمدينة القاهرة ــ حرسها الله تعالى ــ وهذا الامام الفاضل هو أول شيخ لقيت بها ، استاذنت عليه فى دارة التى يسكن بها ، وهى قاعة دار الحديث الكاملية ، ليلا ، بعد علمى بقعوده ذلك الوقت مع طائفة من طلاب العلم ــ كثرهم الله تعالى ــ فأذن لى ، وتلقانى ــ رضى

الله عنه ــ أحسن لقاء ، ورحب بي وبالغ فى تأنيسى ، وسألنى عن جهة قصدى ، فأخبرته أن معظم أملى ، الوصول الى بيت الله الحرام ، لأداء فريضة الحج ، جعل الله ذلك خالصا لوجهه الكريم ، فدعى لى بخير وقاله ، ثم أثنى على أهل المغرب جملة ، وقال : أنا أحب المغاربة واعتنى بهم ، وأسميهم عشاق مكة .... (قشيرى النسب ، منفلوطى الاصل ، ينبعى المولد قوصى قاهرى) .

2 ــ عبد المومن التونى حلاه بالشيخ الفقيه ، الامام جمال الاسلام ، بقية الحفاظ الاعلام ، الجهبذ الاثير ، المحدث الكبير ، صيرفى الاخبار ، وعمدة الامصار ، خاتمة المسندين ... أحد أيمة الحفاظ المشهورين بالثقة والضبط والاتقان ، ذاكر للاسانيد والمتون ، بصير بتعديل الرجال وتجريحهم ، ومواضعهم من البلدان وغيرها ، محيط بمتشابه أنسابهم ، عارف بالاسماء والكنى والتواريخ والمواليد والوفيات وأحسبه فى زمانه كالدارقطنى فى زمانه ، وقد اشتهر فى الاقطار بالاحاطة بعلم الانساب ، لا أعلم على البسيطة من يقاربه فيه .... (1) .

وهو من أشد الناس تواضعا ، وأحسنهم مجالسة ، وأملحهم مجاورة ، يملي الحكايات الحسنة ، والاشعار البديعة ، من حفظه ، ويستولى على المجالس بحسن أحاديثه ، وغزارة رواياته ، وقد أحبته الخاصة والعامة ، وهو يبر الغرباء ، ويدنى منازلهم ، ويجيب سائلهم ، ويرعى وسائلهم ... ويذكر اللغة ذكرا جيدا ، ويقرض الشعر .

وسمعت عليه أحاديث من صحاح الامام ، أبى الحسن مسلم بن الحجاج ــ رحمه الله ــ وسمعت عليه غير ذلك ، وأرانا أربعين (2) أبى

(1) قال المؤلف فى تونة المنسوب اليها المترجم له : « تونة بليدة من بحيرة تنيس ، وهما قريتان من دمياط » ثم ذكر محترزا « البونى » و « البوقى » و « البونيتى » و « التوثى » و « التوبى » و « النوبى » و « اليوبى » . فبونة بساحل افريقية وابن بونة هو جد أبى العباس الاصفهانى ويذكر بالبونى أيضا حفيده . فهو من أقسام المتفق المفترق . وأما بونت فهو بشرق الاندلس . وتوثة محلة ببغداد ، وقرية من قرى مرو ، وبوشيخ . وباسفراين أخرى يقال لها « التوث » والنسبة واحدة : فهو من المتفق المفترق أيضا « ذكر هذا كله المؤلف وأتى بعلماء وأدباء من كل » .

(2) أحاديث « الاربعين البلدانة » عرفت فى القديم والحديث ، فمن أوائلها « الاربعين النووية » ومن أواخرها « الاربعين الفاسية » التى نشرت فى الخمسينيات ، من هذا القرن الميلادى ، وقد صارت كلمة « الاربعين » كأنها علم على هذا النوع من الأحاديث ، ولهذا وجدناه ينسبها الى السلفى بغير ما يحذف النون ، حسب ما تقضى به قاعدة الاضافة .

طاهر السلفى البلدانية ، وقال : ارووها عنى بهذا السند ، وكتبه لنـــا بخط يده المباركة (ثم ذكر نص الرواية) ٠

ومما أخبره به شيخه التونى ، من مروياته ، قول الشافعى : مجيبا لمن سأله فى مرضه الذى توفى منه يومه : كيف أصبحت ؟ بما أجاب ، ثـم أنشد مناجيا :

ولما قسا قلبى وضاقت مذاهبـى ... جعلت الرجا منـي لعفوك سلمـا
تعاظمنـى دنبـى فلمـا قرنتـه ... بعفوك ربي كـان عفوك أعظمـا
وما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجـود وتعفـو منـة وتكرمـا
ولولاك لـم يغو بابليـس عابـد ... وكيف وقـد أغوى صفيك آدمـا

ثم ذكر للتونى عدة مقطوعـات ، وأبيات ، فى الحديـث وعلمه ، والاستغفار ، والادلال بنفسه ، حيث يقول :

اذا احتبيت تجاه الركن يحدق بي ... افاضل الناس من شام ومن يمـن
ذوو محابر أعـداد النجوم ومـن ... قد آثر السفر المضنى على الوطن
أظل أنشدهم شعـرى وأخبرهـم ... بما سمعت مـن الآثار والسنـن
موثقا عـدل أهليها وأجرح مـن ... تكلموا فيـه فى ماض من الزمـن
أروى الأحاديث عن ثبت أخى ثقة ... أقـول حدثنـى شيخى واخبرنـي
وأشبع القول فى ايضاح غامضها (1) ... وحل معضلهـا جريا على السنـن
خطـت على جبهـة الأيام خالدة ... « تلك المكارم لا قعبان من لبن »

قال المؤلف : سألت شيخنا ... أن يجيز جميـع رواياته لجميـع أهل سبتة ، الكائنين بها ، فى جمادى الاولى من سنة ست وتسعـين وست مائة ، ففعل وتلفظ بذلك ، والحمد لله ٠

وهو نص مفيد من حيث هؤلاء الذين كانوا يخصون قومهم السبتيين ومن حيث اعتزاز هذا السبتى ببلدييه من سبتة المحبوبة ٠

---

(1) بالاصل المطبوع « معضلها » ولعل الصواب ما أثبتناه استظهارا ، كما أن فيه أخطاء فى الابيات مثل اذا اختبيت ؛ تنكبناها ٠ وفيما عداها ، فقد ورد فيما أتينا به هنـا « ويرعى عن وسائلهم » فحذفنا « عن » اذ لا وجه لها ، وتخل بالانسجام فى السجع ومن مروياته الشعرية الجميلة ، أبيات وقطع أجملها ما ذكر لأبى الوفا الموصلى ٠

3 ــ بهاء الدين ابن النحاس ، حلاه بالشيخ الفقيه الرئيس الفاضل ، الصدر الكبير الامام الكامل ، حجة العرب ، وعمدة أهل الادب ... شيخ البلاد المشرقية قاطبة فى علم اللسان ، والمقر له فى ذلك بالاجادة والاحسان ، سابق غايات العلوم ، وسائق رايات المنثور والمنظوم خالب درر فصاحة اللسان ، وخالب درر ملاحة البيان ، الذى لم أر بالحجاز الشريف والشام ، والثغر والمصر والقاهرة والصعيد الأعلى ، وكثير من بلاد الاسلام ، من يقاربه فى التحقيق لصناعة العربية ، والتدقيق لغوامضها ، والاستبحار فى علم اللسان العربى ، ممن له النظم الجيد ، والنثر الرائق ، وهو أحد رجالات الكمال فى ذلك ، حافل الادب ، جامع لفنون من الطلب ، ويحل كتب « اقليدوس » ولم يتفق لأحد فى وقته ما اتفق له ، من الذكر الجميل الشائع ، والصيت البعيد ، لأنه كان لكبار العلماء فى زمنه فى اللسان العربى استاذا ، ولسائر طلاب العلم مجمعا وملاذا (1) .

ثم قال : نزل شيخنا بهاء الدين هذا الى القاهرة اثر خروجه من حلب ، عند وقعة التتار بها .... سنة ثمان وخمسين وستمائة ، فعرف بها قدره ، واشتهر أمره ، وعظم جاهه ، ونزلته الخاصة والعامة منزلة لعلمه ، ورئاسته وكثرة فضله ....

قرات عليه بمنزله من القاهرة المعزية ، حاضرة الديار المصرية (وأفاض فى مختلف العلوم والفنون التى قرأها عليه المؤلف ، كما روى عنه) وختم ترجمته الحافلة بقوله : مولده سنة سبع وعشرين وستمائة ، بمدينة حلب ، فى يوم الاربعاء ، آخر يوم من جمادى الآخرة ، وبلغنا أنه توفى بالقاهرة المعزية ، حاضرة الديار المصرية ، فى يوم الاربعاء ، من سنة ثمان وتسعين وستمائة ، وان جنازته كانت مشهورة ، لم يتخلف عنها عنها أحد ، وأن جميع دروس المدينة بطلت يوم دفنه ، رحمه الله تعالى :

---

(1) تقدم ما كان له مع ابن رشيد ، وما كان لهذا نحوه من التعظيم والمهابة ، وأنه كان يجل ابن أبى الربيع ويعتبره من اساتيذه بسبب تأليفه ، أما أستاذيته لغيره ، فان ابن حيان ، كان من تلاميذه ، وكان من الآخذين للعلم عن هذا ابن هشام العظيم فى علم اللسان والذى نوه بتاليفه ابن خلدون فى مقدمته ، وجعله من كبار النحاة ، بل أنحى من سيبويه ، وهى شهادة معاصر له ، وكفى بها أن تكون من ابن خلدون ، الذى لم يقل بمثلها فى احد من معاصريه . ومن التصحيف بالترجمة « خالب درر » .

4 — الضياء الصوفى السبتى ، حلاه بالشيخ الفقيه الحافظ الصالح الخير ، أبو الهدى عيسى بن يحيى .... المنعوت بالضياء ، والمعروف بالصوفى السبتى أيضا ، كان رحمه الله شيخا فاضلا مقتصدا ، سليم الصدر ، حسن اللقاء والبشر ، تبدو عليه سيماء الخير ، ثم قال : قرأت عليه رحمه الله ، بالمدرسة الظاهرية ، من القاهرة المعزية ... بمحضر شيخنا ... التونسى ... وأجازنا جميع مروياته ... وكتب لنا هذه الابيات بخطه :

أجزت لمن سمى بها ما تجوز لى	روايته بالشرط فى كل مسند
تلفظت نطقا بالاجازة معلنا	وكاتبه عيسى بن يحيى بن أحمد
ولدت بعام من ثلاث وعشرة	وست مئين هجرة لمحمد
تصوفت قدما بالحجاز واننى	بمصر هو المربى وسبتة مولدى

وبعد ما أتى بأخبار وروايات حديثية تلقاها عنه ، ختم ترجمته له بقوله : توفى الشيخ الصالح الزاهد ، أبو الهدى السبتى ، رحمة الله عليه ، بالقاهرة المعزية فى شهر رجب الفرد من سنة ست وتسعين وستمائة ، وقد تقدم فى أبياته تاريخ ميلاده .

5 — الموفق الخراسانى ، حلاه بالشيخ الصالح الزاهد العابد المتبتل ، المنقطع الى الله تعالى ، ثم ذكر أنه تلمسانى المولد ، قاهرى المنزل ، وأن أباه أحمد بن ابراهيم ، خرج من خراسان وجال فى الارض ، الى أن وصل الى مدينة تلمسان ، من مدن المغرب الاقصى ، فولد له ابنه هذا ، ثم انتقل الى القاهرة واشتغل بالفقه والحديث ، ثم مال الى التصوف ، وصنف فيه أزيد من عشرين تصنيفا ، وانه لبس الخرقة التى تقدم ذكرها ، من ابن الجميزى .

وبمناسبة هذه النسبة ، ذكر أن الجميز المعروف فى مصر ، نقل من فاس ، الى الاسكندرية ، وأنه كان سام الطعم ، فنقل الى الاسكندرية أولا وعولج الى أصبح من الفواكه المشتهرة فى مصر عامة ، (وقد أكلناه ، بعد العزوف عنه ، مدة مديدة ، ولكننا استطعمناه بعد)

قال : قرأت عليه الجزء الثانى من حديث سعد بن نصر ... وقرأت

عليه جزءا فيه مساواة أبى سعيد المسعود ... (واطال فى ذكر الروايات والاسانيد واختلافاتها) .

6 — النور على بن هارون ، حلاه بالشيخ الاجل الصالح الثقة المسند العدل ، أبو الحسن على بن هارون بن محمد الثعلبى ، الشامى ، ثم الدمشقى ، نزيل القاهرة المعزية (1) المنعوت بالنور ، شيخ صالح مسمت ، حسن اللقاء ، يبدو عليه أثر الخشوع ، وسيماء الصالحين ، نفع الله به وبأمثاله .

وفى هذه الترجمة ، ذكر أنه تلقى بدمشق عن بعض رجالها الحديث الآتى فقال : واخبرنى رحالة العصر أبو حفص بن عبد المنعم ، قراءة عليه ، وانا اسمع بدمشق :

« ان الرحم اشتقت من الرحمن ، معلقة بالعرش ، بسلسلة ، تنادى كل يوم خمس مرات ، صل من وصلنى واقطع من قطعنى »

هكذا ورد هذا الأثر ، على سلامة صدر من هؤلاء الرواة ، وفى رواية له سابقة نحو هذا الاشتقاق . والمتبادر من طبيعة النشأة للغات ، العكس ، فيكون الرحم الاصل ، الدال فى مادته على السعة ، قال تعالى « ورحمتى وسعت كل شىء » (2) .

7 — الشرف ابن الصيرفى ، قال فيه : الشيخ الاجل الصالح الثقة ، الضابط المتقن المفيد الكامل ، أبو محمد الحسن بن على بن عيسى بن الحسن بن على اللخمى الشافعى المصرى ثم القاهرى ....

قرات عليه جزءا فيه عوالى وأبدال وموافقات ، منتقات من حديث أبى

---

(1) كانت الهجرة من الشام ، عامة ، الى مصر لهذا العهد ، طافحة بالجماعات والافراد ، اذ كان الغزو التترى ، يدق الابواب ويخرب الديار وسبق فى ترجمة ابن النحاس ، أنه كان ضمن هؤلاء المهاجرين ، فكان الوضع المؤلم ، كما نتصوره الآن فى هؤلاء اللاجئين الفلسطينيين ، الذين سلط الله عليهم ، كلاب النصارى واليهود ، فلعل الله يعيد عليهم كرة الهزيمة ، التى أصيب بها أولئك الغزاة المخربون ، بعين جالوت.

(2) كان أستاذنا الخولى ، يجعل « أولو الارحام » من قبيل الاستعمال الفطرى ، ولهذا فان عصر التمدن ، لا يسيغ استعماله الآن ، أو كما قال ، رحمه الله ، ونبهنى الى كون الاصل فى المادة السعة ، الرئيس عبد الكريم جاسم ، فى كلمة ألقاها ، بين جموع المشاركين فى العيد الالفى بعد المائة لبغداد ، وذكرى الفيلسوف الكندى .
ومهما يكن فالرحم الماخوذ من السعة سابق على الرحمن ، بدليل الآية المستانس بها .

عبد الله محمد بن يحيى الذهلى ، وبعد ما أورد رويات واخبارا ، قال : أخبرنا الامام شرف الدين ، أبو محمد القاهرى ، فيما شافهنا به من اذنه بها ، قال أخبرنا فلان ، قال أخبرنا فلان ، قال أخبرنا فلان ، قال أخبرنا فلان ، قال أخبرنا فلان ، قال أخبرنا فلان ، قال : حدثنا يعقوب بن محمد بن صالح الكربزى ، قال ، حدثنا عبد الجليل بن الحسن ، قال ، أنشدنى أبو هاشم القدندى الليثى :

اجل من جفاه الالف فاضت دموعه | وآذنه بالبين منه هجوعه
تولع بالوصل الصدود وقلما | رأيت صدودا لا تتم ولوعه
فذاك فتى لوجئت تطلب بعضه | تناثر منه بعضه أو جميعه

وبعد ما ساق مرويات أدبية من الشعر ، قال :

وانبأنا ايضا بالمعزية ، حاطها الله تعالى ، قال ، أخبرنا الامام أبو الحسن الشافعى ، بقراتى عليه ، قال ، أنشدنا العلامة الفاضل البارع أبو العباس ، أحمد بن على بن عبادة ، اللغوى الاندلسى ، لبعضهم :

ولما وقفنا غداة الوداع | وقد أسقط البين ما فى يدى (1)
رايت الهوادج فيها البدور | عليها البراقع من عسجد
وتحت البراقع مقلوبها | تدب على ورد خد ند
تسالم من وطئت خده | وتسلع قلب النجي الا بعد
تحامى عن الورد ان يجتنى | وقد منع الورد من معتد
فلا تك فى قطفه طامعا | فباللحظ يقطف لا باليد

وقد أكثر فى هذه الترجمة من الروايات الشعرية ، فى موضوعات مختلفة من غزل وحكم ونصائح .

8 ــ ابن خليفات الشجاع ذكره بقوله : الشيخ المبارك ، أبو محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم ، ابن خليفات القاهرى ، المنعوت بالشجاع شيخ لا بأس به وبسيرته ، مقل فى الحديث ، مكثر من الحب فى أهله ، ملازم لخدمة المشايخ وأهل الخير .

(1) بالاصل : ولما وقفنا غداة الوداع وقد .

لقيته عند شيخنا العلامة النسابة ، شرف الدين التونى ···· أخبرنا بقراءتى عليه بالمدرسة الظاهرية ···· (وذكر له أسانيد) وكرر ذكر الاخبار عنه ، فقال : اخبرنا ··· بقراءتى عليه بالمدرسة الظاهرية (فذكر الخبر به) ثم قال ايضا : اخبرنا ··· بقراءتى عليه بمدرسة الملك بيبرس ···· وعاد فقال : اخبرنا بقراءتى عليه ···

وهكذا تكرر الأخذ عنه اخبارا ، بعد ان ذكر أنه وقفه على نسخة من مشيخة الامام الفاضل ، زين الوعاظ جمال الدين ، ابن الجوزى

9 ــ النور اليمنى ، قال فيه ، صاحبنا الشيخ الفقيه المحدث ، الفاضل المتقن المتفنن ، أبو الحسن على بن جابر بن على بن موسى القرشى ، ثم الهاشمى نسبا ، الحجازى ثم المكى مولدا ، اليمنى المربى ، القاهرى المنزل ، المنعوت بالنور ، المعروف باليمنى ، أحد النبلاء الافاضل ، المعروفين بقراءة الحديث ، المشهورين بذلك ، ممن يختار للقراءة بين يدى المشايخ ، الفضلاء الأكابر ·

وبعد ذكره لسماعات قال أخبرنا صاحبنا الشريف الفاضل ···· وكرر هذا ، فقال ، أخبرنا صاحبنا الامام الفاضل ··· فى المدرسة الظاهرية ··· سنة ست وتسعين وستمائة قال انشدنى ابو عبد الله محمد بن عبد القدوس ، الفقيه الأديب الشافعى ، بظفار من اليمن :

اقسم بالله وآياته ومشعر الخيف وميقاته (1)
ان الحريرى حرى بان نكتب بالتبر مقاماته

ثم ذكر أنه أنشد من نسى أن يثبت اسمه :

وقد يدرك المرء الخمول فيختفى وان كان فى جمع من الناس حاضرا
ويحسب فى الغياب وهو جليسهم وينسى اذا ما جاء للقوم زائرا

10 ــ أبو حيان ، قال فيه : صاحبنا الفقيه النبيل ، الامام النحوى ، الاديب الجليل ، أبوحيان محمد بن يوسف ، بن حيان الشافعى الأثرى ، الحيانى ثم الجيانى ، نزيل القاهرة المعزية ، المنعوت بالاثير ، أحد

(1) بالأصل « ومرقاته » ثم « تكتب بالتبر » ·

الفضلاء ، المعروفين بعلم العربية ، والتحقيق لغوامضها ، والتفنن فيها ، مع المشاركة فى فنون من الادب ، ممن يقرض الشعر ويجيده ، مع براعة الخط ، وطيب النفس .

سمع كثيرا من مشايخ مصر والقاهرة ، واعاد لشيخنا الامام بهاء الدين ، أبى عبد الله محمد بن ابراهيم ابن النحاس ، رحمه الله بالتربة المنصورية ، من القاهرة المعزية (1) وشهد عند قاضى القضاة شيخنا الامام تقى الدين ، أبى الفتح محمد بن على القشيرى ، رحمه الله ، المعروف بابن دقيق العيد وهو أحد العدول المبرزين بالقاهرة ، حرسها الله تعالى ، وانشدنا صاحبنا الفقيه الامام ، الفاضل المتفنن ، اثير الدين ، أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الاثرى ، الحيانى ثم الجيانى ، بدكانه الذى يعقد فيه الشروط ، من القاهرة المعزية ، بمقربة من مشهد الحسين ، عليه السلام ، بلفظه لنفسه ، وكتب لنا بخط يده :

تمتع بـه لدن العواطـف أهيفـا ... يسيفك من عذب المراشف قرقفـا
هو الشمس لكن ليس فيه تأنـث ... هو البـدر الا انـه ليس اكلفـا
مجـذ بلحـظ جـاذب لقلوبنـا ... ولين لفظ قلبـه اشبه الصفا (2)
تولد بين الترك فى مصر فاحتـوى ... الى لطفه حسنا به صار يوسفـا
رياض جمـال وجهه فلذا تـرى ... بـه نرجسا غضـا ووردا مضعفا
يحارسه مـن رائد القطف أرقـم ... مـن الشعر مـا يهتز الا لينقفـا
محاسنـه تكفيـه حمل سلاحـه ... الم ترها فى القلـب أنفذ مصرفـا
فمن لحظـه الوسنان سل مهنـدا ... ومـن قده الهيفـان هـز مثقفـا
نعمنـا به ضمـا وشما ولم نبـل ... أجار زمان مع سوانا أم انصفـا
وما العيـش الا خلة من ممنـع ... يبيحك ما تهوى عناقا ومرشفـا

وانشدنا أيضا بلفظه لنفسه ، وكتب لنا ذلك بخط يده :

راض حبيبـى عارض قـد بـدا ... يا حسنـه من عـارض رائـض
وظـن قـوم أن سـلا ... والاصـل لا يعتـد بالعارض (3)

(1) أقدم نص وجدنا فيه « المعيد » بالمعنى المعروف الآن ، وقد تقدم لنا ذكر أبى حيان ، فى التعليق ، بكونه من تلاميذ ابن النحاس . ولم يتنبه الناشر لترجمته فدمجه فى غيره .
(2) بالأصل « مجذب لحظ » ولعل الصواب ما أثبتناه ، على تكلف فيه .
(3) بالأصل « أن قلبى قد سلا » ولا يستقيم به وزن البيت .

وانشدنا ايضا بلفظه لنفسه ، من حفظه ، وكتب لنا ذلك بخطه ، من كلمة :

عجبت لخال حل فى وسط انفه ... وعهدى به وسط الخدود يرى وشيا
وحسن الفتى فى الانف والانف عاطل ... فكيف اذا ما الخال صار له حليا

وانشدنا ايضا بلفظه لنفسه من حفظه .... (بسبب ان زميلا فى الطلب ، يدعى البخارى ، كان يميل الى صباح الوجوه ، فكانوا اذا رأوا احدهم ، قالوا هذا على شرط البخارى ، فقال أبو حيان) :

بدا كهلال العيد عند طلوعه ... وماس كغصن الخيزران المنعم
مليح غريب الحسن وافى مواصلا ... موافقة منه على رغم لوم
غزال رخيم الدل اصبح معلما ... بحمرة خد بالمحاسن معلم
وقالوا على شرط البخارى قد أتى ... فقلنا على شرط «البخارى» «ومسلم»

وبهذا الأخير ، قال : انتهى ذكر من تيسر لقاؤه والاخذ عنه بالقاهرة المعزية ، ولكنه فيما بعد ذكر شيخه أبا المعالى الابرقوهى ، الذى كان من جملة من يسكن روضة ، روضات القرافة بالقاهرة ، بأنه المسند الاصيل المعمر الصدوق الرحالة المكثر ، الثقة العدل الرضى ... خاتمة المسندين الثقات ... ثم ساق جملة من مروياته ، منها اشعار ، لجده ولغيره ، كما ذكر انه لبس الخرفة المباركة ، خرقة الصوفية ، وذكر المشاهد التى زارها بالقاهرة ، وقرية الجيزة منها ، ومقياس النيل والاهرام ، وأبو الهول ، الذى أنشد بمناسبته ، شعرا للبريانى ، فى الصنم الذى كان بشاطبة ، وهو قوله :

بقية من بقايا الروم معجبة ... ابدى البناة بها من علمهم حكما
لم ادر ما اضمروا فيه سوى أمم ... تتابعت بعد سموه لها صنما
كالبرد الفرد ما اخطا بشبهه ... حقا لقد برد الايام والامما
كأنه واعظ طال الوقوف به ... فجا يحدث عن عاد وعن ارما
فانظر الى حجر صلد يكلمنا ... اشجى وأوعظ من قس لمن فهما

كما ذكر منية الخصيب ، ومن المدن أيضا أسيوط واخميم ، التى ذكر عجائب من بناياتها وهياكلها « عتيقة البناء ، قديمة أزلية ، وبها آثار للاول

تدل على قدمها ، منها الهيكل العظيم الشان ، القديم البنيان ، المعروف بالبريا ، وهو احد عجائب هذا العالم ، مشهور فى الدنيا ··· هيكلا عجيبا يكاد الفصيح اللسن أن يعجز عن وصفه ، لما احتوى عليه من الغرائب والعجائب ، وهو سبع بلاطات ، كل بلاط منها قد قام على عدة من السوارى الهائلة العظيمة ، وكل سارية منها مؤلفة من عدة قطع ، قد ركب بعضها فوق بعض ، وألصقت كل قطعة مع التى تليها أبدع الصاق ، حتى يخيل للناظر اليها أن جميعها قد افرغ من قطعة واحدة ، ولم يتخلل القطع ما يعين على الصاقها ، وانما أطبعت بالنجارة المحكمة التى لا يكاد يتأتى مثلها فى الخشب ، وهى ثمانية وثلاثون سارية ، كلها مناسبة بعضها لبعض ، فى العظم وحسن الصنعة ··· ولكل واحدة منها راس منحوت محكم الصنعة ، مناسب لعظمها ، وجميعها مكتوب من اعلاه الى أسفله بالخط القديم ··· وبين كل سارية منها والتى تليها نحو ثلاثين شبرا ·

وكما عقد فصلا للذين أخذ عنهم ، أو لقيهم بمدينة القاهرة ، عقد فصلا للذين أخذ عنهم أو لقيهم بمكة ، وهم :

1 ــ العماد أبو الحسن المكى ، الذى حلاه بقوله : الشيخ الفقيه الصالح الفاضل العابد الزاهد ، العالم الكامل ···· المنعوت بالعماد ، المشهور ابوه بالطبرى ···· سبط الامام الجليل ، امام مقام ابراهيم الخليل ، نجم الدين سليمان ··· سبط الامام أبى حفص الميانجى ··· سمعت على شيخنا عبد الرحمان المذكور ··· جميع صحيح ··· مسلم ، وبعد روايات ، قال وحضر يوما معنا ··· أخوان من أهل الاندلس ··· فلما ·· خرجا ··· ولم يكن رآهما ··· فقال ·· : أظنهما أخوين ، فقلت : نعم ،،،، فقال لنا : ما خفى على أمرهما ···

2 ــ ابو الحسين المكى ، الذى ذكره بقوله ، الشيخ الاجل ··· المعروف أبوه بالطبرى ، أخو شيخنا ·· المذكور ··· لقيت هذا الشيخ ، ببيت أخيه ··· فأجازنا جميع ما تجوز له روايته ··· ووعدنا بالسماع عليه ، فلم يتيسر ذلك ، لضيق الوقت ، واشتغالنا بالخروج الى الوقفة ···

3 ــ أبو اسحاق الطبرى ، قال فيه : الشيخ الفقيه ، الفاضل الصالح ، الزاهد العابد ، العالم العامل ··· الطبرى المحتد المكى

الدار »، وأحد فقهاء مكة وفضلائها وصلحائها ... ومن مروياته ... كتاب الاعتبار فى ناسخ الحديث ومنسوخه ... وقد قدمت فى ترجمة الشريف الغرافى ، انى قرات عليه هذا الكتاب ... قرات على الشيخ ... من قول أبى عيسى ... باب ما جاء فى النوم عن الصلاة .. الى ... أبواب الاضاحى وضمن مروياته أورد كثيرا من المقطوعات الشعرية ، فى مختلف الاغراض ، منها هذه التى أنشدها القاضى النعمانى :

رب خود عرفت فى عرفات ... سلبتنى بحسنها حسنات
حرمت حين أحرمت نوم عينى ... واستباحت دمى مع اللحظات
ورمت بالجمار جمرة قلبى ... أى قلب يبقى على الجمرات
وافاضت مع الحجيج ففاضت ... من جفونى سوابق العبرات
لم انل من منى منى النفس حتى ... خفت بالخيف أن تكون وفاتى

ومن هذه الاشعار ، دالية لجمال الدين ابن مسدى ، تحتوى على نحو ستين ومائة بيت ، ونونية فى نحو خمسين بيتا .

4 — الفخر أبو عمرو عثمان التوزى ، ذكره بالشيخ الفقيه ، الامام الفاضل ، المحدث الضابط ، المتقن الصالح ، الزاهد العابد ... أحد صلحاء المجاورين .. قرات عليه .. من أول الجامع الصحيح المسند ... الى ... باب حج الصبيان المذكور الى آخر الديوان ... اجازنا جميع .. رواياته (1) .

5 — أبو الفداء اسماعيل المصرى ، ذكره بالشيخ الصالح المعمر ، وانه قرأ عليه وعلى التوزرى ، من أول الجامع الصحيح ، مجتمعين بالحرم .

6 — العفيف عبد الله الدلاصى المصرى ، ينسب الى بليدة بصعيدها ، روى عنه ، وقعد بين يديه للتلقى ، بموضع اشرائه الكتاب العزيز فأخبره انه رأى النبى صلى الله عليه وسلم ، فيما يرى النائم ... كما أخبره بغير ذلك ، وأجازه .. جميع ما تجوز له روايته ، وذلك مرتين .

---

(1) توزر من بلاد الجريد بجنوب تونس ، ذكرها ياقوت ، وأورد فى مدحها قطعة ، أذكر مطلعها :

خير البلاد توزر ... فيها النعيم الأكبر

كما ذكر أن أهلها يأكلون الجراء المسمنة

7 — الشمس أبو عبد الله الجيانى ، ذكره بالشيخ الفقيه الامـــام الفاضل الصالح العابد ، الناسك ، الورع الزاهد ··· الانصارى الاندلسى ··· سمعت من لفظ الزاهد ··· الجيانى ··· جزءا فيه بداية السول ، فيمـــا سنح من تفضيل الرسول ··· وجزءا من كتاب الفرق بين الايمان والاسلام وجزءا من كتاب فوائد المصائب والبلايا ، وجزءا فيه كتاب الصوم (1) ·

وفى ترجمته ، قال : ولشيخنا الاديب أبى الحكم ، مالك بن المرحل ··· قصيد حسن ، مدح به الوزير أبا على بن خلاص ··· قال (فيه) :

يسيل ماء النــدى من بين أنملــه حتى يكــاد نداه يغرق الجلســـا
كــف تسالم مــن يلقاه مستلمـــا كمـــا تقاسم مـــن ياتيه ملتمســـا
فتشبــه الحجـــر المرفوع ملتثـــا وتشبه الحجـــر المحمول منبجســـا

ومن القطع التى انشده اياها ، قطعة ذكرها هو بأنها ، لأبى الوليد الفرضى ، وهـــي :

ببابــك عبــد من عبيدك واقــف على وجــل مما بـــه أنت عـــارف
يخاف ذنوبا لم يغب عنك غيبهـــا ويرجـــوك فيها فهو راج وخائــف
فيا سيدى لا تخزنـــى فى صحيفتى اذا نشرت يوما لديك الصحائــف
وكن مؤنسى فى ظلمة القبر عندما يصد ذوو القربى ويجفو المؤالـــف

ثم قل المؤلف : وهأنا أوردها بتمامها ، وأتبعها بقصيدة الاقليشى ، التى يقال ، ان أولها ماخوذ من قطعة ابن الفرضى ·· ثم أخبر عن صالح بن احمد الكنانى الشاطبى ، نزيل بجاية ، مناولة بيده ، كما اخبر عن الشيخ ابى القاسم السلمى ، قراءة عليه عن أبى الحسين بن السراج ، وأخبر عن أبى الحسين بن السراج ، وأخبر عن أبى عبد الله بن عياش القرطبى ، مناولة بمالقة ، عن قـــاضى الجماعة أبـــى القاسم ابن بقـــى ···· عن ابــــن باشكوال ، قال ، أخبرنا سفيان بن العاص الاسدى فى منزله ، قال ، قرات على أبى عمر بن عبد البر النمرى ، قال ، انشدنا أبو الوليد ابن الفرضى لنفســـه :

أسيـــر الخطايا عند بابك واقــف

(1) جميعها لابن عبد السلام والاول « بحق قراءته له على ··· محمد بن موسى بن النعمان المراكشى الفاســـى »·

وبعد البيتين :

ومن ذا الذى يرجو سواك ويتقى   وما لك فى فصل القضاء مخالــف

وبعد البيتين :

لئن ضاق عنى عفوك الواسع الذى   أرجــى لاسرافى فانـــى لتالــف

ثم قال : اخبرنا ... أبو القاسم السلمى ... عن ابن الابار ... قال : وانشدنا أبو الحجاج ... المعروف بالغرناطى ... عن أبى بكر ... التجيبى اللاردى ، قال ، أنشدنى أبى ، قال ، أنشدنى ، الاقليشى ... التجيبى الزاهــد :

أسيــر الخطايا عند بابك واقــف   له عن طريق الحق قلــب مخالف
قديما عصى عمدا وجهلا وغــرة   ولم ينهه قلــب من الله خائــف
تريد سنــاه وهــو يزداد ضلــة   فها هو فى ليــل الضلالة عاكــف
تطلع صبح الشيب والقلب مظلم   فما طاف فيه من سنى الحق طائف
ثلاثــون عامــا قد تولت كأنهــا   حلوم تقضــت أو بروق خواطــف
وجاء المشيــب المنذر المــرء انــه   اذا رحلــت عنه الشبيبة تالــف
فيا أحمد الخوان قد أدبر الصبــا   وناداك من سن الكهولة هاتــف
فهل أرق الطرف الزمان الذى مضى   وأبكــاه ذنــب قد تقدم سالــف
فجد بالدموع الحمر حزنا وحسرة   فدمعــك ينبــى أن قلبك آســف

ثم قال : وقد أنشدت القطعة الفائية الأخيرة ، من أناشيد الشمس الجيانى ... لشيخنــا وسيدنــا ، وعمدتنا وذخيرتنا ، وبركتنــا ورفيقنا .... الغافقى الاشبيلى ثم القبتورى ... فاستحسنها ،، فخمسها ، وأنشدنى التخميس ... وهــو :

ايا سيدا منــه ترجى العواطــف   فكم شملت منــه العصاة لطائــف
بها سكنت منهم قلــوب رواجــف   ببابــك عبد ...

***

تؤيسه النفــس التى طم عيبهـــا فتونسه الرحمى التى عم سيبهــا
وعقدة توحيد بها انجاب ريبهـــا يخاف ذنوبــا .... (1)

*

الهفى لازمـــان اضعت شريفــة غرورا بآمال هوت بى سحيقــــة
برانى أســـى تضييعها فرط خيفة فيا سيدى ....

*

فقدت شباب فقده الأنس أعدمــا وجاء مشيب هد جسمى وهدمــا
فخذ بيدى عبد بكى الدمع عندمــا وكن مؤنسى ....

*

وانشدت ايضا القطعة المذكورة ... لصاحبها الأديب الحافل القاضى ابى الحجاج ... محمد الانصارى الطرطوشى ثم السبتى بها ، فاستحسنها وخمسها وأنشدنى التخميس بسبتة المحروسة .... وهو :

اسال دموع الطــرف لاذنب طارف وما لى عقل عن هوى النفس صارف
أمولاى يا من ترجى منه اللطائــف .....

*

أناك بعين ساح فى الترب عيبهــا للمة رأس شـــح فى التوب شيبها
وأفعال نفس صح بالذنب عيبهــا .....

*

(بيــاض فى المطبوع) تحــط بأيــدى حافظــين شريفــة
على صحف مما بها لـــي خيفتـــى ......

*

تقدم ذنبـــى فاصطبـــارى تهدمـــا وعينى أجـــرت خيفة دمعها دمـــا
فياربـــى اغفر كـــل ذنب تقدمـــا ......

*

(1) ورد بأول هذه « ضم عيبها » ولعل الصواب ما استظهرناه فأثبتناه .

ثم ساق نبذة مكملة للاناشيد المكية ، منها تخميس ثان ، للقبتورى ، لأبيات سمعا منشدا ينشدها ، وهو :

يا ربـــة الحســـن التـــى لفراقها بلغ الاسى مـــا شاء من عشـاقهـــا
فنفوسهـــم لم تـــأل فى ازهاقهـــا يا كعبـــة ضنت عـــلى مشتاقهـــا
لم تفش (1) للزوار من أشواقها

من لم يبت بسهام حبك مقصـــدا ويرى سبيل الصبر دونك موصدا
قد ســـاء فى ديـــن المحبة مقصدا جاءت وفـــود الله مكـــة قصـــدا
فرأوا ثياب الحـــزن من اطواقهـــا
(بيـــــاض بالمطبـــوع)

عجبا عجبت وحق ذاك (تعجبا) (1) (بيـــــاض)
فالشمس قد حجبت على اشراقهـــا

لمـــا رأتكـــم بعـــد حث نياقكـــم للقائكم مـــن شامكـــم وعراقكـــم
أزمعتـــم الرجعـــى الـــى آفاقكـــم لبست ثيـــاب حدادها لفراقكـــــم
هـــــلا لبستـــم مثلهـــا لفراقهـــا

ثم أورد قطعا أخرى لابن حنا ، ولحامد الجعفرى التبريزى ، ولابـــن سكرة . وكان سماعه للثانية من المجاور أبى عبد الله محمد الحسنى المغربى الفاسى بالحرم الشريف ، سمعها هذا من شيخه قطب الدين القسطلانى ، وهذا من التبريزى .

8 ــ نجم الدين العجمى ، قال فيه الشيخ الوارث الناسك ، السالك جار الله ... معروف العجمى ... لقيته مرة فى الطواف ، ورغبت منـــه أن يدعو لي فقال لي : نعم ، ولم يزدنى على ذلك .

9 ــ أبو عبد الله ابن المطرف ، حلاه بالشيخ الجليل ، الحسيـــب الاصيل ، العابد الولى ، التقى الفاضل ... الاندلسى ثم الاشبيلى ، منفق

(1) استظهارا منا . فالاولى جاءت « تشف » والثانية مكانها بياض .

على ولايته وكثرة عبادته ··· لقيته برباط الموفق ، بمكة ، ببيت سكناه ، ورغبت منه أن يدعو لي ، ففعل ·

10 — أبو محمد الهروى ، قال فيه ، الشيخ الصالح العابد ··· أحد عجائب الدنيا فى كثرة الايثار والانفاق ، فى وجوه البر ··· لقيته بالطواف ، فأنسنى ، وسألنى عن بلدى ودعا لي بخير ·

11 — أبو علي النجار ، وصفه بالشيخ الفقيه الامام الفاضل النحوى ، الصالح الزاهد العابد ··· أبو على الافريقى المعروف بالنجار ··· كانت له فى نفسى مكانة علية ، فكنت اذا لقيته ابتدرت القيام اليه اجلالا ، فكان ينهانى عن ذلك ، تواضعا منه ، ويقول لي ، لا تفعل ذلك ، فانى مغربى ، واهل المغرب لا يقوم بعضهم الى بعض ·

وأتى يوما الى حلقة شيخنا الرضي أبى اسحاق ، ليسمع معنـــا الحديث الشريف ، فقصد جهتى ، فابتدرت القيام اليه ، على عادتى ، فقال لي ، الم انهك عن هذا ، وأعلمتك انى لا أحب أن تقوم لى ، فقلت له : يا سيدى ما ذكرت لى ، من عدم ارادتك لذلك ، مع علمى بتواضعك وزهدك هو الحامل الى على أن أقوم لك ، لأن من أراد أن يقام له ، فينبغى ان لا يفعل معه ذلك ، وكذلك أفعل فى الغالب ، ومن أراد العكس فبالعكس ···

فلما قلت للشيخ ··· ما قدمت ، كان قاعدا من خلفنا فى الحلقة ، بعض العراقيين ، فقال لى ، لقد أتعبت الرجلين ··· فتبسم الشيخ ·

12 — ابن صدقة ، قال فيه ، الشيخ الصالح الزاهد السياح ، فى الارض ··· ابن صدقة البصرى العابد ، صحب الصوفية ··· وصحب جماعة

لقيته بمكة ، وجالسته ببيت شيخنا ، عماد الدين المكى ··· ثم لقيته بمدينة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ···

واخيرا ، قال انتهى ذكر من تيسر اثباته ، فى هذا التقييد ، من أهل مكة المعظمة ، ونزلائها وعلمائها ورواتها وصلحائها ·

وخلال تراجمه ، ذكر أنه طلب من شيخه ورفيقه التبتورى تخميـــس الأبيات المذكورة لابن دقيق العيد ، فخمس هكذا البيتين المذكورين ·

وقيت وقوع المولمات الملمة   اماما شأى فى فضله كل أمة
شدا اذ تنوانى شيبه بعد همة   « تمنيت أن الشيب عاجل لمتى
وقرب منى فى الشباب مزاره »

وحقق من ذاك التمنى مناطه   ليفهمه من لم يفهم بساطه
باتباعه كي يستبين ارتباطه   لآخذ من عصر الشباب نشاطه
« وآخذ من عصر المشيب وقاره »)

ثم الأبيات الخمسة هكذا :

كلف براه شجوه المترادف   فالوجد يشكو والدموع ذوارف
أترى القضاء بمبتغاه يساعف   « يا منيتى أملى ببابك واقف
والجود يأبى أن يكون مضاعا »

لو أن ما بي للجبال تصدعت   وكأن بنفسى ويح نفسى ودعت
كبدى بما تلقاه فيك تقطعت   « أشكو اليك صبابة قد اترعت
لي فى الهوى كأس الردى اتراعا »

وجوى بقلبى ما يشابهه جوى   نشرت دموعى منه ما كتمي طوى
هو سائق لي مذ توالى للثرى   « ونزاع شوق لم تزل أيدى النوى
تنمي به حتى استحال نزاعا »

رحماك فى ففيك أهل الحب فت   لم يبق منى غير أنفاس خفت
ينبين عن قلب غراما فيك فت   « لم يبق لي أمل سواك فان يفت
ودعت أيام الحياة وداعا »

حسبى بحبك يا ملاذى متجرا   فيه أؤمل فى غد ان أوجرا
وارى برؤيتك النعيم الانضرا   « لا أستلذ بغير وجهك منظرا
وسوى حديثك لا أريد سماعا »

والقبتورى هذا ذكرناه فى تاريخ سبتة ، من تاليفنا ، ونموذجا من

رسائله عن العزفيين ، ومن شعره الوارد فى هذه الرحلة ، قصيدة فى الكعبة :

الله أكبر لاح بيت الهي ... متسربلا خلع السنا والجاه
مثل العروس بدا بصفحة خدها ... خال لديه شفاء ظمء شفاه
أعظم به بيتا تضاءلت البيو ... ت الساميات لعظمه المتناه
مهوى قلوب العالمين المعتزى ... للعز فيه جل عن أشباه
تغدو الملوك لديه صاغرة معفـ ... ـرة لأشمخ آنف وجباه
أوزار زائره تحط ووفده ... ملء السماء به الاله يباهى
قرت نواظر كل راء متع الـ ... ـلحظات فى ذاك الرواء الباهى
ورنا لزاهر نوره الدارى على ... لألاء كل النبوات الزاهى
أمبلغا منه المنى وقره مبـ ... ـلغ جهد نفسك لا دهاك الداهى
وصفات نفسك زكها فيه ولا ... تنطق لسانك عنده بسفاه (1)
وتناء عن شان يشينك ولتكن ... لك من نهاك عن القبائح ناه
وصل التضرع والتذلل جاهدا ... فعل المنيب المخبت الأواه
نفسى أردت بما ذكرت فان لى ... فيها لشغلا عنه لست بساه
وذخيرتي حب النبي وآله ... لغد اذا حشر الأنام الهي
واليه مستندا ركنت فانه السـ ... ـند القوى وما سواه واه

ومما نستفيده من ترجمة القفطى ، أن مدينة سرقسطة من جزيرة صقلية النورمندية ، ظلت فيها الحركة العلمية ، فان الشيخ التاريخى محمد التلمسانى ، نزيل سبتة ، بقراءة المؤلف عليه ، أخبره القاضى أبو مروان اللخمى الباجى ··· وقال الكتامى قراءة عليه بلفظى من حفظى بسرقسطة ··· سنة أربع وثلاثين وستمائة ··· قال أخبرنا الفقيه الخطيب ··· عبد الرحمن بن حبيش الانصارى ···· والفقيه ··· عبد الرحمن السهيلى الخثعمى

وقد أخذ عن علماء ، غير الذين ذكرهم بالقاهرة والحرم ، تلقاهم بالشام والحرم النبوى والاسكندرية وتونس والجزائر ، مثل محمد بن هرون

---

(1) بالأصل انتهت الاشطار الاولى هكذا : صاغرة ، تحط وفده ، مبلغ ، فيه ·
والبيت لعله :
ورنا لزاهر نوره الزارى على ... لألاء كل النيرات الزاهى

القرطبى بتونس ، وتاج الدين العراقى الغرافى بالاسكندرية ، والخلاسى البلنسى بتونس أيضا ، والبهاء القفطى بقوص من مصر ، وسعد الدين ابن الصلاح كذلك ، وفقيه الشام — كما قال — عبد الله بن مروان ، بدار الحديث الاشرفية ، وابن تيمية أبو العباس وابن القزاز وابن العنيقة ، من مشايخه الجلة — كما قال — وجميعهم من حران ، من ديار بكر ، قريبا من دمشق ، واخذ ببجاية عن آخرين ·

وفى الرحلة جانب تاريخى ، خصوصا فيما يتصل بالحرم الشريف ، كما أنه فيها يحقق الأعلام والانساب ، وهذا معروف لرجال الحديث أمثاله ، وقد تقدم مثال من ذلك ·

وكثيرا ما قرانا لأصحاب الرحلات المغاربة ، عموما تذمرا من أصحاب المكوس ، وفى مصر خاصة ، ومنهم ابن جبير ، ثم التجيبى هذا ، حيث يقول عن أخميم ، وكانت اقامتنا بها أربعة أيام مكرهين ، بسبب اعتقال مركبنا ، حتى كشف المكاسون عن جميع ما وصل فيه من البضائع والاموال ، على نحو ما تقدم ذكره فى ديوان الاسكندرية ، بل اشد واشنع ، والزم أرباب المال والبضائع جملة القاب من المكس ، فأدوها مكرهين ، والله تعالى يصلح احوال المسلمين ، ويرفع عنهم المكوس ، ويرشد ولاتهم لاقامة الحق والعدل ·

وهى شكوى نجدها حارة تتوجه من مصر خاصة ، وما زال الأمر كذلك ، الى يومنا هذا ، والامر لله ···

وكما جاءت فى الرحلة نصوص أدبية ، من الشعر ، القديم والمعاصر له ، شرقا وغربا ، فكذلك جاء فيها من النثر المعاصر الوجيه ، عمدة التجار والمسافرين ، ونخبة الرؤساء المكرمين ، تاج الدين المعروف بابن حنا » الذى كتب فى حقهم ، كما قال ، كتابا حافلا ، لأمير بلدة قوص ، قال « يتضمن الاعتناء بنا ، والاحترام الينا ، ويحضه على تيسير جميع مطالبنا ، وتكميل اغراضنا ·

وهذا فصل من فصول الكتاب ، اوردته ليستدل به على باقيه ، وهو :

فالمجلس ، أعزه الله ينتهز هذه الفرصة ، فى خدمة المذكورين ، ويقابلهم بالاكرام والاجلال ، ويعاملهم بالاحترام والاحتفال ، ويتوصى بهم كل الوصية ، ويبسط لهم من الأنس ، ما أعلمه من أخلاقه الرضية ، ويظهر الاجتهاد فى مصالحهم ، والاعانة لهم ، والعناية بهم فيتقدم الى النواب ، بمساعدتهم على استئجار الجمال ، التى يحتاجون الى ثغر عيذاب المحروس، ويكتب المجلس من جهته ، كتابا شافيا الى نوابه ، بالثغر المذكور ، يتضمن الوقوف فى خدمتهم ، وتسفيرهم فى أجود المراكب ، والتاكيد على الربان فى أمرهم ورعايتهم واكرامهم ، ويفعل المجلس فى هذا الامر ، من أنـــواع التاكيد والمساعدة ، ما يجد شكره فى الدنيا والآخرة » ·

قال المؤلف اثر هذا :

وبالجملة ، فاهل الوجاهة والرئاسة فى هذه البلاد يعتنون بالحجاج ، ويحسنون الظن بهم ···· وكذلك كان ملك مصر والشام ، السلطان الاجل ، حسام الدنيا والدين ، أبو الفتح لاجين المنصور ··· يعتنى بالحجاج ويامــر بتسهيل طريقهم ، ويوصى بذلك عماله ونوابه ···· وقد أشرنا الى شىء من هذا عند ذكر جامع ابن طولون ·

لم نطلع على هذا الاخير ، عند ذكر جامع ابن طلون ، لأن هذه الرحلة ، لم يعثر الا على الجزء الثانى منها ، وهى تضم ثلاثة أجزاء ، فتكون بذلك الحجم الذى عليه رحلة معاصره ابن رشيد ، وبلديه من سبتة (1) ·

(1) تولى طبع هذا الجزء الدار العربية للكتاب ، بتونس ، وذلك بتحقيق واعداد الاستاذ عبد الحفيظ منصور ، وقد كتبت الرحلة فى أواخر القرن السابع ، وتوفى صاحبها عام ثلاثين وسبع مائة ·

فهرس الموضوعات

الباب الرابع ـ العهد المريني

دار الثقافة
الدار البيضاء

صــدر عــن :

• روضة التعريف بالحب الشريف 1 – 2	تحقيق د. محمد الكتاني
• محمد اقبال مفكرا اسلاميا	د. محمد الكتاني
• الخوارج في بلاد المغرب	د. محمود اسماعيل عبد الرازق
• سوسيولوجية الفكر الاسلامي 1 – 2	د. محمود اسماعيل عبد الرازق
• تأملات في الأدب المعاصر	د. ابراهيم السولامي
• كتاب السياسة أو الاشارة في تدبير الامارة	الحسن المرادي : تحقيق د. علي سامي النشار
• الأصول : دراسة ابيتسيمولوجية	د. تمام حسان
• مناهج البحث في اللغة	د. تمام حسان
• اللغة العربية مبناها ومعناها	د. تمام حسان
• اللغة العربية بين المعيارية والوصفية	د. تمام حسان
• المدخل لدراسة التاريخ والأدب العربيين	د. محمد نجيب البهبيتي
• المعلقة العربية الأولى أو عند جذور التاريخ 1 – 2	د. محمد نجيب البهبيتي
• تاريخ الشعر العربي	د. محمد نجيب البهبيتي
• أبو تمام الطائي	د. محمد نجيب البهبيتي
• أحاديث عن الأدب المغربي	العلامة عبد الله كنون
• تفسير سور المفصل من القرآن الكريم	العلامة عبد الله كنون
• رسائل ابن علي الحسن اليوسي 1 – 2	تحقيق الأستاذة فاطمة خليل
• زهر الأكم في الامثال والحكم 1 – 3 لأبي علي الحسن اليوسي	تحقيق د. محمد حجي و د. محمد الأخضر
• وقعة وادي المخازن	د. ابراهيم شحاتة حسن
• فلسفة بيكون	د. الحبيب الشاروني
• تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية	الدكتور لبيب يونان رزق
• عالم شاعر الحمراء	الأستاذ عبد الكريم غلاب
• دفنا الماضي	الأستاذ عبد الكريم غلاب

رقم الايداع بالخزانة العامة 384 / 1981

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

التمـن : 30.00 درهما